أحمد شقير

أصل الحكاية

صفحات منسية من التاريخ الحديث

فريق متميزون
E-BOOK

المصري للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أصل الحكاية

صفحات منسية من التاريخ الحديث

أحمد شقير

عن الكتاب..

حكايات منسية من صفحات التاريخ الحديث.. نعيد فتحها وقراءتها ونوثق تفاصيلها بكل دقة.. من مصادر مختلفة ومتعددة.. التفاصيل تقودنا لحكايات أخرى عديدة لا تنتهي.. نعيد بعثرتها ثم نقوم بتنسيقها وترتيبها بطريقة متداخلة.. لتلتقي جميعا مع نهاية الحكاية.

حكايات من مختلف أنحاء العالم، من الولايات المتحدة إلى السويد، ومن إنجلترا إلى المكسيك، ومن الفلبين إلى المحيط الهادي، ومن ألمانيا إلى فرنسا، حكايات وقعت أحداثها في الماضي القريب أثرت في العالم وتأثرت به.. نهتم بكل الدقة في توثيقها بالتحقق من تفاصيل الزمان والمكان والأشخاص والأسماء لتعتبر مرجع لكل باحث.. وقبل ذلك حدوته ثرية لكل قارئ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداءٌ..

إلى جميع الأحرار..

ولمن ينشدون الحرية في كل مكان وزمان..

إلى الإنسان

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهروب إلى الحرية

قرابة الساعة الثانية وأربعون دقيقة من صباح يوم الأحد ١٦ سبتمبر ١٩٧٩، في بلدة [نايلا – Naila] الألمانية الصغيرة الواقعة على تلال غابة [فرانكينفالد – Frankenwald] بدائرة [هوف – Hof] البافارية، كان الشرطي [والتر هامان - Walter Hamann] يستقل سيارة الدورية التابعة ل «شرطة ولاية بافاريا - Bayerische Polizei» بصحبة الشرطي [رودولف جولكل - Rudolf Gölkel]، بعد قليل من بداية دوريتهما المسائية الروتينية، حيث كانا يتتبعان الحالة الأمنية للمدينة من خلال الطرقات الخارجية بسيارة من نوع [أودي ٨٠ – Audi ٨٠]، لاحظا جسمًا متحركًا ببطيء، وغير محدد الملامح يصدر وميضًا في السماء المتلألئة بالنجوم، لم يكن ضوء القمر ربع المكتمل كافيًا للتعرف على هذا الوميض المتحرك، تسائلا إذا كان محتملًا ألَّا يكون هذا المجسم سوى نيزك، ولكنهما رفضا التفسير حيث أن حركة النيزك تكون سريعة، ورؤيته تكون خاطفة عكس ما يرونه تمامًا، حيث استمرت رؤيتهما له لبضعة دقائق على ارتفاع يقارب ١٥٠٠ متر قبل أن يختفي الضوء تمامًا، وبشكل مفاجئ، وغامض، كان الشرطيين مقتنعين أن هذا الجسم الغريب قد سقط بسرعة على تلال الغابة على مسافة أطول قليلًا من ثلاثة كيلومترات جنوب غرب المدينة، عندما وصلا إلى الموقع المحتمل لم يستطع أي منهما أن يكتشف شيئا في البداية، حتى خرجا لهما فجأة في الظلام، ومن بين الشجيرات شخصان بدا وكأنهما شبحان، سأل الشخصان الشرطيين بطريقة قلقة، وعصبية تحمل بعض الشك، وبلكنة تشبه لكنة أهل ولاية [تورينجن – Thüringen] الألمانية الشرقية عن مكان تواجدهما الحالي، وقبل أن يرد الشرطيين سارعا بالسؤال: «هل هذه ألمانيا الغربية؟»

[بيتر سترلزيك - Peter Strelzyk] (٣٧ عاما) فني كهرباء، وميكانيكي سابق في سلاح القوات الجوية الألمانية الشرقية، و[جونتر فيتزيل - Günter Wetzel] (٢٤ عاما) عامل بناء حر، كلاهما تزاملا، وتصادقا خلال عملهما معا لمدة أربع سنوات في أحد المصانع المحلية لإنتاج لدائن البلاستيك في مدينة [بوسنك – Pößneck] في ولاية (تورينجن) بألمانيا الشرقية، صارح كل منهما الآخر برغبته في الفرار من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية، كان كل منهما يدرك أن المهمة ليست بسيطة فهناك جدار (برلين) الحصين الفاصل بين الدولتين، ومن يحاول الفرار عبر الجدار معرض للموت حيث أن التعليمات صادرة بإطلاق النار على أي شخص يحاول الفرار من خلاله، كانت عقوبة محاولة الهرب عبر الجدار هي ثلاثة أعوام، وقد تمتد إلى ١٥ عامًا إذا كانت مصحوبة بمساعدة، أو تحريض شخص آخر على الفرار.

لمْ يكنْ كليهما يعاني من فقر مدقع، أو ظروف اقتصادية صعبة، فقد كانا ينتميان إلى الطبقة الوسطى العليا، وكليهما اشترى مؤخرًا منزلًا قديمًا، كان (سترلزيك) يمتلك سيارة، وكانت أسرته تعيش حياة مريحة في منزل يحتوي على جهاز تلفزيون، وثلاجة، وغسالة، ولكن نتيجة لسوء الأوضاع في ألمانيا الشرقية، وارتفاع الأسعار المطرد حتى في السلع الاستهلاكية الأساسية، وصعوبة الحصول العثور عليها، بالإضافة إلى أن حرية الفكر، والتعبير أصبحت أكثر تقيدًا، وأقل تسامحًا، الأمر الذي جعل (سترلزيك) يشعر بأنَّه على الجانب الخطأ من الحدود الألمانية، لذلك قرر عام ١٩٧٥ الفرار من ألمانيا الشرقية حيث سيسافر إلى يوغوسلافيا، ومنها يهرب إلى النمسا، ولكن تبخر حلمه عندما فشل في الحصول على تأشيرة دخول إلى يوغوسلافيا، شعر (سترلزيك)، وكأنَّه في سجن كبير، وهو ما شاركه فيه نفس الإحساس (فيتزيل)، فلم تكن فكرة فرارهما سهلة يومًا ما.

ولكن بالتأكيد ما زاد من صعوبتهما هو كيفية فرارهما بصحبة أسرتيهما، كان (سترلزيك) متزوجا من [دوريس – Doris]، وهي امرأة عاملة، ولديهما ولدين هما [فرانك سترلزيك - Frank Strelzyk] (١٥ عاما)، و [أندرياس سترلزيك- Andreas Strelzyk] (١١ عاما)، أمَّا (فيتزيل) فقد كان متزوجًا من [بيترا - Petra Wetzel] ولديهما طفلين هما [بيتر فيتزيل - Peter Wetzel] (٤ أعوام)، و [أندرياس فيتزيل - Andreas Wetzel] (عامان)، كانت الصعوبة تكمن في فرار الثمانية معًا حيث كلما زاد العدد كلما زادت المخاطر، وقلت فرص النجاح، كانت وسيلة الفرار الأولية تدور حول تصنيع مروحية صغيرة تنقلهم عبر الحدود من (برلين) الشرقية إلى (برلين) الغربية من فوق الجدار، ولكن ظلت المشكلة في صعوبة الحصول على محرك المروحية، وكذلك تلك القطع المعدنية الكبيرة التي ستستخدم في تصنيع المروحية ستكون بلا شك ملفته لانتباه الأجهزة الأمنية، وأهما البوليس السري [شتازي – Stasi].

يومًا ما قامت شقيقة زوجة (فيتزيل) التي كانت قد استقرت منذ عدة سنوات خارج ألمانيا الشرقية بزيارة لأسرة (فيتزيل)، وكان معها بالمصادفة مجلة من ألمانيا الغربية، وبالداخل قرأ (فيتزيل) تحقيقًا عن مهرجان دولي للمناطيد في مدينة [ألباكركي، نيو مكسيكو - Albuquerque, New Mexico]، ثم أخبر (سترلزيك) بالتحقيق، ودارت التروس في عقولهما، لا يتذكر أي منهما من طرح الفكرة أولًا يوم ٧ مارس ١٩٧٥ عندما انتهيا من أداء العمل، وشرعا في تناول طعام الغداء، حيث اقترح أحدهما على الآخر فكرة بناء منطاد، والهرب به من أعلى الحدود إلى ألمانيا الغربية، وبالرغم من أنها فكرة صعبة المنال إلا أن كليهما فُتن بها، وأصبحا على يقين أنَّها ستنجح، لم يكن أي منهما على علم مسبق بكيفية صنع، وتشغيل المناطيد الهوائية، وإن كانت لديهما مهارة

يدوية حرفية كهربائية، وميكانيكية، وخصوصًا (سترلزيك)، لذلك قررَّ قراءة بعض الكتب عن المناطيد من خلال مكتبة المدينة.

على الساحل الجنوبي لشبه جزيرة [القرم – Crimea] تقع مدينة (يالطا) السياحية على ضفاف البحر الأسود، شهدت تلك المدينة ما يعرف باسم [مؤتمر يالطا - Yalta Conference] من ٤ إلى ١١ فبراير ١٩٤٥، حيث اجتمع فيه الزعيم السوفيتي (جوزيف ستالين)، والرئيس الأمريكي (فرانكلين روزفلت)، ورئيس الوزراء البريطاني (وينستون تشرشل)، كانت الحرب العالمية الثانية على وشك الانتهاء، وكانت الدلائل تشير إلى قرب هزيمة (هتلر)، كان الهدف الأساسي من الاجتماع هو تقرير مصير الدول المُحرَرَة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وسقوط ألمانيا، وإعادة تأسيس الدول الأوربية التي مزقتها الحرب، وكذلك الوضع في ألمانيا عقب تحريرها من النازية، كان هذا المؤتمر هو المؤتمر الثاني أثناء الحرب بين زعماء الدول الكبرى الثلاثة بعد [مؤتمر طهران - Tehran Conference] في نوفمبر ١٩٤٣، وقبل عقد [مؤتمر بوتسدام - Potsdam Conference] على حدود (برلين) في يوليو ١٩٤٥، ومن أهم ما انتهى له مؤتمر (يالطا) تقسيم ألمانيا إلى ثلاثة مناطق: بين الاتحاد السوفيتي، وبريطانيا، والولايات المتحدة، على أن تكون لفرنسا منطقة رابعة تستقطع من منطقتي بريطانيا، والولايات المتحدة، وتصبح ألمانيا بلد منزوع السلاح، عقب انتهاء الحرب في نهاية أبريل ١٩٤٥ باستسلام القوات الألمانية، عقد مؤتمر (بوتسدام)، والذي اتفق فيه على تقسيم العاصمة الألمانية (برلين) هي الأخرى إلى ٤ مناطق للدول الأربعة على الرغم من كونها تقع داخل المنطقة الحدودية التي خصصت للاتحاد السوفيتي، وفي غضون عامين زادت الانقسامات بشدة بين الاتحاد السوفيتي، والدول الثلاثة الأخرى؛ ليصبح العالم كله منقسمًا بين معسكرين هما المعسكر الشرقي بزعامة الاتحاد السوفيتي، والمعسكر الغربي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، ودول أوروبا الغربية، وكلا المعسكرين كانا أكثر تقاربًا جغرافيًا في ألمانيا حيث تلاصقت الحدود.

وبناء على خطة (مارشال) تمَّ الاتفاق على توحيد المناطق الألمانية الغربية الثلاثة إلى منطقة واحدة من أجل إعادة الإعمار، بعدما فشل الاتفاق مع السوفييت على الانضمام إلى خطة لإعادة الإعمار، وإصدار عملة ألمانية جديدة، قام (ستالين) حين ذلك بفرض حصار على قطاع (برلين) الشرقية الذي يسيطر عليه بهدف منع تسريب الأغذية، والمحاصيل، والإمدادات إلى (برلين) الغربية، وبناء عليه أقامت الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وكندا، ونيوزلندا، وأستراليا، ودول أخرى جسور جوية لنقل الغذاء، والإمدادات إلى (برلين) الغربية، الأمر الذي دفع (ستالين) إلى رفع الحصار عن (برلين) في مايو ١٩٤٩، وفي ٧ أكتوبر من نفس العام أعلن إنشاء [جمهورية ألمانيا

الديمقراطية - German Democratic Republic GDR]، أو ألمانيا الشرقية على مناطق النفوذ السوفيتي، وذلك من خلال اتفاقية سرية منحت من خلالها وزارة الشؤون الخارجية السوفيتية السلطة الإدارية للدولة في ألمانيا الشرقية، ولكن دون حكم ذاتي.

سبق إعلان قيام دولة ألمانيا الشرقية إعلان إنشاء [جمهورية ألمانيا الاتحادية - Federal Republic of Germany] في ٢٣ مايو ١٩٤٩ في المناطق الألمانية التي تسيطر عليها الدول الغربية، وبذلك أصبحت دولة ألمانيا الغربية دولة رأسمالية ذات اقتصاد سوق حر، وحكومة برلمانية ديمقراطية كان من نتيجتها نمو اقتصادي متسارع؛ لتصبح في خلال عشرون عاما مثالًا لمعجزة اقتصادية لدولة نهضت ونمت بعدما دمرتها الحرب، ومع النمو الاقتصادي المُبهر في ألمانيا الغربية، وتحسن مستوى المعيشة، رغب الكثير من مواطني ألمانيا الشرقية الذين يعيشون تحت وطأة النظام الشيوعي، والشمولية، والاشتراكية الماركسية الانتقال إلى ألمانيا الغربية، حيث بلغ عدد مواطنين ألمانيا الشرقية الذين انتقلوا إلى ألمانيا الغربية عام ١٩٥٠ قرابة ١٨٧ ألف شخصا، و ١٦٥ ألف شخص في العام التالي، ثم ازداد إلى ١٨٢ ألف شخص عام ١٩٥٢، وبلغ ذروته عام ١٩٥٣ حيث بلغ ٣٣١ ألف شخص، بسبب الخوف من إجراءات تعسفية سوفيتية جديدة قد تشهدها ألمانيا الشرقية نتيجة حالة جنون العظمة التي أصابت (ستالين) في أواخر عام ١٩٥٢، كانت ألمانيا الشرقية تفقد خيرة أبنائها من المتعلمين، وأصحاب الشهادات العلمية، والخبرات، والمهارات الاحترافية نتيجة رحيلهم لألمانيا الغربية فيما يسمى ب [هجرة الأدمغة - Brain drain]، الأمر الذي دفع وزير الخارجية السوفيتي [فياتشيسلاف مولوتوف - Vyacheslav Molotov] إلى اقتراح أهمية قيام الألمان الشرقيين بوضع نظام مرور بين مدينتي (برلين) الشرقية، و(برلين) الغربية بهدف ظاهري، وهو منع الجواسيس الغربيين من دخول ألمانيا الشرقية، وهدف غير معلن بوقف هروب الأدمغة إلى الغرب، وهو ما وافق عليه (ستالين) حيث أمر ألّا يكون خط الترسيم بين المدينتين هو خط حدود فقط، ولكن خط منيع يحميه مواطنو ألمانيا الشرقية بحياتهم، وبناء عليه تم فصل الحدود أولًا بين الجمهوريتين الألمانيتين فتم تثبيت الأسلاك الشائكة، وإنشاء أبراج المراقبة، ثمَّ قررت حكومة ألمانيا الشرقية منع السفر إلى ألمانيا الغربية بعدما لاحظ سفير ألمانيا الشرقية في موسكو أن حرية السفر بين العاصمتين تجعل الشعب يقوم بالمقارنة بين النظامين الاشتراكي الرأسمالي في كلتا المدينتين، وهو ما لن يكون في صالح ألمانيا الشرقية، والنظام الاشتراكي.

مع تقلص أعداد من هم في سن العمل في ألمانيا الشرقية من ٧٠.٥ ٪ قبل الحرب إلى ٦١ ٪ نتيجة هجرتهم لألمانيا الغربية، والتي نتج عنها خسارة

مباشرة في القوة العاملة في ألمانيا الشرقية لصالح الغرب بما يقدر بقيمة تتراوح بين ٧ إلى ٩ مليارات دولار، الأمر الذي دفع [نيكيتا خروتشوف - Nikita Khrushchev] الرئيس السوفيتي الذي تولى الحكم خلفا للزعيم السوفيتي «ستالين» لإقامة جدار عازل بالتنسيق مع [فالتر أولبريخت - Walter Ulbricht] أمين عام حزب الوحدة الاشتراكي، ورئيس وزراء ألمانيا الشرقية الحاكم، وفي يوم السبت ١٢ أغسطس ١٩٦١وقع (أولبريخت) مرسومًا يتم بمقتضاه إغلاق الحدود الكامل مع ألمانيا الغربية، وإنشاء جدار فاصل في (برلين) يفصل بين الجانب الشرقي في ألمانيا الشرقية، والجانب الغربي في ألمانيا الغربية.

على الفور تحركت القوات، والعمال لفصل الحدود في (برلين) وتكسير الطريق لجعل الخط الفاصل غير ممهد لحركة السيارات، تم وضع الأسلاك الشائكة بطول الحدود الفاصلة بين الألمانيتين التي تبلغ ١٥٦ كيلومتر، ومسافة ٤٣ كيلومتر التي تفصل بين (برلين) الشرقية و(برلين) الغربية، ولاحقًا بعد أربعة أيام تم وضع أول حجر في بناء [جدار برلين - Berliner Mauer] تحت غطاء من قوات أمنية مجهزة لإطلاق النار في حالة نشوب أي حالة شغب أو تمرد، عديد من العائلات تم الفصل بين أفرادها نتيجة الجدار، كما فقد العديد من العاملين في ألمانيا الشرقية وظائفهم في القطاع الغربي، النقطة الإيجابية الوحيدة التي وجدها الغرب في إنشاء الجدار هو اعتبار هذا الأمر نهايةً للمخاوف المتكررة من استيلاء ألمانيا الشرقية على برلين بأكملها، بينما وجدت ألمانيا الشرقية في الجدار ما تعتبره حماية لها مما تطلق عليه الفاشية الغربية، بالإضافة إلى تحجيم عمل الأنظمة المخابراتية الغربية داخل ألمانيا الشرقية، كذلك الحد من استيلاء الألمان الغربيين على السلع المدعومة من الدولة في ألمانيا الشرقية، ولكن الواقع أثبت في النهاية أن إغلاق الحدود كان فقط من أجل منع مواطني ألمانيا الشرقية من السفر إلى الغرب، ولكن دون الحد من سفر سكان برلين الغربية إلى برلين الشرقية.

شابان عمرهما ١٩ عاما يصنعان على التوازي فصلًا من فصول الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي، والغربي، وحدثًا من أحداث جدار (برلين)، أحدهما هو [هانز كونراد شومان - Hans Conrad Schumann] من ألمانيا الشرقية، والأخر هو [بيتر ليبينج - Peter Leibing] من ألمانيا الغربية، ويعمل مصور لصالح وكالة هامبورج للصور، والتاريخ هو الثلاثاء ١٥ أغسطس ١٩٦١ بعد ثلاثة أيام من توقيع (أولبريخت) المرسوم الخاص بإنشاء الجدار، والبدء في تنفيذه، والتوقيت هو الساعة الثالثة عصرًا، والمكان هو الحد الفاصل في (برلين) المكون من لفائف الأسلاك الشائكة.

أخبر (ليبينج) من شرطة ألمانيا الغربية بأن شيئًا ما متوقع حدوثه في شارع [بيرناور شتراسه - Bernauer Straße] عند الحد الفاصل الجديد بين برلين الشرقية وبرلين الغربية، عندما وصل (ليبينج) للموقع لاحظ أحد أفراد حرس الحدود على الطرف الآخر متكئًا على أحد الأسوار، يدخن سيجارة تلو الأخرى، محاولًا الحفاظ على هدوئه، كان هذا الشخص هو (كونراد شومان) ضابط الصف المتطوع في شرطة مكافحة الشغب [Bereitschaftspolize] في ألمانيا الشرقية، والمكلف بمراقبة، ومتابعة الحد الفاصل بين المدينة المنقسمة عند زاوية شارع [روبينر شتراسه - Ruppiner Straße]، حاملًا على كتفه بندقيته [PPSH-٤١] السوفيتية الصنع، في تلك الأثناء كان يقوم اثنين من رفاقه بدوريات في الجهة المقابلة له على نفس الجانب على بعد بضعة أمتار، بينما كانت هناك على الجانب الغربي سيارة شرطة متمركزة قبالة السلك الشائك، وبابها الخلفي مفتوح، مرت ساعة كاملة، ولم يحدث شيء، ولكن (ليبينج) لم يفقد الأمل فقد كان منتبها بشكل محدد تجاه (شومان) وجاهزًا بكاميرته [اكساكتا – Exakta] الألمانية الشرقية الصنع، وبؤرة عدسته تمَّ ضبطها مسبقًا على الأسلاك الشائكة، وفجأة حيث كان يصيح بعض المواطنين في برلين الغربية تجاه (شومان) بصوت واضح: [تعال هنا! -!((Comeover (Komm ruber)]، ألقى (شومان) بسيجارته ثمَّ استدار وركض سريعًا تجاه لفائف السلك الشائك الذي يصل ارتفاعه حوالي ٦١ سنتيمتر ثم قفز أعلى السلك ملقيًا بسلاحه خلفه على الأرض، ضغط (ليبينج) على زر التقاط الصورة منتصف لحظة قفز (شومان) أعلى السلك الشائك، كانت بندقية (شومان) ما زالت معلقة بكتفه، ويده اليمنى تمسك بحزامها الجلدي في طريقها لتحرير السلاح من كتفه تمهيدًا لإلقائها، بينما يده اليسرى ممتدة قليلًا للأمام بجوار جسده؛ لتقوم بالتوازن أثناء القفز، ويلتقط (ليبينج) واحدة من أهم الصور الأيقونية في تاريخ الصور الفوتوغرافية، والتي اشتهرت باسم [قفزة الحرية - Leap into Freedom]، وهو ما عنونت به صحيفة [بيلد - Bild-Zeitung] الألمانية الصورة في اليوم التالي.

كان هناك مصورين صحفيين آخرين يتابعون المشهد، ولكن الصورة التي صدرت في جميع الصحف الغربية كانت تلك التي التقطها (ليبينج)، في ثوان عقب قفز (شومان) من على الأسلاك الشائكة انطلق داخل المقعد الخلفي لسيارة الشرطة المتواجدة في الجانب الغربي، والمتاخمة للحد الفاصل حيث انطلقت سريعًا، واختفت عن الأنظار، ويصبح بذلك (كونراد شومان) هو أول شخص عسكري ينجح في الفرار من (برلين) الشرقية عقب البدء في إنشاء الجدار، لم يتم فقط التقاط الصورة فوتوغرافيا، ولكن أيضًا تم تصويرها سينمائيًا حيث يمكن في الصورة الكاملة غير المقطوعة مشاهدة المصور السينمائي من الخلف، وهو يقوم بتصوير المشهد، وكذلك في الصورة بعد

تحريرها يمكن مشاهدة كتف المصور، استطاعت تلك الصورة أن تبطل مزاعم مسؤولي ألمانيا الشرقية في مهدها بأنَّه قد تم اختطاف (شومان) من على الحدود من قبل قوات شرطة ألمانيا الغربية، حيث سجلت الصورة قفزة (شومان) عبر الأسلاك الشائكة دون تدخل أي من عناصر شرطة ألمانيا الغربية، كانت تلك هي الصورة الوحيدة في كاميرا (ليبينج) التي التقطت للواقعة، ومنذ عام ١٩٨٦ تم حفظ النيجاتيف في غرفة مكيفة الهواء في مبنى [أرشيف مدينة هامبورج - Hamburg State Archive]، وفي مايو ٢٠١١ تم اعتماد الصورة في برنامج ذاكرة العالم التابع لمنظمة [اليونسكو – UNESCO] كجزء من مجموعة من الوثائق حول سقوط جدار برلين، في عام ٢٠٠٩ تم نصب تمثال يحاكي القفزة قريبًا من ذات الموقع في (برلين) عند تقاطع شارعي (بيرناور) و (روبينر)، يقول المصور (ليبينج) عن اللقطة: «لقد كان (شومان) تحت نظري لأكثر من ساعة، كان لدي شعور أنَّهُ على وشك القفز، لقد كان نوعًا من الغريزة ليس أكثر، لقد تعلمت كيفية انتقاء الوقت الصحيح للتصوير من سباقات الخيل في (هامبورج)، وبعد ذلك ركض نحو الحاجز، ثم ضغطت على زر الالتقاط في الكاميرا في اللحظة المناسبة، وانتهى الأمر»

أما (شومان) فقد قال: «لقد كانت أعصابي على وشك الانهيار من التفكير، كنت خائفًا للغاية، وفي النهاية ركضت ثم قفزت، ومنها إلى السيارة، لقد كانت ثلاث، أو أربع ثوان ثم انتهى الأمر»

كان مواطني ألمانيا الغربية يرون (شومان) بطلًا، بينما كان مواطني ألمانيا الشرقية يرونه خائنًا، في تقرير الشرطة أفاد (شومان) بمعلومات جيدة عن الوضع داخل المعسكر الشرقي، حيث كشف أنَّه في الأيام الأخيرة السابقة لفراره كان قد تركز عمله في محاولة السيطرة على الحدود دون راحة، وقد تم إخباره أن من يقبعون خلف الحدود الغربية هم مجرمون، وأن شرطة ألمانيا الغربية تفعل أي شيء من أجل منع سكان برلين من العبور للقطاع الشرقي بما في ذلك إطلاق النار عليهم، ولكن بعد أن بدأ (شومان) عمله في متابعة السيطرة على الحدود، أدرك أن كل ما قيل له كان كذب، ولم تكن هناك أي نزاعات بين سكان برلين الغربية، والشرطة، وكانت تلك المنطقة الحرة بالفعل حرة، لاحقًا أوضح (شومان) أن الأسباب وراء فراره تتلخص في أنَّه لا يريد أن يطلق النار على مواطن ألماني يفكر في العبور من طرف المدينة إلى الطرف الأخر، وأنَّه كشرطي حدود كان شاهد عيان على إعاقة حرس الحدود لطفلة صغيرة كانت تزور جدتها في (برلين) الشرقية، ولم يُسمح لها بالعودة مرة أخرى إلى (برلين) الغربية، على الرغم من أن والديها كانا ينتظران على بعد أمتار قليلة من الأسلاك الشائكة في القطاع الغربي، إلا أن الطفلة تم استبقائها ببساطة في (برلين) الشرقية بواسطة أمن الدولة،

ولم تعد مرة أخرى، لذلك كان الفرار للقطاع الغربي من (برلين) كافيًا له؛ لتجنب هذا الصراع النفسي، والهروب من تلك الحياة البائسة في (برلين) الشرقية.

تعددت التحديات التي واجهت (سترلزيك) وزميله (فيتزيل) في تنفيذ فكرة الهرب بالمنطاد، فكان يجب أن يتم الإعداد كاملًا بعيدًا عن الأعين، ودون مشاركة أي طرف آخر، كانت قوات البوليس السري أو وزارة أمن الدولة المعروفة باسم [شتازي – Stasi] التي ارتبط اسمها بالقمع والرعب والتنكيل على مدار ٣٩ عاما، تدير حياة المواطنين بقبضة من حديد، حيث كان أغلبهم يتعرض للمراقبات السرية، والتنصت، والقبض على بعضهم وزجهم في المعتقلات لمجرد الاشتباه حيث يتعرضوا لشتى أنواع التعذيب دون أن يعرف أحد عنهم شيئًا، كان يعمل بالجهاز ٧٥ ألف شخص بصفة رسمية أمَّا المتعاونين فقد وصولوا إلى ١٧٥ ألف مرشد متخفي، بمعدل عنصر مخصص لكل مائتي شخص، لذلك لم يكن يتصارح المواطنون بعضهم لبعضا، أو يتكلمون بما يعانون، خوفًا أن يكون هذا الصديق، أو الجار أو القريب عضوا سريًا في جهاز (شتازي) فيكون مصيره الاعتقال والتعذيب، لذلك كان عامل السرية هو الأمر الأساسي عندما جاءت فكرة الهرب بالمنطاد لكل من (سترليزك) و (فيتزيل)، بعد سلسلة من العمليات الحسابية تبين حاجاتهما إلى منطاد يصل حجمه إلى ٢٠٠٠ متر مكعب، ليحمل ثمانية أفراد يصل وزنهم مع المعدات ٧٥٠ كيلوجرام، مما يعني قرابة ٨٠٠ متر مربع من النسيج، وأصبح التحدي الأول لهما هو الحصول على النسيج بتلك الكمية الهائلة دون لفت الأنظار.

في أبريل ١٩٧٨ سافر الاثنين إلى مدينة [جيرا – Gera] التي تبعد ٥٠ كيلومتر عن مدينتهم الصغيرة (بوسنك) حيث قاما بشراء عدة لفات من القماش القطني من أحد المتاجر الشاملة الكبرى بعرض ١ متر، ويصل مجموع أطوال تلك اللفات إلى ٨٥٠ مترا، وقتها أخبرا البائع المتسائل، والمتشكك من ضخامة الكمية المشتراة بأن ذلك من أجل تصنيع مخيمات لنادي التخييم، كان (فيتزل)، وزوجته مسؤولان عن عملية الحياكة للقماش ليبدو على هيئة المنطاد باستخدام ماكينة خياطة يدوية قديمة، بينما كان (سترليزك) مسؤولًا عن تصنيع القفص الذي سيحمل الثمانية أشخاص بالإضافة لنظام الإشعال والوقود، تمَّ صناعة القفص من إطار حديدي تمَّ تجليده بألواح حديدية رقيقة، بينما تحيط الحبال البلاستيكية بالمحيط الخارجي على عدة مرات على ارتفاعات مختلفة، أمَّا نظام الوقود فكان عبارة عن أسطوانتين من غاز (البروبان) السائل المستخدم في المنازل بالإضافة لجزء من أنبوب الموقد وفوهة اشتعال.

بعد الانتهاء من الإعداد الذي استغرق أسبوعين كان التحدي الثاني هو تجربة المنطاد من دون لفت الأنظار، بعد أيام من البحث وجدا منطقة مناسبة وسط الغابات المعزولة قرب بلدة [تسيجنروك – Ziegenrück] تبعد عن مدينتهم ٣٠ كيلومتر، وعن الجدار الفاصل ١٠ كيلومتر، حيث تمَّ نصب المنطاد وتشغيل الموقد، ولكنَّهما فشلا في جعل المنطاد ينتفخ بالهواء، اعتقد كلاهما أن السبب في ذلك هو وضع المنطاد مسطحًا على الأرض مِمَّا يصعب عملية امتلاؤه بالهواء، وبالتالي طيرانه، وبعد أسابيع وجدوا مكان مرتفع نسبيًا يمكن وضع المنطاد عليه بشكل شبه رأسي مما يجعله قابلًا للانتفاخ بالهواء الساخن عند تشغيل الموقد، ولكن لم تنجح التجربة أيضًا، ثم توصلوا لفكرة، وهي ملأ المنطاد أولًا بالهواء قبل تشغيل الموقد، لذلك قام (فيتزيل) بتصنيع منفاخ كهربي من خلال محرك دراجته النارية ماركة (MZ ٢٥٠)، على أن يتم تشغيله الأولي وقت التنفيذ من خلال محرك سيارة (فيتزيل) الخاصة من نوع [ترابانت – Trabant] الألمانية الشرقية، وبعد ذلك يتم التشغيل عن طريق موصلات من خلال بطارية سيارة (سترلزيك) الخاصة [موسكوفيتش – Moskvitch]، وبالرغم من إتمام كل تلك الخطوات إلا أن المنطاد لم يتحرك، فقد اكتشفا من خلال تلك التجربة أن خامة القطن المصنوع منها المنطاد مسامية لدرجة أنَّها تمنع احتجاز الهواء داخل المنطاد، وتقوم بتسريب كمية كبيرة منه للخارج فتمنع ارتفاعه، تخلص (سترلزيك) من قماش المنطاد بحرقه في فرن منزله لمدة عدة أسابيع بعد أن كلفتهم التجربة ما يعادل من ٢٤٠٠ مارك ألماني شرقي، قام (فيتزيل) و(سترلزيك) بشراء أنسجة مختلفة من (التافتا)، و(اللينين) و(النايلون) من متاجر مختلفة، بما فيهم المادة التي تصنع منها المظلات اليدوية، وقاموا بتجربتهم، وكانت الأفضل هي المادة التي تصنع منها المظلات، ولكنَّها كانت الأعلى سعرًا، فاستقروا في النهاية على خامة (التافتا) المصنوعة من الألياف الصناعية، في تلك المرة قصدا أحد المتاجر الكبرى في [لايبزيج – Leipzig] التي تبعد عن بلدتهم مسافة ١٦٠ كيلومتر.

في تلك المرة أخبرا التاجر بأنَّهما يريدا شراء تلك الكمية الضخمة لتصنيع أشرعة بحرية لنادي الشراع، وقاما بسداد ما يقارب من ٤٨٠٠ مارك ألماني شرقي ل ٨٠٠ متر قماش بعرض واحد متر، وفي خلال أسبوع تم الانتهاء من حياكة المنطاد بعدما تم تزويد ماكينة الحياكة اليدوية بموتور، وبعد دقائق قليلة من ذهابهم للموقع نجحت التجربة وامتلأ المنطاد بالهواء، ولكنَّهم لاحظوا أن قوة الموقد لم تكن كافية لتوليد الحرارة اللازمة لتسخين الهواء ومنها ارتفاع المنطاد، حاولا بعدها لمدة أسابيع حل المشكلة بزيادة عدد الأسطوانات، وباستخدام مواد اشتعال أخرى، ولكن دون نتيجة، الأمر الذي دفع (فيتزيل) لليأس وقرر إلغاء الفكرة، وفضل أنَّه يجب التفكير في وسيلة أخرى للهرب بدلا من المنطاد، مثل: تصنيع طائرة خفيفة صغيرة تعمل

بمحرك بنزين، أو طائرة شراعية، لم يفتر حماس (سترلزيك)، واستمر في محاولة حل مشكلة الموقد، في يونيو ١٩٧٩ اكتشف أنَّه عندما يضع الأسطوانة في الوضع العكسي بحيث تكون قمتها على الأرض، وقاعدتها لأعلى يزداد الضغط داخل الأسطوانة مِمَّا يولد لهب بحجم أكبر، فقام بتعديل الصندوق بحيث يمكن وضع الأسطوانات مقلوبة ثمَّ ذهب للموقع للتجربة، واكتشف أن حجم اللهب وصل لارتفاع ١٢ متر، وقتها أدرك أن كل شيء أصبح جاهزًا، فقرر القيام بمحاولة الفرار مع أسرته يوم ٣ يوليو ١٩٧٩.

أطلقت ألمانيا الشرقية على جدار (برلين) الفاصل الذي بدأ العمل على إنشاؤه في ١٣ أغسطس ١٩٦١ «جدار الحماية من الفاشية»، بينما أطلقت عليه ألمانيا الغربية «جدار العار»، وهو يعتبرا رمزًا ماديا لما يعرف باسم [الستار الحديدي - Iron Curtain] التي تفصل بين أوروبا الغربية والكتلة الشرقية، قبل إنشاء الجدار نجح ثلاثة ملايين ونصف مليون شخص من الفرار عبر الحدود الفاصلة من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية ومنها إلى دول أوروبا الغربية الأخرى، وبعد إنشاء الجدار صعبت عملية الفرار للجانب الغربي وأصبحت محفوفة بالمخاطر، حيث شهد الجدار طوال فترة بقائه وهي ٢٨ عامًا مائة ألف محاولة فرار نجح منهم خمسة آلاف في العبور للجانب الغربي، بينما تم سجن ٧٥ ألف ألماني شرقي بتهمة محاولة الهروب إلى الجانب الغربي عبر الجدار، كان الجدار يحيط بكامل (برلين) الشرقية بطول ١٥٦ كم وبارتفاع يتراوح بين ٣,٤ متر و ٤,٢ متر، وبلغت مسافة الحوائط الأسمنتية فيه ١١١ كم، وبلغ طول السياج الشبكي الممتد خلال ما يعرف باسم شريط الموت مسافة ٤٤ كم، وصلت أبراج المراقبة إلى ١١٦ برج بالإضافة إلى ٢٠ غرفة محصنة تحت الأرض، وعدد ٢٥٩ كلب حراسة متوحش، وموانع مضادة للمركبات، بالإضافة إلى الألغام الأرضية، والفخاخ القاتلة على الحد الفاصل بين الألمانيتين خارج مدينة (برلين)، كان هناك تسعة معابر حدودية بين شرق وغرب (برلين)، وكانت تلك المعابر مقيدة جدًا، والعبور من خلالها بتصريحات خاصة، وكان أشهر تلك المعابر للسيارات، والمشاة هو [معبر تشارلي - Checkpoint Charlie] عن تقاطع [شارع فريدريك – Friedrichstraße]، و[شارع زيمر – Zimmerstraße]، وبعد توحيد الألمانيتين أصبح مبنى المعبر مزارًا سياحيًّا وجزءا من [متحف الحلفاء – AlliiertenMuseum]، تراوح عدد من فقدوا حياتهم في محاولة الفرار ما بين ١٣٦ شخص إلى مائتي شخص، استطاع [مركز التاريخ المعاصر - The Centre for Contemporary History]، ومركز [جدار برلين للتوثيق - Berlin Wall Documentation Center] توثيق حالات تخص ١٣٦ شخصًا لقوا حتفهم أثناء عبورهم حائط (برلين)، سُجل أعلى عدد لمن فقدوا حياتهم أثناء عبور الجدار عام ١٩٦٢ وهو العام التالي لإنشاء الجدار حيث بلغ عددهم ٢٢ شخصًا،

وتعدت نسبة من قضوا نحبهم في الفترة العمرية من ٢٠ إلى ٢٩ عامًا إلى أكثر من ٧٥ ٪، وبلغت نسبة القتلى من الرجال ٩٤ ٪ في المائة، أصبح [وينفريد فرويدنبرج - Winfried Freudenberg] هو آخر شخص يلقي حتفه في محاولة للهروب من ألمانيا الشرقية إلى برلين الغربية، وذلك قبل ٨ أشهر من هدم الجدار.

تزوج (فرويدنبرج) الحاصل على دبلوم الهندسة الإلكترونية من [الجامعة التقنية في إلميناو - Ilmenau University] من زميلته الكيميائية (سابينا)، اكتشف الزوجين أن السلطات حرمتهما من فرص مهنية رفيعة في الغرب، فشعرا، ولا سيما (فرويدنبرج) بخيبة أمل كبيرة؛ بسبب عدم قدرتهما على عبور الحدود، فقررا العبور أعلى الجدار الفاصل من خلال منطاد طائر يعمل بالغاز الطبيعي، يعمل الغاز الطبيعي على رفع المنطاد باعتبار المكون الرئيسي له هو (الميثان) الذي يعتبر أخف من الهواء، انطلق الزوجين بالسيارة ومعهم المنطاد مساء يوم ٧ مارس حيث كانت الرياح مناسبة، وتوجها إلى محطة لتنظيم الضغط في مدينة [بلانكنبرج – Blankenburg] المجاورة، كان يمتلك (فرويدنبرج) نسخة من مفاتيح المحطة، وعند منتصف الليل شرعا في ملأ المنطاد بالغاز الطبيعي، وبعد الواحدة صباحًا بقليل أصبح المنطاد ظاهر للعيان من على مسافة كبيرة حيث بلغ طول المنطاد ١٣ مترا وقطره ١١ مترا، لاحظ النادل بأحد في احد الحانات القريبة عند عودته عقب انتهاء عمله المنطاد من على مسافة ليست بعيدة نسبيًا، فأسرع بإبلاغ الشرطة (Volkspolizei)، وعندما سمع الزوجين صوت سيارة الدورية بعد الساعة الثانية بقليل لم يكن المنطاد قد امتلأ تمامًا بالغاز الكافي ليستطيع أن يقلهما معا، لذلك قررا سريعًا أن يهرب (فرويدنبرج) وحده بالمنطاد، ونتيجة لأن المنطاد حمل شخصًا واحدًا فقط فقد أرتفع إلى الأعلى بسرعة كبيرة، وبالرغم من أن الشرطة في ألمانيا الشرقية تطلق عادة النار على الفارين إلى ألمانيا الغربية، إلا أنَّها لم تفعل ذلك حيث تخوفت من حدوث انفجار نتيجة اشتعال الغاز الطبيعي، وخصوصًا أن (فرويدنبرج) عندما كان يلقي أكياس الرمل ليخفف حمولة المنطاد أصاب بعض خطوط الكهرباء التي أحدثت شرر، توقع على أثره جنود الشرطة أن يُقتل (فرويدنبرج) بفعل شرر الكهرباء، وهو ما لم يحدث، عندما عادت الزوجة (سابينا) للمنزل وجدت شرطة أمن الدولة (شتازي) قد سبقتها لتنتظرها بالمنزل، كان مفترض أن يعبر منطاد (فرويدنبرج) إلى الحدود الغربية بعد ٢٠ دقيقة، ولكن نتيجة لارتفاعه الكبير وتغير حركة الرياح، شوهد بعدها أعلى (مطار برلين تيجيل الدولي) في (برلين الغربية) حيث ألقى ببعض الأكياس الرملية الأخرى التي رفعته لمسافة ٢٠٠٠ متر، وأخذت الرياح المنطاد متجهة إلى الجنوب عند

الفجر قرابة هضبة [توفيلسبيرج – Teufelsberg] الصناعية التي ترتفع ١٢٠ متر فوق سطح البحر.

وقبل أن يعود المنطاد مرة أخرى بفعل اتجاه الرياح إلى (برلين) الشرقية، سقط (فرويدنبرج) عند الساعة السابعة والنصف صباحًا من المنطاد في حديقة إحدى الفلل بقرية [تزيلندورف – Zehlendorf]، بينما سقط المنطاد على مسافة كيلومتر من الجدار، تكسرت عظام (فرايدنبيرج) فور سقوطه، وتوفي على الفور، تم اكتشاف جثته بعد بضعة ساعات حيث توقعت الشرطة أنَّه تسلق المنطاد محاول قطع غلاف المنطاد؛ ليتمكن من الهبوط وهو ما نجح فيه، ولكن يبدو أن توازنه اختل فسقط من ارتفاع شاهق بحديقة الفيلا ليلقى حتفه على الفور، بعد الحادث قامت شرطة ألمانية الشرقية بالتحقيق مع أصدقاء وعائلة ومعارف وزملاء (فرويدنبرغ) وزوجته، لتحديد ما إذا كان أي منهم قد شارك، أو ساعد في محاولة الهرب، ونتيجة الانتقادات الدولية حصلت زوجته (سابينا) على حُكم مخفف نسبيًا بالحبس لثلاث سنوات، ثم تمت تبرئتها بعد ذلك في أكتوبر ١٩٨٩، وفي الشهر التالي مباشرة سقط الجدار، و تمَّ السماح بحرية التنقل بين شطري المدينة دون أي موانع، أو شروط.

كان الطقس، واتجاه الريح وسرعته يوم الثلاثاء ٣ يوليو ١٩٧٩ مناسب لكي يقوم (سترلزيك) بالفرار عن طريق المنطاد، وفي الساعة ١:٣٠ صباحا كان المنطاد الذي يحمل (سترلزيك) وزوجته وولديه يرتفع عن الأرض بسرعة ٤ متر في الثانية حتى وصل ارتفاع المنطاد إلى ٢٠٠٠ متر من سطح الأرض طبقًا لمقياس الارتفاع (ألتيميتر) الذي طوره (سترلزيك) من جهاز لقياس الضغط الجوي (بارروميتر) كان يملكه، كانت الرياح تنقل المنطاد برشاقة في اتجاه حدود الحرية نحو ألمانيا الغربية، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان حيث دخل المنطاد وسط سحابة فبدأ بخار الماء يتكثف على سطح المنطاد مِمَّا زاد من ثقل المنطاد فبدأ في الهبوط، حتى سقط المنطاد في الأحراش على بعد ١٨٠ متر فقط داخل الحدود الشرقية لجدار برلين، تلك المنطقة من الجدار المزروعة بعديد من الألغام الأرضية، لم يكن (سترلزيك) يدري في أي جانب قد سقط، ولكن من خلال كيس ورقي مُلقى، وعليه اسم أحد مخابز بلدة [فيرنجروده - Wernigerode] اكتشف أنَّه ما زال في الحدود الشرقية، تركت الأسرة المنطاد في مكانه، وانطلقت سريعًا لتخرج من المنطقة المتاخمة للجدار بمسافة ٥٠٠ متر دون أن يتم اكتشافها، ثم بعد ذلك كان عليهم تعدي المنطقة الأمنية، وطولها ٥ كيلومتر قبل أن يتحركوا مسافة ١٤ كيلومتر حيث موقع الانطلاق لإحضار سيارتهم، وكل الأدوات، والمتعلقات التي تركت في الموقع.

تم كل ذلك ووصلوا للمنزل قبل أن ينتهي اليوم الدراسي، ولكي تبدو الأمور طبيعية، ولا تثير الشكوك تمَّ إخطار المدرسة بغياب الولدين نتيجة مرضهما، اكتشفت السلطات المنطاد في صباح ذلك اليوم، واستغل (سترلزيك) الوقت للتخلص من كل المتعلقات التي قد تربط بينه، وبين المنطاد بما في ذلك سيارته التي بادر ببيعها، بعد أكثر من ٥ أسابيع من اكتشاف المنطاد أعلن البوليس السري (شتازي) في ١٤ أغسطس ١٩٧٩ عن طلب المساعدة في الكشف عما أطلق عليه (مرتكب جريمة خطيرة) وذلك بالكشف بالتفصيل عن كل المتعلقات التي وجدت في منطقة سقوط المنطاد، شعر (سترلزيك) أن قبضة جهاز أمن الدولة أصبحت قريبة جدًا منه، ومن (فيتزيل)، صارح كل منهما الآخر، وانفعل (فيتزيل) الذي كان قد قرر مسبقًا صرف النظر عن فكرة المنطاد لأن أيادي البوليس السري ستقترب منه عقب فشل محاولة (سترلزيك) في الهرب، واكتشاف أمر المنطاد، لذلك لم يكن هناك بُد من أن يدرك كلاهما أن الفرصة الوحيدة لنجاتهما هو الإسراع في تنفيذ منطاد جديد، والهروب جميعًا بواسطته، قررًا أن يضاعفا حجم المنطاد هذه المرة حتى يكونا مطمئنين لقدرته في حمل أفراد الأسرتين الثمانية، فأصبح حجم المنطاد ٤٠٠٠ متر مكعب بحيث يصل ارتفاعه إلى ٢٥ متر وقطره إلى ٢٠ متر.

لم يكن يدرك كليهما بأنَّهما يصنعان أكبر منطاد في التاريخ، فلم يسبق أن تم صُنع منطاد بهذا الحجم، وتلك الأبعاد من قبل، كان صنع منطاد بهذا الحجم يحتاج إلى ١٢٥٠ متر من نسيج (التافتا) الذي تم شراؤه من عدة مدن بكميات، وألوان مختلفة لكي يتجنبا لفت الأنظار، وفي خلال ستة أسابيع أصبح المنطاد الذي يزن ١٨٠ كجم جاهزًا، كان هناك صراع مع الوقت في الفرار للحدود الغربية قبل أن تصلهما أيادي قوات (شتازي) التي أصبحت قاب قوسين، أو أدنى من القبض لهم، كان كليهما يتابعان باستمرار وحرص أحوال الطقس عبر المذياع من خلال إحدى المحطات الإذاعية التي تبث إرسالها من ألمانيا الغربية، توصلا من خلال نشرة الأحوال الجوية إلى أن الطقس يوم ١٥ سبتمبر ١٩٧٩ مناسب للانطلاق بالمنطاد حيث ستهب الرياح في اتجاه الشمال، فاتفق كل منهما على القيام بالفرار معا في تلك الليلة، وانطلق (سترلزيك) بسيارته التي اشتراها مؤخرا من نوع [فارتبورج – Wartburg] المحلية الصنع، ومعه زوجته وزوجة (فيتزيل) وطفليها الصغيرين، وابنها الأصغر إلى موقع الانطلاق، تم وضع المنطاد في مقطورة صغيرة ملحقة بالسيارة، ولحقهما (فيتزيل) على دراجته بخارية ومعه ابن (سترلزيك) الأكبر (فرانك)، وصل الجميع للموقع قرابة الساعة ١:٠٠ من صباح اليوم التالي الأحد ١٦ سبتمبر ١٩٧٩، وبعد معاينة الموقع، والتأكد من عدم متابعتهم من قبل أحد، وأن جميع الأمور تسير بشكل طبيعي، بدأوا عند الساعة ١:٣٠ إعداد

المنطاد للانطلاق، عشر دقائق كان يحتاجها المنطاد لكي يمتلأ بالهواء، وثلاثة دقائق كانت كافية لكي يقوم الموقد بتسخين الهواء داخل المنطاد.

عندما أصبح المنطاد جاهزًا للارتفاع كان (فيتزيل) أسرع في قطع حبلي تثبيت المنطاد بالأرض من جهته قبل أن يقطع (سترلزيك) حبلي التثبيت في الجهة الأخرى، فمال المنطاد نتيجة لذلك على جانبه مِمَّا جعل لهب الموقد موجها للنسيج الذي بدأ في الاحتراق، لحسن لحظ كان معهم طفاية حريق استخدمها (فيتزل) بينما قام (بيتر) بخفض لهب الموقد، وتم احتواء الموقف، بدأ المنطاد في التحليق، ورويدًا رويدا ارتفع حتى بلغ ارتفاعه ٢٠٠٠ متر عن سطح الأرض، ولكن ما أثار دهشتهم هو عدم استطاعتهم تمييز الجدار، أو الأضواء المحيطة به في الأسفل، مِمَّا أثار قلقهم حيث لم يستطيعوا إدراك اتجاه حركة المنطاد وخصوصًا أن المنطاد استدار بهم عدة مرات، وبالتالي لم يتيقنوا بشكل مؤكد من عبورهم الجدار، بعد دقائق من الإقلاع لاحظ الجندي المكلف بالخدمة في أحد أبراج المراقبة على الجدار في بلدة [باد لوبنشتاين - Bad Lobenstein] المنطاد عاليًا وأبلغ قيادته بوجود شيء يصعب تحديده في السماء يتحرك باتجاه الحدود، وبدأت المصابيح الضوئية تصوب للأعلى بهدف استكشاف هذا الشيء ولم تستطع التوصل لماهيته نظرًا لارتفاعه الشاهق، وهو ما لاحظه بوضوح رواد المنطاد من أعلى، كانت المشكلة التالية لهم هي انطفاء اللهب حيث توقعوا أن ذلك ناتج عن شدة البرودة التي بلغت -٨ درجة مئوية.

وبعد عدة محاولات اكتشفوا أن الغاز بالأسطوانات قد نفذ، وبدأ المنطاد يهبط من ارتفاع ٢٠٠٠ متر حيث لم يكن لديهم أي حل آخر، استطاعوا تمييز قمم بعض الأشجار ثم حدث السقوط، واستطاع جميعهم الخروج من صندوق المنطاد، لم يعرف جميعهم أين سقطوا، وهل السقوط في (برلين) الغربية، أمْ ما زالوا في (برلين) الشرقية، قررا التحرك في اتجاه الجنوب، فإن سقطوا في برلين الغربية فإنهم بذلك يبتعدون عن الجدار، وإذا كانوا في برلين الشرقية فإنَّهم بذلك ذاهبون إلى أحضان حرس حدود ألمانيا الشرقية، خلال تحركهم مروا على بعض الحقول الزراعية الصغيرة، وفي إِسْطَبل أحد تلك الحقول لاحظوا إحدى المعدات الزراعية، وتيقنوا من خلال علامتها التجارية أنَّهم في الأغلب نجحوا في العبور للبر الغربي، بعدما غادروا المزرعة ظهرت سيارة فجأة، واقتربت منهم ببطء حيث خرج منها رجلي شرطة وكان واضح من زيهم أنَّهم تابعين لألمانيا الغربية.

بخطأ ارتجالي ارتكبه [جونتر شابوفسكي - Günter Schabowski] عضو المكتب السياسي في [حزب الوحدة الاشتراكي الألماني - Sozialistische Einheitspartei Deutschlands (SED)] الحاكم أثناء مؤتمر صحفي سقط

جدار (برلين)، قبل ٣ أسابيع من سقوط الجدار، في يوم ١٧ أكتوبر ١٩٧٩ أطاح المكتب السياسي للحزب ومنهم (شابوفسكي) بالزعيم الألماني المخضرم [إيريك هونيكر - Erich Honecker] أمين عام الحزب، والرئيس الذي حكم ألمانيا الشرقية بالحديد والنار لمدة ١٣ عاما، بعدها وُضع تحت الإقامة الجبرية في مسكنه ووجهت له المحكمة اتهامات بالخيانة العظمى، وسوء استخدام السلطة، والاختلاس، في ذات الاجتماع قرر المكتب السياسي للحزب بالإجماع انتخاب نائبه [ايكون كرينز – Egon Krenz] لمنصب الأمين العام، وتعيين (شابوفسكي) متحدثًا غير رسميًا للنظام.

نتيجة لذلك أقام (شابوفسكي) عديد من المؤتمرات الصحفية اليومية ليعلن فيها عن التعديلات، كانت علاقته بالصحافة مستمرة منذ زمن، وكان يغلب عليها الطابع الشيوعي حيث يُملى على الصحفيين فقط ما يجب أن يكتبوه، ولم يكن معتادًا على التعامل مع النظام الصحفي الغربي من حيث جرأته، وحريته في توجيه الأسئلة الحساسة، والقوية أثناء المؤتمرات الصحفية، في الأيام الأولى من نوفمبر ١٩٨٩ خرج الألمان الشرقيون في مظاهرات ضخمة في الشوارع للمطالبة بالإصلاحات على غرار ما يقوم به الزعيم السوفيتي [ميخائيل جورباتشوف - Mikhail Gorbachev] داخل الاتحاد السوفيتي، ومن أهمها ما حدث يوم ٤ نوفمبر ١٩٨٩ عندما خرج مئات الآلاف من المتظاهرين إلى [ميدان ألكسندر - Alexanderplatz] الكبير الواقع في منتصف حي [متة – Mitte] في الجانب الشرقي من (برلين) مطالبين بالحرية، وتحديدًا -حرية السفر- فأراد الحزب الحاكم استرضاء المتظاهرين من خلال إصدار لوائح سفر جديدة، ولكن كانت تحمل استثناءات تخص الأمن القومي، وهي الثغرة الدائمة التي يتم من خلالها تقييد حرية الحركة، والسفر، بالإضافة إلى أن تلك اللوائح الجديدة كانت تفتقر إلى آلية واضحة لفتح الحدود، ولا مؤشرات على تطبيقها بالكامل مثل التشاور مع السوفييت على ذلك، أو إبلاغ حرس الحدود بحلول مثل تلك الخطوة، باختصار لم تكن هناك أي علامات جدية تشير لفتح الحدود، في ٩ نوفمبر ١٩٧٩ أعلن (شابوفسكي) عن عقد مؤتمر صحفي عند الساعة السادسة مساءً بالمركز الصحفي الدولي التابع للحكومة الاشتراكية في [شارع مورين –Mohrenstraße].

وقبل قليل من بدأ المؤتمر الصحفي استلم (شابوفسكي) ورقة نصية من (كرينز) الأمين العام للحزب، كانت المذكرة عبارة عن نص أولي على تعديلات مؤقتة تتعلق بنظام السفر، ومنها إمكانية أن يتقدم مواطنو ألمانيا الشرقية للحصول على تصريح سفر للخارج دون الحاجة لتطبيق نفس الإجراءات، والمتطلبات السابقة، كما يسمح لهم بالهجرة الدائمة عبر المعابر الحدودية بما في ذلك ما بين (برلين) الشرقية والغربية، لمْ يشترك (شابوفسكي) في نقاش ما جاء في النص، ولم يحضر الاجتماع الذي عرض فيه (كرينز) على

أعضاء المكتب السياسي ما في تلك المسودة، ولم يكن لديه أيضًا الوقت الكافي لقراءتها بعناية، ولمْ يكن مخولًا رسميًا بإعلان الخبر، في السادسة مساء بدأ المؤتمر الصحفي الذي كان مملًا للغاية، واستعرض فيه (شابوفسكي) نتائج اجتماع اللجنة المركزية لحزب الوحدة الاشتراكي، وبعد ٥٣ دقيقة انتهى المؤتمر الصحفي دون أي بيانات تتعلق بإجراءات السفر، أو المعابر، في الدقيقة ٦:٥٣ سأل [ريكاردو ايرمان - Riccardo Ehrman] مراسل [وكالة الأنباء الإيطالية - Agenzia Nazionale Stampa Associata (ANSA)] سؤالًا كان نصه: «لقد ذكرت بعض الأخطاء، ألا تعتقد أنَّه كان من الخطأ الكبير عدم تقديم مسودة لوائح السفر التي تحدثتم عنها قبل بضعة أيام؟».

حتى تلك اللحظة لم يكن (شابوفسكي) قد ذكر أي شيء يخص إجراءات السفر، وبدأ يبحث عن ورقة في حقيبته، وفي سترته حيث كان يبدو مترددًا وغير واثق، حيث لم يتمكن من إكمال جملته بشكل صحيح، وفي النهاية أخذ يقرأ من المسودة التي أُعطيت له لوائح السفر الجديدة حول مغادرة جمهورية ألمانيا الديمقراطية دون تقديم تفسيرات، وأسباب كما كان معمولًا به مسبقًا، ما قرأه (شابوفسكي) كان مثيرًا لاهتمام الصحفيين حيث انتبهت الآذان، وهو أيضًا انتبه لتعجبهم فقال: «لست متأكدًا تمامًا... لكن قيل لي أن هذه المعلومات قد تم إرسالها إليكم بالفعل. أفترض أنَّكم حصلتم على تلك المعلومات»، بالطبع لم يكن أي منهم قد حصل على تلك المعلومات؛ لأنه لم تكن هناك أي بيانات صحفية تخص هذا الأمر مسبقًا، ثم كان السؤال التعقيبي، ولكن هذه المرة من الصحفي الألماني [بيتر برينكمان - Peter Brinkmann] مراسل صحيفة (بيلد) الذي كان يجلس في الصف الأول أمام (شابوفسكي)، سأل (برينكمان) السؤال الحاسم، والمباشر الذي كان يتساءله صحفيون آخرون داخل القاعة: «متى يدخل ذلك حيز التنفيذ؟»، ورد عليه (شابوفسكي) الإجابة الارتجالية التي أنهت جدار (برلين) قائلا: «على حد علمي... الآن... على الفور - Das tritt nach meiner Kenntnis … ist das sofort … unverzüglich».

يبلغ عدد سكان بلدة (نايلا) الصغيرة في محافظة [فرانكونيا العليا - Upper Franconia] قرابة ٧٠٠٠ نسمة وتبعد مسافة ١٠ كيلومتر عن جدار (برلين) الحدودي في القطاع الغربي، جاء رد الشرطيين على سؤال (سترلزيك)، و(فيتزيل) عما إذا كانا في ألمانيا الغربية واضحًا، ومحددًا بأنَّهما بالفعل في ألمانيا الغربية متعجبين عما هو مفترض غير ذلك، صاح كل منهما من الفرح حيث ناديا على زوجتيهما (دوريس)، و(بيترا) المختبئتين مع الأولاد الأربعة على مسافة قريبة خلفهما قائلين: "لقد نجحنا... نجحنا".

سأل الشرطين عن المكان الذي أتيا منه، فأخبرهما (سترلزيك) بأنَّهما بالفعل هربا للتو من برلين الشرقية في منطاد، لم يكن معتادًا أن يفر أحد من قبل عبر الجدار بواسطة منطاد، وكانت تلك هي السابقة الأولى وإن لم تكن الواقعة الأخيرة، اندهش الشرطيين من كلمة المنطاد متعجبين: - «منطاد!، هل جئتما بمنطاد؟»، رد عليه (سترلزيك) بفخر: «نعم لقد صنعناه بأنفسنا، تعال وشاهده»، لمْ يكنْ يدرك (فيتزل) حتى تلك اللحظة أن كسر قد أصاب رجله اليمنى بسبب السقوط، وهو الأمر الذي دعاه للمكوث في المستشفى قرابة شهر كامل، اشترت مجلة [شتيرن – Stern] حقوق استغلا قصتهما بمبلغ كبير، واستقرت العائلتين مبدئيًّا في (نايلا) حيث عمل (فيتزيل) ميكانيكي سيارات، بينما قام (سترلزيك) بفتح متجر صغير لإصلاح التليفزيون، وبعد توحيد الألمانيتين عاد (سترلزيك) إلى بلدته (بوسنك) بينما استقرت عائلة (فيتزل) في إقليم (بافاريا)، فور انتشار خبر الهرب بالمنطاد، عززت ألمانيا الشرقية من تأمين حدودها، وأغلقت كل المطارات الصغيرة من الحدود وأبعدت الطائرات، كما لم يعد في الإمكان شراء أسطوانات غاز بأعداد كبيرة نسبيًا، أو شراء كميات كبيرة من الأقمشة، وتم وقتها حظر البريد المرسل للعائلتين من ألمانيا الشرقية، واحتفالًا بالذكرى الثامنة والعشرون لإعادة توحيد الألمانيتين، كان العرض الأول للفيلم السينمائي الألماني [بالون – Balloon] في ٢٧ سبتمبر ٢٠١٨ حيث عرض فيه المخرج الألماني [مايكل هيربيج - Michael Herbig] خلال ١٢٠ دقيقة أحداث محاولة فرار كل من (سترلزيك)، و(فيتزيل) بالمنطاد.

وفي معرض ترويجه للفيلم صرح (جونتر فيتزل) الذي أصبح عمره ٦٣ عاما وقتها، بأنَّه على الرغم من سعادته حاليا باتخاذ كل منهما قرار الفرار، إلا أنَّه لو كان لديه وقتها المعرفة التي يمتلكها الآن، لما اتخذ ذلك القرار حيث يرى أن العملية كانت خطيرة جدًا، وهو ما لم يدرك حجم خطورتها في ذلك الوقت، لمْ يكنْ ذلك هو الإنتاج الوحيد عن الواقعة، فأنتجت هوليود بعد ثلاث سنوات من الواقعة عام ١٩٨٢ فيلم [العبور الليلي - Night Crossing] من إنتاج [ديزني – Disney]، حيث استعرض الفيلم الأوضاع في ألمانيا الشرقية وقت إنشاء الجدار مستعينًا ببعض اللقطات في مقدمة الفيلم، ومنها لقطة قفز جندي حرس الحدود (كونراد شومان) الشهيرة عبر الأسلاك، ترجم عنوان الفيلم في نسخته الألمانية إلى [مع الرياح إلى الغرب - With the Wind to the West]، ورشح الفيلم الذي قام ببطولته الممثل الإنجليزي [جون هرت - John Hurt] لجائزتي أفضل فيلم عائلي، وأفضل ممثل شاب من جوائز [جائزة الفنان الشاب - Young Artist Award] التابعة لرابطة الفنانين الشباب، انتهى فيلم (العبور الليلي) عند سقوط المنطاد في الجانب الغربي، وظهر على الشاشة نص النهاية حيث كُتب: «تعيش الآن عائلتي (سترلزيك)،

و(فيتزل) في ألمانيا الغربية، يمتلك (بيتر) متجر للأدوات الكهربائية، وحقق (جوتنر) حلمه بأن يصبح ميكانيكي سيارات، وأصبح الأطفال أحرارًا للوصول للسماء... ولكن دون الحاجة لمنطاد».

يزور عديد من السياح المهتمين بالواقعة بلدة (بوسنك) لمشاهدة المنزل الذي صُنع في قبوه المنطاد، وهناك من يذهب إلى متحف (برلين) حيث يُعرض القفص الحديدي الضيق الذي حمل الثمانية أفراد، ويضم أسطوانات الغاز والموقد، وتمت إعادة ترميم المنطاد حيث تم عرضه للجمهور في متحف (بافاريا) الوطني في ٢٠١٧، توفي (بيتر سترلزيك) في ١١ مارس ٢٠١٧ عن عمر ٧٥ عامًا بعد صراع طويل مع المرض، وأشادت به [الكسندرا هيلدبراندت - Alexandra Hildebrandt] مديرة متحف سور (برلين) موضحة أنَّه كان شخصًا ودودًا يمتلك شجاعة لا توصف، وأنا كان دائمًا ما يؤكد أن الفرار لم يكن من أجل قطعة زبد أفضل، ولكن لأننا أردنا أن ينمو أطفالنا في الحرية.

انتهي كل شيء فور ما نطق (شابوفسكي) بكلمتي: «الآن... فورًا» في المؤتمر الصحفي، سريعًا ما عرضت قناة [ألمانيا الغربية الثانية - Zweites Deutsches Fernsehen (ZDF)] التي يصل إرسالها إلى ألمانيا الشرقية وتشاهد بكثافة في الساعة ٧:١٥ مساءً مقتطفات من المؤتمر الصحفي، وكذلك قناة [إيه آر دي – ARD] الألمانية الغربية التي بثت الخبر في الثامنة مساء، فسرعان ما انتشر الخبر بين الناس في الألمانيتين كالنار في الهشيم، وبدأ الآلاف من سكان (برلين) الشرقية التوجه إلى المعابر الحدودية الستة على طول الجدار لاكتشاف حقيقة الأمر، قام حراس الحدود بإجراء العديد من المكالمات الهاتفية المحمومة لرؤسائهم لإبلاغهم بالأمر، وأخذ التعليمات منهم، ولكن أصبح من الواضح أنَّه لا توجد أي سلطة تستطيع أن تتحمل المسؤولية الشخصية لإصدار أي قرار يتعلق بالمنع، أو استخدام القوة، ونتيجة زيادة الأعداد المتسارعة، وعدم قدرة سلطات المعابر على صد الحشود التي بدأت في الهتاف: «افتحوا البوابة... افتحوا البوابة»، بدأ عند الساعة التاسعة والدقيقة العشرين المواطنين في العبور من خلال معبر جسر [بورنهولمر - Bornholmer Straße] الذي كان أول معبر يتم من خلاله العبور للجانب الغربي من (برلين)، وأخيرًا عند الساعة ١١:٣٠ عندما أمر [هيرالد جاكر - Harald Jäger] رئيس وحدة جوازات ألمانيا الشرقية منذ عام ١٩٦٤ بفتح معبر جسر (بورنهولمر) بعدما أدرك أن الإبقاء على المعبر مغلقًا يمكن أن يعرض حياة المواطنين للخطر نتيجة التدافع، (جونتر شابوفسكي) ذاته ذهب إلى معبر جسر (بورنهولمر) بعد انعقاد مؤتمره الصحفي، وانتهاؤه من المقابلة التليفزيونية مع قناة [إن بي سي – NBC] حيث شاهد بعينه عبور الحشود دون أي إجراءات لأول مرة وللأبد، وعند [بوابة براندربورج –

Brandenburg Gate] أحد معالم (برلين) الشهيرة والواقعة في الجانب الغربي خلف الجدار لم يختلف الأمر كثيرًا حيث تجمع الآلاف عند الجدار، وبدأوا في تسلقه، واستخدام المطارق لتحطيمه، وقد بثت وكالات الأنباء في تلك الليلة عديد من الصور توثق للحدث، منذ تلك الليلة أصبح جدار (برلين) لا معنى له ولا بقائه.

وبدأت فعليًّا عملية إزالة الجدار التي استغرقت عامين، لم يصدق أعضاء المكتب السياسي للحزب أن يرتكب (شابوفسكي) هذا الخطأ، وأن الأمر كان ارتجاليًّا، أو غير مُتعمد لدرجة أنَّهم تشككوا أنَّه عميل للولايات المتحدة، أو ألمانيا الغربية، وفي ١٨ مارس من العام التالي لفتح المعابر أُقيمت في ألمانيا الشرقية أول، وآخر انتخابات برلمانية حرة منذ عام ١٩٣٢، وكانت الأغلبية الفائزة من جبهة [التحالف من أجل ألمانيا - Alliance for German] بزعامة [الاتحاد الديمقراطي المسيحي - Christian Democratic Union]، وقد وافق المجلس التشريعي في ألمانيا الشرقية [فولكسكيمر – Volkskammer] على معاهدة إعادة توحيد الألمانيتين في ٢٠ سبتمبر ١٩٩٠ بأغلبية ٢٩٩ صوتا مقابل ٨٠ صوتًا، تلك المعاهدة التي حصلت مسبقًا على موافقة المجلس التشريعي في ألمانيا الغربية [البوندستاج – Bundestag] بأغلبية ٤٤٢ صوتا مقابل اعتراض ٤٢ صوتًا، وكانت تنص المعاهدة على دخولها حيز التنفيذ يوم ٣ أكتوبر ١٩٩٠، وهو اليوم الذي عادت فيه ألمانيا مرة أخرى إلى دولة واحدة وشعب واحد، وحكومة واحدة.

بعد سقوط ألمانيا الشرقية، وإعادة توحيد الدولة، حُكم على (شابوفسكي) بالسجن ثلاثة أعوام قبل أن يصدر قرار بالعفو عنه، ووقتها أعرب عن شعوره بالخجل أمام الدولة التي ظل طوال حياته يشن الحملات ضدها، اعترف (شابوفسكي) لاحقًا بالذنب الأخلاقي الذي ارتكبه مع السلطة الشيوعية في ألمانيا الشرقية وصرح: «لقد فعلنا تقريبًا كل شيء خاطئ»، في ٢٧ فبراير ٢٠٠٩ أصدر (شابوفسكي) كتابًا يحكي فيه إلى الصحفي الألماني، وصانع الأفلام الوثائقية [فرانك سيرين -Frank Sieren] عن الأحداث التي وقعت قبل انهيار جدار (برلين)، والتي أدت في النهاية إلى سقوط ألمانيا الشرقية، يحمل الكتاب عنوان مقارب لنفس تصريحه «لقد ارتكبنا تقريبا كل شيء خاطئًا: الأيام الأخيرة من ألمانيا الشرقية - Wir Haben Fast Alles Falsch Gemacht: Die Letzten Tage Der DDR»، حيث وصف في كتابه الذي بلغت عدد صفحاته ٢٨٠ صفحة نظام ألمانيا الشرقية بأنَّه نظام غير صالح للحياة، وكان محاولة فاشلة، توفي (شابوفسكي) في إحدى دور المسنين في ١ نوفمبر ٢٠١٥ عن عمر يناهز ٨٦ عاما بعد صراع من المرض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

أحلام مارتن لوثر كينج

في ٢٨ أغسطس من كل عام يتدفق عشرات الآلاف إلى العاصمة الأمريكية واشنطن للمشاركة في أسبوع إحياء «المسيرة إلى واشنطن من أجل الوظائف والحرية - March on Washington for Jobs and Freedom» التي أُجريَت في ذات اليوم عام ١٩٦٣، وكان من أهم فعاليتها إلقاء واحدة من أهم الخطب الأميركية في القرن العشرين طبقًا لتصويت نخبة العلماء البارزين في الخطاب الأمريكي، والذي أجراه باحثون مشتركون من «جامعة ويسكونسن-ماديسون - University of Wisconsin–Madison»، و«جامعة إي وإم – تكساس - Texas A&M University»، واشترك في التصويت ١٣٧ من كبار العلماء المهتمين بفنون التواصل، والخطابة، وأعلنت نتيجته قبل نهاية القرن بخمسة أيام في ٢٥ ديسمبر ١٩٩٩، وفيه تصدر خطاب (د. مارتن لوثر كينج) الذي أشتهر باسم: [لدي حلم - I Have a Dream] قائمة أفضل مائة خطاب في القرن، متخطيًا خطاب الرئيس الأمريكي [جون كينيدي – John F. Kennedy] الذي ألقاه بمناسبة تنصيبه في ٢٠ يناير ١٩٦١ واحتل المركز الثاني، ويسبق خطاب الرئيس الأمريكي الأسبق (فرانكلين روزفلت) يوم تنصيبه الأول في ٤ مارس ١٩٣٣ حيث جاء ثالثًا، بينما حل خطاب الناشط الحقوقي الأمريكي الأسود [مالكوم إكس - Malcolm X] والمعروف باسم [ورقة الاقتراع أم طلقة الرصاص- The Ballot or the Bullet]، والذي ألقاها في (كليفلاند– أوهايو -Cleveland – Ohio) يوم ٣ أبريل عام ١٩٦٤ في المركز السادس، بالرغم من كون (مالكوم أكس) صاحب كاريزما خطابية أكثر إثارة، وحماس وقوة، وكانت كلماته دائمًا خير معبر عن غضب السود، وحنقهم على أوضاع التمييز العنصري الذي يتعرضون له، ولكنَّه لم يستطع أن يحصد المركز الذي حصده خطاب (د. كينج)، لم يكن (مالكوم أكس) مثل (د. كينج) يقرأ من ورقة، أو يلقي عبارات حالمة، أو كلمات هادئة ومتقطعة، فلم يقرأ (مالكوم) خطبه من ورقة قط، ولم تكن كلماته أبدًا متقطعة، أو حالمة بل كانت كالرصاص لا يهادن.

في ٣ أبريل ١٩٦٣ وصلت مسيرة حركة الحقوق المدنية إلى المدينة الأكثر تطبيقا لنظام التمييز العنصري في الولايات المتحدة الأمريكية بشكل كامل، إنَّها مدينة [برمنجهام – Birmingham] أكبر مدن ولاية [ألاباما – Alabama] حيث تظهر في تلك المدينة التي يُمثل فيها السكان البيض نسبة ٦٠ في المائة من عدد سكانها كل مظاهر العنصرية المقيتة، فيُمنع الرجال السود من شغل أي وظائف في المتاجر، أو الشرطة، أو البنوك، أو حتى قيادة الحافلات، وتقتصر كل تلك الوظائف على أصحاب البشرة البيضاء بينما يعمل السود في وظائف حقيرة، ورخيصة ومرهقة، وأثناء فترة الركود الاقتصادي كانت أولوية

الاستغناء عن العمال تنطبق على السود أولًا حتى ارتفعت نسبة البطالة بينهم لتفوق ضعفها لدي البيض، رغم أن متوسط دخل الرجل الأبيض يفوق ضعف متوسط دخل الرجل الأسود، كان يتم في «برمنجهام» تطبيق سياسة الفصل العنصري بكل صرامة في الحافلات، والمطاعم، والمتاجر، والمرافق العامة، وكان يقود ذلك التطبيق العنيف مفتش الأمن الأبيض العنصري، والمنتخب [بول كونور - Bull Connor] الذي يُنكر أي حقوق مدنية للمواطنين السود، وأصبح الرجل رمزًا دوليًا للعنصرية الممنهجة، فهو صاحب قرارات استخدام خراطيم الحريق، والكلاب البوليسية، والهراوات لمهاجمة مسيرات نشطاء الحقوق المدنية السلمية، كانت تلك المسيرة التي تقام فعاليتها في (برمنجهام) استكمالًا لعدة مسيرات تم تنفيذها في بعض الولايات الجنوبية التي يغلب عليها الطابع العنصري، وتتولاها جمعية: «مؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية - Southern Christian Leadership Conference (SCLC)» التي يترأسها (د. كينج)، ويشارك معها في تنظيم مسيرة (برمنجهام) منظمة: [حركة ألاباما المسيحية لحقوق الإنسان - Alabama Christian Movement for Human Rights (ACMHR)]، كان هدف مسيرة (برمنجهام) السلمية لفت الأنظار إلى سياسة الفصل العنصري العنيف، واللا إنساني التي تمارسها سلطات المدينة تجاه السود، وشكلت الفعاليات أيضًا احتجاجات تمثلت في تظاهرات، ومسيرات، واعتصامات، ومقاطعات، وبالرغم من دعم رجال الدين السود لتلك الفعاليات إلا أن رجال الدين البيض هاجموا أفعال (د. كينج) ودعواته السلمية، وأقروا بأنَّ تلك الأفعال يجب أن يكون مكانها ساحات المحاكم لا ساحات الشوارع، في ١٠ أبريل نجح المفتش (كونور) في الحصول على أمر قضائي بوقف المظاهرات، كانت الصور الفوتوغرافية، والتقارير الصحفية الواردة من (برمنجهام) فضلًا عن النقل التليفزيوني للأحداث، والتي كشفت الوحشية التي قامت بها السلطات المحلية لمجابهة الاعتراضات السلمية للسود، لها تأثير واسع حيث أصيب المجتمع الأمريكي بالصدمة، وصاحب ذلك غضب شعبي كبير في جميع أنحاء البلاد، لم يمتثل (د. كينج) وزملاؤه للأمر القضائي هذه المرة مثلما حدث من قبل عندما امتثل لأمر قضائي مشابه في مسيرة سابقة في مدينة [ألباني – Albany] جنوب غرب ولاية [جورجيا – Georgia]، وقد كان امتثاله وقتها يدخل من باب إثبات سلامة موقفه ونبذه للعنف والتزامه بأحكام القضاء، ولكن كانت النتيجة فشل مسيرة (ألباني)، لذلك تجاهل (د. كينج) تلك المرة هذا الأمر القضائي، واستمر في تقدم المسيرات حتى كان يوم الجمعة ١٢ أبريل ١٩٦٣حيث قُبض عليه مع [رالف أبرناثي - Ralph Abernathy] أحد نشطاء مؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية، وكذلك [فريد شاتلزوورث - Fred Shuttlesworth] مسؤول حركة (ألاباما) المسيحية لحقوق الإنسان، وغيرهم من المتظاهرين.

واجه (كينغ) ظروف قاسية على نحو غير عادي في سجن (برمنجهام)، وقد سُربت له نسخة من صحيفة صادرة يوم القبض عليه بها مقال بعنوان «دعوة للوحدة» كتبها ثمانية من رجال الدين البيض من (ألاباما) ضد (كينج)، ومناهضته للفصل العنصري، أثارت الرسالة (كينج)، وشرع في كتابة رد على هذا المقال أخذ عنوان: «لماذا لا يمكننا الانتظار؟»، والذي عرف لاحقا باسم «رسالة من سجن برمنجهام» حيث كتب (كينج) مقاله في ١٦ أبريل ١٩٦٤ على هوامش نفس الصحيفة المسربة لعدم توافر أي وسائل للكتابة غيرها، كتب (كينج) ما يمكن تعريفه بأنَّه خطاب مفتوح يشرح فيه استراتيجية المقاومة اللاعنفية للعنصرية، والمسؤولية الأخلاقية التي يجب على الجميع تحملها لكسر القوانين الظالمة باتخاذ إجراءات مباشرة بدلًا من الانتظار إلى الأبد من أجل تحقيق العدالة بالطرق القانونية، وفي رده على الإشارة له بأنَّه قادم من خارج المدينة لإثارة المواطنين، وتكدير السلم العام للمدينة كتب (كينج):

«إن الظلم في أي مكان... هو تهديد للعدالة في كل مكان». كان للمقال تأثير شديد في توضيح البُعد اللاعنفي لمناهضة العنصرية، ويُعد وثيقة يستعان بها لوصف الوضع العنصري خلال تلك الحقبة الزمنية، وفكر المقاومة السلمية لتلك السياسة، ونُشر المقال للمرة الأولى في عدد يونيو ١٩٦٣ من مجلة شهرية كانت تصدر في ذلك الحين تتبع تيار: «اليسار الجديد» تُسمى [الحرية – Liberation]، وتمت إعادة طبعه بعد ذلك ٥٠ مرة في ٣٢٥ طبعة من ٥٨ ناشر بين عامي ١٩٦٤ و١٩٩٦.

١٦٦٦ كلمة هم إجمالي عدد الكلمات التي شكلت محتوى خطبة: «لدي حلم»، وألقاها (د. كينج) خلال ١٦ دقيقة وثانيتين، أمام حشد بلغ ٢٥٠ ألف شخص بالقرب من [نصب لينكولن التذكاري - Lincoln Memorial] في العاصمة واشنطن يوم ٢٨ أغسطس ١٩٦٣ والذي يعرف باسم: [مسيرة واشنطن - March on Washington]، تلك الخطبة التي تمثل لحظة فارقة في تاريخ حركة الحقوق المدنية، والتي كان من نتائجها المباشرة الضغط على إدارة الرئيس الأمريكي (جون كينيدي) للدفع بتشريعاتها المتعلقة بالحقوق المدنية إلى الكونجرس، كان الرئيس الأمريكي -كينيدي- داعمًا للحقوق المدنية، وقيم الديمقراطية إلا أنَّه كان قلقًا من فكرة إقامة فعالية بهذا الحشد داخل العاصمة الأمريكية واشنطن خشية حدوث شغب، وعنف سيصعب بالتأكيد السيطرة عليه، وقد يفلت الزمام كليًا من يد الأمن، خصوصًا، وأن المباحث الفيدرالية الأمريكية هي الأخرى أعربت للرئيس عن قلقها وتحفظها من حجم المشاركة المتوقع لتلك الفاعلية، ومن ناحية أخرى كان (كينيدي) قلقًا أيضًا من أنَّه إذا فشلت المسيرة في اجتذاب أعداد كبيرة من المتظاهرين فقد تقوض تلك النتيجة جهوده في مجال الحقوق المدنية، رغم إقرار (د. كينج)

ببعض جهود الرئيس (كيندي) في مجال الحقوق المدنية إلا أنَّه في يونيو ١٩٦٣ وقبل ٤ شهور من المسيرة وجه انتقادًا عنيفًا للرئيس في خطابه في [مونتجمري – Montgomery] عاصمة ولاية (ألاباما) حيث أكد بأنَّ هناك مجهود أكبر يجب أن يبذله الرئيس –كينيدي- تجاه الناخبين السود الذين منحوه أصواتهم الانتخابية، في ٢ يوليو ١٩٦٣، اجتمع ستة من قادة منظمات المجتمع المدني السود برئاسة القائد الحقوقي الاشتراكي العمالي [فيليب راندولف - Philip Randolph]، وقائد الحركة الاجتماعية للحقوق المدنية، والاشتراكية، واللاعنفية، وحقوق المثليين [بايارد روستين - Bayard Rustin]، ومشاركة (د. كينج) وذلك لكي يتفقوا على القيام بمسيرة واشنطن، وتحديد أهدافها، وفعاليتها، والإعلان عن موعدها الذي تقرر أن يكون في ٢٨ أغسطس تحت اسم: «مسيرة واشنطن من أجل العمل والحرية - March on Washington for Jobs and Freedom»، صرح (كينج) بأنَّ هدف المسيرة لفت الأنظار إلى الأوضاع المادية السيئة للمواطنين السود نتيجة البطالة التي حلت بهم؛ بسبب لون بشرتهم، وحصر غالبية الوظائف على المواطنين البيض، بالإضافة إلى تسليط الضوء حول الأوضاع الحقوقية السيئة للسود بسبب قوانين الفصل العنصري التي لا تتفق مع مبادئ المساواة والعدالة والإنسانية، والمطالبة بتشريعات جديدة تعيد للمواطنين السود حقوقهم، لم تكن دعوة (كينج) إلى المشاركة في (مسيرة واشنطن) ترنوا إلى المئات، أو الآلاف بل طالب بحضور مئات الآلاف، بينما دعا الرئيس الأمريكي -كينيدي- في رسالة متلفزة يوم ١١ يونيو ١٩٦٣ إلى أهمية الدفع بمزيد من الحقوق المدنية، وفي ٢٢ يونيو ١٩٦٣ استقبل (كينيدي) منظمي المسيرة وبينهم (كينج) وتمَّ التأكيد على سلمية المسيرة، وإلغاء أي دعوات للعصيان المدني قد تكون من ضمن الفاعليات.

وصل (كينج) إلى [فندق ويلارد – Willard’s Hotel] بالعاصمة واشنطن ليلة المسيرة، ولم يكن قدر شرع بعد في كتابه خطابه الشهير حيث بدأ في استشارة مساعديه في ردهة الفندق عن ماذا سيكون محتوى خطابه، نصحه مستشاره [ويات ووكر - Wyatt Tee Walker] بالابتعاد عن استخدام مصطلح: «لدي حلم» حيث أنَّه مُعاد ومُكرر ويرى أنَّه أصبح مبتذلًا بعدما استخدمه (كينج) عدة مرات في خُطبه السابقة، وآخرها قبل أسبوع في [شيكاغو – Chicago] أثناء حفل لجمع التبرعات، وقبلها بأشهر قليلة في مسيرة [ديترويت – Detroit]، ورغم أن هذا التعبير قد لقى استحسانًا إلا أن تأثيره لم يكن بالغ الأهمية، كان يجب أن يكون هذا الخطاب مختلفًا فبالرغم من أن (كينج) قد أصبح شخصية سياسية وطنية إلا أن عدد قليل نسبيًّا خارج الكنيسة السوداء، وحركة الحقوق المدنية قد استمعوا من قبل إلى خطاب كامل له، لذلك كان يرى (كينج) بأنَّ خطاب مسيرة اليوم التالي يجب أن يكون مختلفًا

حيث أنَّه سيوجه للأمة كلها، وستنقل الشبكات التلفزيونية الثلاث الرئيسة وهي [سي بي إس – CBS]، وبعدها [إن بي سي – NBC]، ثم [إيه بي سي – ABC] تغطية للمسيرة، كان (كينج) يريد خطابًا يكون له تأثير مثل خطاب [خطاب جيتيسبيرج - Gettysburg Address] الذي يعد أكثر الخطابات شيوعًا، وتأثيرا في التاريخ الأمريكي، ألقى هذا الخطاب الرئيس الأمريكي السادس عشر (إبراهام لينكولن - Abraham Lincoln) قبل مائة عام من ذلك الوقت، وتحديدًا في ١٩ نوفمبر ١٨٦٣ أثناء الحرب الأهلية في مدينة (جيتيسبيرج – بنسلفانيا)، وفيه أعاد (لينكولن) تكرار مبادئ المساواة الإنسانية التي تبناها [إعلان الاستقلال - Declaration of Independence] الأمريكي، صعد (كينج) إلى غرفته بعدما أخبر مستشاريه أنَّه سيستخير الرب، أنهى (كينج) خطوط خطابه العريضة عند منتصف الليل، وفي الرابعة صباحًا خلد للنوم بعدما أعطى مساعديه [ستانلي ليفنسون - Stanley Levison] رجل الأعمال، والناشط السياسي من نيويورك، وأيضًا [كلارنس جونز - Clarence B. Jones] الصديق المقرب، ومستشار (كينج) مسودة الخطاب الذي لم يكن يحتوِ على فقرة (الحلم) للطباعة، كان (روستين) قد حدد لبرنامج المسيرة ٥ دقائق فقط لكل متكلم، وحذر من قطع الخطاب في حالة تخطى المتحدث الزمن المسموح به، وذلك بسبب درجة الحرارة العالية المتوقعة ونسبة الرطوبة المرتفعة، كان خطاب (كينج) يحتل الفقرة السادسة عشر من البرنامج الرسمي بعد السلام الوطني ثم الابتهال، والصلاة، ثمَّ فقرة دعم النساء، ومجموعتين من الأغاني وتسعة متحدثين آخرين، فقط الابتهال والتهجد تمَّ تأجيلهما لاحقًا إلى وقت تالي، توارى جزء من الحشد تحت الأشجار بحثًا عن الظل، بينما ألقى البعض بأقدامهم في بحيرة المياه الممتدة شرق النصب التذكاري، في حين تحدى أولئك الأكثر حرصًا على رؤية المنصة الشمس من تحت ظلال مظلاتهم، رفعت المغنية الدينية السمراء [ماهاليا جاكسون - Mahalia Jackson]، والتي تعد من أكثر مغنيات الموسيقى الدينية المسيحية تأثيرًا في العالم من الروح المعنوية للحاضرين بعد غنائها، ثم ألقى بعدها [يواخيم برينز - Joachim Prinz] رئيس الكونجرس اليهودي الأمريكي كلمة استحضر فيها ما حدث لليهود بسبب النظام النازي للألمان عندما كان حاخام في برلين تحت حكم (هتلر)، حيث قال في كلمته:

«مواطنون عظماء صنعوا أمة عظيمة، ولكنَّهم بصمتهم أصبحوا أمة من المتفرجين، لقد ظلوا صامتين في وجه الكراهية، وفي وجه الوحشية وفي وجه القتل الجماعي، يجب ألا تصبح أمريكا أمة من المتفرجين... يجب على أمريكا ألا تبقى صامتة».

كان التالي هو (د. كينج) الذي ارتدي بدلة سوداء، وربطة عنق سوداء، وقميصًا أبيض، وعَبَرَ بصعوبة نحو المنصة حيث كانت المنطقة المحيطة بالميكروفون

تكتظ بالمتحدثين، وكبار الشخصيات ومساعديهم، لمْ يكنْ هناك وقتها شاشات تنقل صورة المتحدث لذلك كان الحاضرين يستمعون للكلمة، وغالبيتهم بالكاد يستطيعون رؤية المنصة، ولكن لا يستطيعون تحديد ملامحه.

كانت هناك بعض الأصوات المعارضة للمسيرة، وكان أبرزهم السيناتور الديمقراطي [ستورم ثيرموند - Strom Thurmond] سيناتور ولاية [ساوث كالورينا - South Carolina]، والذي انتقل في العام التالي للمسيرة إلى الحزب الجمهوري، حيث ألقى خطابًا في مجلس الشيوخ انتقد فيه قيام (بايارد روستين) بتنظيم المسيرة باعتبار أنَّه رجل مراوغ ذو ميول شيوعية فضلًا عن أنَّه مثلي الجنس، تلك التصريحات دون قصد كانت سببًا في زيادة شعبية (روستين)، ومنحته مزيدًا من الدعم، أيضًا على غير المتوقع كان المناضل الحقوقي الأسود (مالكوم إكس) رافضًا لتلك الفعاليات، وأطلق على «مسيرة واشنطن» تعبير: «مهزلة واشنطن»، حيث يرى أن دعوات اندماج السود مع البيض مهينة، وسياسة اللاعنف التي ينادي بها (كينج) سياسة غير فعالة، ويجب على الأميركيين من أصل أفريقي أن يشكلوا دولة سوداء، تحملت الناشطة السوداء [آن مودي - Anne Moody] الصعاب في رحلتها من المناطق الريفية في ولاية [مسيسيبي – Mississippi] من أجل حضور فاعليات مسيرة واشنطن، ولمْ تكنْ راضية على الاحتفالية واللغة الحالمة التي تحدث بها (د. كينج)، فتوضح في كتابها [ناضجة من المسيسيبي - Coming of Age in Mississippi] بأنَّها حضرت إلى موقع المسيرة، وجلست على العشب واستمعت إلى المتحدثين لتكتشف أن لديها [حالمين بدلاً من قادة - Dreamers Instead of Leaders].

أبدى (كينيدي) الذي كان يتابع الحدث عبر شاشة التلفزيون، ولم يستمع من قبل لخطاب كامل ل (كينج) أعجابه بالخطاب قائلًا: «إنَّه جيد... إنَّه جيد»، أدرك الجميع تقريبًا بما فيهم أعداء (كينج) بمدى قوة، وتأثير الخطاب، وصداه الواسع لدى الجماهير، ففي تلك الأثناء أوصى المدير المساعد للمخابرات الداخلية في مكتب التحقيقات الفيدرالي [وليام سوليفان - William Sullivan] بأنَّه يجب رصد هذا الرجل بعناية إذ لم يكن بالفعل يقع تحت رادار المكتب، حيث يرى أن (كينج) يعتبر الآن أخطر رجل أسود يمكن أن يهدد مستقبل الأمة، في (النيويورك تايمز) كتب [جيمس ريستون -James Reston] عقب الخطاب معلقًا بأن خطاب (كينج) تطرق لكل الموضوعات التي تم طرحها أفضل من أي شخص آخر، وأن (كينج) جعل الحشد يشعر بأنَّ تلك الرحلة الطويلة التي بدأت هي بالفعل هامة، وتستحق الدعم، خاصة وأن بث الوقائع تلفزيونيًّا، ونقل أخبارها صحفيًا كان الأفضل منذ بث خطاب تنصيب (كينيدي)، ويعتقد (ريستون) أن واشنطن لن تنسى صدى أحلام (كينج) وصوته الرخيم، والحزين الذي ألهب بها مشاعر الحاضرين قبل مرور وقت طويل جدًا، بينما

كتبت [ماري ماكجروري - Mary McGrory] في صحيفة [بوسطن جلوب - The Boston Globe] أن خطاب (كينج) توافق مع المزاج العام، وانتقل إلى قلوب، وعقول الحشد بشكل يفوق أي متحدث آخر.

لم يكن اختيار النصب التذكاري للرئيس (لينكولن) عشوائيًّا، فالرئيس (لينكولن) هو القائد الملهم الذي أنهى نظام العبودية، والاسترقاق في أمريكا قبل مائة عام، لذلك كانت افتتاحية خطاب كينج تشير إلى (لينكولن) حيث بدأ خطابه:

«قبل مائة عام، أعلن أحد الأمريكيين العظام، والذي نقف الآن بين جنبات أثرٍ من آثاره بيان تحرير العبيد، كان ذلك المرسوم التاريخي منارة أمل عظيمةً لملايين العبيد الزنوج الذين اكتووا بلهيب الظلم المهين. وبهذا الإعلان بزغ فجر يوم بهيج أسدل الستار على عتمة ليل العبودية الطويل، ولكن...

بعد مرور مائة عام لا يزال الزنجي محرومًا من الحرية

بعد مائة عام لا تزال حياة الزنجي مكبلة للأسف بأغلال الفصل العنصري، وأصفاد التمييز

بعد مائة عام يعيش الزنجي في جزيرة معزولة من الفقر في خضم محيط شاسع من الرخاء المادي

بعد مائة عام ما زال الزنجي يعاني في أنحاء مجتمعه، وما زال يعتبر نفسه منفيًّا في أرضه».

يستكمل (كينج) خطابه متحدثًا عن صك الحرية:

ولذلك جئنا إلى هنا اليوم لنسلط الضوء على هذا الوضع المشين، جئنا لعاصمة وطننا لنصرف الصك الذي ورَّثنا إيَّاه بناة جمهوريتنا عبر الكلمات الرائعة للدستور، وإعلان الاستقلال، لقد وقعوا سندات الحقوق وورثوها لكل أمريكي، كان الصك يتضمن وعدًا بضمان الحقوق الراسخة في الحياة، حق الحرية، والسعي للسعادة، ومن الواضح اليوم أن أمريكا قد قصرت في دفع هذا الصك المستحق بسبب نظرتها إلى ألوان مواطنيها، وبدلًا من القيام بهذا الواجب المقدس أعطت مواطنيها الزنوج صكًا سيئًا كتب عليه: الرصيد غير كاف، لكننا رفضنا أن نصدق أن بنك العدالة مفلس، ورفضنا التصديق أن الرصيد غير كاف للوفاء في ظل الفرص الكبيرة المتاحة لهذا الوطن، لذا جئنا لصرف هذا الصك... الصك الذي يعطينا ثروة الحرية، وضمانات العدالة».

ثم ينبه (كينج) المستمعين أن الوقت قد حان...

«جئنا لهذه البقعة المقدسة لتذكير أمريكا بحالة التطاحن التي نعيشها الآن، لا وقت لدينا للمشاركة الباردة، ولم تعد تسعفنا الأدوية المهدئة بطيئة المفعول...

لقد حان الوقت لنرتفع من عزلة الوادي المظلم المهجور إلى طريق العدالة المشمس...

لقد حان الوقت لفتح أبواب الفرص المتساوية لكل أطفال الله...

لقد حان الوقت لرفع وطننا من رمال الظلم العنصري المتحركة إلى صخرة الأخوة المتينة».

ونقفز إلى فقرة الاستحالة حيث يوضح كينج:

«لا يمكن أن نمشي وحيدين... لكننا ونحن نمشي، يجب أن نضع تعهداتنا أمامنا

لا يمكن أن نعود للخلف... هناك هؤلاء الذين يسألوننا: متى سترضون؟!!

لا يمكن أن نكون راضون أبدًا طالما أن أجسامنا متعبة بالسفر لأننا لا نستطيع الإقامة في فنادق الطّرق السّريعة، وفنادق المدن

لا يمكن أن نكون راضون طالما أن كل ما يستطيع الزنجي فعله هو الانتقال من حيّ فقير صغير إلى حي فقير ولكنه أكبر قليلًا

لا يمكن أن نكون راضون أبدًا طالما أن الزنجيّ في(ميسيسبي) لا يمكن أن يُصوّت... والزنجيّ الآخر في (نيويورك) لا يُصوّت؛ لأنّه يعتقد أنّ لا شيء لديه ليُصوت من أجله.

لا، لا، نحن غير راضون، ولن نكون راضين حتّى تهبط العدالة مثل المياه وتكون الاستقامة مثل السيل العظيم».

ثم يبدأ (كينج) في التمهيد لحلمه:

«ارجع إلى ميسيسبي... ارجع إلى ألاباما... ارجع إلى جورجيا... ارجع إلى لويزيانا... ارجع إلى المناطق العشوائيّة، والأحياء الفقيرة لمدننا الشّماليّة، وأعلم بأن هذه الأوضاع ستتغير... دعنا لا نسكن في وادي اليأس... أقول لكم أصدقائي، بالرّغم من الصّعوبات، والإحباطات، ما زال لديّ حلم... حلم متأصّل في الحلم الأمريكيّ».

في تلك الأثناء، وبينما هو يخطب صاحت المغنية الدينية (ماهاليا جاكسون) للدكتور (كينغ): "أخبرهم عن الحلم، مارتن». من خلال تلك الشرارة يترك (كينج) النص المكتوب، ويرحل بعيدًا ليرتجل نص أحلامه الستة بصوت رخيم،

وحماسي، حيث تتغير طبقات صوته ارتفاعًا، وانخفاضا لتؤثر في وجدان غالبية الحاضرين، سواء كانوا من السود الذي قارب عددهم مائة وتسعون ألف مستمع، أو من ذوات البشرة البيضاء الذي قارب عددهم ستون ألف مستمع.

«لديّ حلم أنَّه في يوم من الأيام ستنهض هذه الأمّة لتعيش معنًى عقيدتها الحقيقيّ، نؤمن بهذه الحقيقة... أنّ كلّ الرّجال خُلِقُوا متساوين.

لديّ حلم أنَّه في يوم من الأيام، وعلى تلال جورجيا الحمراء سيكون أبناء العبيد، وأبناء ملاك العبيد السابقين قادرين على الجلوس معًا على مائدة إخاء.

لدي حلم أنَّه في يوم من الأيام أنَّه حتّى ميسيسبي التي تتصبّب عرقًا من حرارة الظلم، والاضطهاد ستُحَوَّل إلى واحة حرِّيَّة، وعدالة.

لديّ حلم أنّ أطفالي الأربعة سوف يعيشون في يوم من الأيام في دولة لن تعاملهم بلون جلدهم لكنّ بمحتويات شخصيّتهم... لديّ اليوم حلم.

لديّ حلم أنَّه في يوم من الأيام، وفي ولاية ألاباما، التي تنثر شفتي حاكمها عبارات التحلل وإلغاء الآخر، ستُحَوَّل إلى مكان يستطيع أولاد سود صغار وبنات سود صغيرات أن يتصافحوا مع الأولاد البيض الصّغار والبنات البيض الصغيرات ويمشوا معًا كأخوات وأخوة... لديّ حلم اليوم.

لديّ حلم أنَّه في يوم من الأيام سيعلو كل واد، وسينخفض كلّ تلّ وجبل، ستتضح الأماكن الوعرة، وستستقيم الأماكن المعوجة، وسيعلن مجد الرّبّ، وسيكون كل الناس معًا.

هذا هو أملنا... هذا هو الإيمان الذي أعود به إلى الجنوب... وبهذا الإيمان سنخرجُ من جبل اليأس نواة أمل... وبهذا الإيمان سنحول التنافر في أمتنا إلى سيمفونيّة أخوّة جميلة... بهذا الإيمان سنعمل معًا، ونصلي معًا، ونقاتل معًا، ونذهب إلى السّجن للدّفاع عن الحرّيّة معًا، مؤمنين بأننا سنكون أحرارا ذات يوم».

وعن الحرية اختتم (كينج) كلمته:

«من كلّ جهة، دع الحرّيّة تصدح، ولتكن أمريكا أمة حقيقية...

دع الحرية تصدح من قمم التلال المدهشة في نيوهامشير

دع الحرّيّة تصدح من على الجبال العظيمة في نيويورك

دع الحرّيّة تصدح من مرتفعات اليجينس ببنسلفانيا

دع الحرّيّة تصدح من جبال روكي المغطّاة بالثّلج في كولورادو

دع الحرّيّة تصدح من القمم الجذّابة في كاليفورنيا

دع الحرّيّة تصدح من جبال جورجيا

دع الحرّيّة تصدح من جبال تينسي

دع الحرّيّة تصدح من كلّ تلال ميسيسبي... من كلّ جبل

دع الحرّيّة تصدح

حين ذاك سنتصافح، ونغني كلمات الأنشودة الزّنجيّة القديمة:

أحرار أخيرًا...

أحرار أخيرًا...

شكرًا يا إلهي...

نحن أحرار أخيرًا».

كانت كلمة (كينج»)خير ختام للكلمات الُملقاة في الفقرات التي سبقته، ثم تلى المشاركون عهد التزام بقضية العدالة الاجتماعية، وبعد خطابه لم يتحدث أحد فقد كان تأثير الكلمات الحماسية يفوق الوصف ولن يكون هناك معنى لأي كلمات تلقى بعده، في نهاية العام منحت مجلة (التايم) شخصية رجل العام ل(مارتن لوثر كينج) حيث كان أول رجل أمريكي من أصل أفريقي يُمنح هذا اللقب، فظهرت صورة زعيم الحقوق المدنية على غلاف عددها الصادر في ٣يناير ١٩٦٤ بالإضافة إلى سبع صفحات داخلية تضمنت صور (كينج) خلال بعض اللحظات التي لا تُنسى من حياته المهنية في مجال الحقوق المدنية، بما في ذلك لقاؤه مع الرئيس (ليندون جونسون)، ولقطات اعتقال (كينج) في (برمنجهام – ألاباما) عام ١٩٦٣، لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يظهر فيها (كينج) على غلاف مجلة (التايم) الأمريكية حيث ظهر من قبل على غلاف آخر في ١٨ فبراير ١٩٥٧ عقب دوره فيما عُرف إعلاميًّا باسم [مقاطعة الحافلات في مونتجومري - Montgomery Bus Boycott]، أمَّا مصير النسخة المطبوعة التي قرأ منها (كينج) خطابه التاريخي فكانت من نصيب لاعب كرة السلة الأمريكي الأسود [جورج رافلينج - George Raveling]، والذي كان متواجدًا على المنصة خلف (كينج) متطوعًا كحارس أمني للمتحدثين، فما أن فرغ (كينج) من خطابه والتهبت الساحة بالثناء، والتصفيق، والهتاف، كان (كينج) يطوي خطابه المدون في صفحتين ونصف الصفحة حتى اقترب (رافلينج) خلفه سائلًا إيَّاه بلطف عن إمكانية أن يحتفظ بنسخة الخطاب، فاستدار له (كينج)، وأعطاه إيَّاه، وكان على ما يبدو يريد أن يقول له شيئًا إلا أن حاخام جاءه من الطرف الآخر ليهنئه على روعة خطابه، فلم يلتفت مرة أخرى

للاعب كرة السلة الذي احتفظ بنسخة الخطاب الأصلية معه للأبد في خزانته، وقد تحققت المباحث الفيدرالية من أنَّها النسخة الأصلية من خلال بصمات أصابع (كينج) عليها، صرح (رافلينج) في فبراير ٢٠٠٩ لصحيفة [فيلادلفيا دايلي نيوز - Philadelphia Daily News] أنَّه عُرض عليه أكثر من مرة شراء نسخة الخطاب بمبالغ وصلت إلى ٣ مليون دولار، ولكنَّه فضل الاحتفاظ به حتى اليوم ليورثه لاحقًا لأولاده، لم يُنشر خطاب (كينج) كاملًا إلا بعد مرور عقدين كاملين على إلقائه، وذلك عندما نشرته كاملًا جريدة (الواشنطن بوست) للمرة الأولى في أغسطس ١٩٨٣.

يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣ في (دالاس – تكساس) تم اغتيال الرئيس الأمريكي (كينيدي)، وخلفه في المنصب نائبه (ليندون جونسون) الذي وقع في العام التالي قانون الحقوق المدنية الذي فعّل المساوة بين السود والبيض وألغى الفصل بينهما في الأماكن العامة والخاصة، في العام التالي للخطاب أصبح (كينج) أصغر شخصية تنال جائزة (نوبل) للسلام عن عُمر ٣٥ عامًا، وعندما علم باختياره لنيل الجائزة أعلن أنَّه سيتبرع بقيمتها، وتقدر بنحو ٥٤,١٢٣ دولار لتعزيز حركة الحقوق المدنية، في الساعة السادسة مساءً يوم الرابع من أبريل ١٩٦٨، وقف (كينج) في شرفة غرفته رقم ٣٠٦ في [موتيل لوريان - Lorraine Motel] الذي يقع في مدينة [ممفيس – Memphis] مرتديًا بدلة سوداء حيث كان متأهبًا للذهاب لقيادة مسيرة إضرابية تدعم مطالب حقوقية لعمال جمع النفايات، وبينما كان يسند ذراعيه إلى جدار تلك الشرفة متحدثاً إلى مساعده الناشط الحقوقي [جيسي جاكسون - Jesse Jackson] المتواجد على الفناء بالخارج أسفل الشرفة، سُمِع دوى إطلاق نار ليسقط (كينج) على الأرض والدم ينفجر من عنقه، أسرع مساعدوه نحوه لنجدته، ومحاولة إنعاشه، لكن الأمر عمليًّا كان قد انتهى، حيث لفظ زعيم حركة الاحتجاج المدني الأشهر في التاريخ آخر أنفاسه في الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خماسي كامبريدج

في أغسطس عام ١٩٧٧ وبمناسبة الذكرى المئوية لميلاد [فيلكس جيرجنسكي - Felix Dzerzhinsky] مؤسس البوليس السري السوفيتي [الشيكا – Cheka]، والأب الروحي للاستخبارات الروسية في أعقاب الثورة البلشفية، وأحد مهندسي عمليات القتل الجماعي لمئات الآلاف من المواطنين خلال فترة القمع السياسي للبلاشفة، والتي عُرفت باسم [الإرهاب الأحمر - Red Terror] عام ١٩١٨، وكذلك أثناء تطبيق سياسة القمع المنهجي ضد القوزاق، والمعروفة باسم سياسة ال (Decossackization) منذ عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٣٣، أرسل [كيم فيلبي - Kim Philby] رسالة خطية إلى ضباط [جهاز الاستخبارات السوفيتي- Komitet Gosudarstvennoy Bezopasnosti (KGB)] مشيدًا بدور (جيرجنسكي) واصفًا إيَّاه بالمؤسس العظيم، ومتمنيًا لضباط المخابرات السوفييت كل نجاح في أعمالهم الهامة والمسؤولة، معربًا عن أمله في الحياة إلى ذلك اليوم الذي يرى فيه العلم الأحمر مرفرفًا على قصر (باكينجهام)، تم الكشف عن تلك الرسالة الخطية في المعرض الذي أقيم في الفترة من ١٥ سبتمبر إلى ٧ نوفمبر ٢٠١٧ في مقر [الجمعية التاريخية الروسية - Russian Historical Society] بالعاصمة الروسية (موسكو)، تحت عنوان: ««كيم فيلبي»... في الاستخبارات، والحياة»، والذي تمَّ تخصيصه لتكريم موظف الاستخبارات البريطانية وضابط الاستخبارات السوفيتية (كيم فيلبي)، عديد من الوثائق الخاصة بأشهر عميل مزدوج في أزهى عصور الاستخبارات السوفيتية (فيلبي)، والذي يُعد أهم، وأخطر الجواسيس خلال فترة الحرب الباردة تمَّ الكشف عنها في هذا المعرض، ومنها نسخة من تقرير استخباراتي في سبتمبر ١٩٤٩ أُرسل إلى الزعيم السوفيتي (ستالين) ووزير خارجيته [فياتشيسلاف مولوتوف – Vyacheslav Molotov] استنادًا إلى معلومات قادمة من (واشنطن)، وتحديدًا من السيد (فيلبي) ضابط الاستخبارات البريطاني لدى العاصمة الأمريكية، والذي أمد بها ضابط الاستخبارات السوفيتي المسئول عنه [يوري مودين - Yuri Modin]، يصف التقرير الذي كتبه (فيلبي) بالتفصيل عن الخطط (الأنجلو-أمريكية) السرية لتدريب ما يطلق عليهم [الفاشية المهاجرة - Émigré-Fascists] وهم الألبانيين المسلمين المتواجدين في مالطا وجزيرة [كورفو – Corfu] اليونانية، ثمَّ إعادة إرسالهم لألبانيا كحركة مقاومة مسلحة ضد حكومة الزعيم الشيوعي الألباني [أنور خوجه - Enver Hoxha]، هذه المعلومات التي شملت أعداد القوات، ووقت ومكان إنزالها ونوعية وحجم الأسلحة التي بحوزتهم وخطة العمل، تمَّ عرضها من خلال مستشار سوفيتي يعمل بوزارة الداخلية الألبانية على السلطات الألبانية التي بدأت في اتخاذ إجراءات تدابير أمنية مقابلة، مئات من قوات مكافحة الشيوعية الألبان الذين قام الغرب

بتدريبهم لقوا حتفهم فور هبوطهم على سواحل ألبانيا إمَّا بإعدامهم في الحال، أو قتلهم بعد استجوابات وحشية أدت إلى اعتقال، وإعدام أفراد أسرهم أيضًا، تم التخطيط، والتدريب، والتنفيذ لتلك العملية في ألبانيا بمعرفة [المخابرات السرية البريطانية (SIS - Secret Intelligence Service] والمعروفة باسم: [إم أي ٦ - Military Intelligence, Section ٦ (٦MI)] وهناك كان يشغل (فيلبي) منصبًا كبيرًا وحساسًا داخل جهاز الاستخبارات البريطانية حيث أصبح مسئولًا عن مكافحة نشاط المخابرات السوفيتية عام ١٩٤٤ بعدما تمَّ تعيينه كأول رئيس لدائرة جديدة تتخصص مهمتها في مكافحة تغلغل المخابرات الروسية في بريطانيا، وفي عام ١٩٤٩، تمَّ تعيينه ظاهريًّا بالسفارة البريطانية في (واشنطن) في منصب سكرتير أول السفير البريطاني، بينما كان دوره الفعلي ضابط ارتباط بين المخابرات البريطانية (٦MI) و[وكالة الاستخبارات المركزية – Central Intelligence Agency (CIA)] الأمريكية، ومن خلالها سيكون مطلعًا على أهم العمليات الاستخباراتية الأمريكية البريطانية المشتركة.

في مساء يوم السبت ٢٣ يناير ١٩٦٣، تسلل رجل أنيق رشيق في أوائل الخمسينات، متوسط القوام ونحيف، ذو عيون زرقاء ووجه لا يخلو من التقاسيم الحادة، من شقته الكائنة بالطابق الخامس في إحدى عمارات [شارع قنطاري – Rue Kantari] بشمال العاصمة اللبنانية (بيروت)، كانت الأجواء باردة، وممطرة حيث انتهت للتو عاصفة ممطرة هبّت قرابة الساعة الرابعة عصرًا، تلفت الرجل حوله للتأكد من أحدًا لا يتابعه حتى اختفى مع ظلمات الطريق في طريقه إلى ميناء (بيروت) القابع في الجزء الشرقي من [خليج سانت جورج - Saint George Bay] على ساحل البحر الأبيض المتوسط شمال (بيروت)، حيث تقبع في الميناء في تلك الليلة العاصفة، والممطرة سفينة الشحن السوفيتية]دولماتوفا - Dolmatova]، دخل الرجل للسفينة التي تعجلت أمرها بعد وصوله، ورحلت سريعًا في الصباح الباكر تاركة جزء من حمولتها دون شحن على أرض الميناء، وتوجهت إلى ميناء [أوديسا – Odessa] الأوكراني على البحر الأسود، لم يكن هذا الرجل سوى (كيم فيلبي) الذي وصل إلى العاصمة بيروت قبل ست سنوات وبضعة أشهر وتحديدًا في سبتمبر ١٩٥٦، في تلك الأثناء كان العدوان الثلاثي على الأبواب عقب قيام الزعيم المصري (جمال عبد الناصر) بتأميم قناة (السويس)، جاء (فيلبي) إلى لبنان كمراسل صحفي لجريدة [الأوبزرفر – Observer] ومجلة [الإيكونوميست – Economist] البريطانيتين، تلك الوظيفة التي وفرها له زميله السابق في جهاز الاستخبارات البريطانية [نيكولاس إليوت - Nicholas Elliott] وهو أيضًا كان صديق دراسته في جامعة [كامبريدج – Cambridge]، حيث كان يصغره بأربعة أعوام فقد التحق (إليوت) بالجامعة في العام الذي

ترك فيه (فيلبي) الجامعة، تشاركت المجلة والجريدة في تحمل تكلفه راتبه السنوي وقدره ٣٠٠٠ جنيه إسترليني بالإضافة لمصاريف السفر والتنقل، لم يكن ذلك هو مصدر دخل (فيلبي) الوحيد، فقد وفر له (إليوت) فرصة استئناف العمل مع الاستخبارات البريطانية التي كان قد استقال منها مسبقًا، وأبعد عنها تمامًا في يوليو ١٩٥١، ولكن تلك المرة ليس كضابط مخابرات كالسابق بل كعميل للاستخبارات البريطانية يجمع المعلومات للمخابرات البريطانية في منطقة الشرق الأوسط التي تُعد واحدة من أكثر المناطق حساسية في العالم، مقابل ذلك كان (فيلبي) يتقاضى راتبًا يمنحه له (جودفري (بول) بولسون) رئيس وحدة المخابرات البريطانية في (بيروت)، كان (بولسون) أيضًا زميل دراسة مع (فيلبي) في [مدرسة ويستمنستر - Westminster School] العريقة، وكانت العمليات الاستخباراتية المكلف بها (فيلبي) صغيرة حيث انصب اهتمام (بولسون) الرئيسي في متابعة، ومراقبة (فيلبي) لاكتشاف أي ارتباط مخابراتي مضاد له يقوم به مع السوفييت، ولكن (فيلبي) كان من الذكاء، والتحوط لدرجة يصعب معها كشف اتصالاته الجاسوسية مع الاتحاد السوفييتي، من آن لآخر كان (فيلبي)، و (بولسون) يلتقيان في [حانة جو – Joe’s Bar] التي تبعد بضعة أمتار عن مبنى (سبيرز) في [شارع فينسيا Rue de Phénicie] (شارع ابن سينا حاليًا) حيث مقر السفارة البريطانية التي تشغل فيه الاستخبارات البريطانية الطابق الرابع، قبل أن تنتقل السفارة لاحقًا إلى موقعها الحالي في شارع الجيش ببيروت، كانت تلك البقعة الساخنة في (بيروت) مسرحًا ومركزًا وملتقى للجواسيس، وعملاء الاستخبارات ليس في لبنان فقط، ولكن في المنطقة العربية كلها في الأردن، وسوريا، ومصر، والعراق، كانت الحانة هي البقعة المفضلة للعاملين بالسفارة البريطانية وفريق عمل الاستخبارات، وبالنسبة لـ (فيلبي) الذي كان معتادًا على شرب الكحوليات بإفراط كانت هناك أماكن أخرى اعتاد تناول الشراب فيها مثل بار فندق (نورماندي) الشهير على ساحل البحر، وكذلك بار فندق (سان جورج) المطل على [خليج سان جورج - Golfe de Saint-Georges] شمال بيروت، وكلاهما يقع في [شارع دي فرانس - Avenue des Français] ذلك الشارع الواسع والشهير بأشجار النخيل، والذي أصبح حاليًا ممشى [كورنيش بيروت - Corniche Beirut]، في فندق (سان جورج) تعرف (فيلبي) على الأمريكية [اليانور كيرنز - Eleanor Kearns] التي تصغره بثلاثة أعوام وزوجة [سام بريور - Sam Pope Brewer] مراسل صحيفة (نيويورك تايمز) في لبنان، كانت (اليانور) هي الأخرى مفرطة في شرب الكحوليات، وتوطدت العلاقة بينهما خلال فترة سفر زوجها لتغطية بعض الأحداث، ولم يأخذ الأمر أكثر من سبعة أشهر حتى طلبت (اليانور) الطلاق من (بريور) الذي لم يمانع، وسرعان ما ذهب إليه (فيلبي) ليخبره بأنّه علم من (اليانور) بطلاقها ويود أن يكون (بريور) أول شخص يعلم بنية (فيلبي) الزواج من مطلقته

(اليانور)، استنتج (بريور) الأمر سريعًا، ولم يعره اهتمامًا حيث غَيّر الموضوع، وأخذ يتبادل معه الحديث حول الانقلاب العسكري الذي وقع للتو في العراق، وأطاح بالمملكة العراقية الهاشمية على يد كل من (عبد الكريم قاسم)، و(عبد السلام عارف) مما عّرف لاحقًا باسم (حركة ١٤ تموز ١٩٥٨)، لم يكن تزامل (فيلبي) و (بريور) في لبنان هو الأول، فقد تزاملا من قبل أثناء تغطيتهما الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ – ١٩٣٩)، وفي ٢٤ يناير ١٩٥٩ تزوج (فيلبي) (اليانور) رسميًا.

كانت الشكوك حول أن (فيلبي) عميل مزدوج يتعامل لصالح جهاز الاستخبارات السوفيتية قد قاربت أن تتلاشى، بعدما فشلت التحقيقات التي أقيمت معه بمعرفة وكالة مكافحة الاستخبارات، والأمن الداخلي البريطانية والمعروفة باسم [إم أي ٥ Military Intelligence, Section 5 (MI5)] في أن تثبت ضلوعه بأي نشاط معاد، في وقت اهتمت بقضيته الصحافة البريطانية، وتشككت كثيرًا في أن يكون (فيلبي) هو [الرجل الثالث – The Third Man]، بدأت تلك الضجة الإعلامية من خلال صحيفة [الصنداي تايمز - The Sunday Times] التي تشككت حول (فيلبي)، وذكرت اسمه للمرة الأولى في أكتوبر ١٩٥٥، وفي محاولة لنزع فتيل الأزمة، وافقت الحكومة على مناقشة الأمر في [مجلس العموم - House of Commons]، وفي رده على استجواب برلماني قدمه نائب عمالي عما إذا كان (فيلبي) هو الجاسوس رقم ثلاثة، أعلن [هارولد ماكميلان - Harold Macmillan] وزير الخارجية في حكومة [أنتوني إيدن - Anthony Eden] أنَّه لم يجد أي أسباب تجعله يتوصل إلى استنتاج بأنَّ (فيلبي) قد خان في أي وقت مصالح بلده، أو ما يمكن اعتباره (الرجل الثالث) إذا كان هناك بالفعل مثل هذا الرجل.

بعد تبرئة (فيلبي) من الشكوك لم يكن بمقدور جهاز الاستخبارات (إم أي ٦) إعادة (فيلبي) إلى موقعه كضابط استخبارات في الجهاز الذي التحق به عام ١٩٤٠، تم التحاق (فيلبي) للعمل في الاستخبارات البريطانية بترشيح من [جاي بورجيس - Guy Burgess] زميل الدراسة في جامعة (كامبريدج) حيث دعمت ترشيحه رئيسته [مارجوري ماكسي - Marjorie Maxse] كبيرة موظفي الاستخبارات في القسم (د – D)، وهو قسم تم استحداثه في تلك الفترة لمواجهة الفاشية السوفيتية والنازية الألمانية المتنامية، حيث يتم ابتكار خطط للتدمير، والتخريب من خلال مهام سرية، واستخدام أساليب قذرة، ولم يجد العقيد [فالنتين فيفيان - Valentine Vivian] رئيس الوحدة (V) المسؤولة عن مكافحة التجسس المضاد بعد التشاور مع جهاز (إم أي ٥) المكلف بمتابعة الأداء الأمني، والاستخباراتي لموظفي جهاز الخدمة السرية، ما يمكن أن يدين (فيلبي) لكي يتم تعيينه في جهاز الاستخبارات البريطانية (إم أي ٦)، في حقيقة الأمر كانت تلك التحريات روتينية، وتقليدية، ولا تشمل

أي جهد يرتقي إلى تقنيات البحث السري، تم تعيين (فيلبي) كضابط استخبارات في الوحدة (D) حديثة الإنشاء، وقد استطاع من خلالها الوصول إلى المعلومات السرية التي يتضمنها ملفات الجهاز، ثم سرعان ما تم تعيينه في الوحدة (V) المسؤولة عن كشف العملاء المزدوجين، والمتعاملين مع استخبارات الدول الأخرى، وأهمها الاستخبارات السوفيتية، ومنها استطاع (فيلبي) التعرف على عملاء الاستخبارات البريطانية الفاعلين في أوروبا، لم يكن (فيلبي) في ذلك الوقت سوى عميل مزدوج للاتحاد السوفيتي حيث تم تجنيده قبل ستة أعوام في يوليو ١٩٣٤ عقب عودته من العاصمة النمساوية (فيينا) بمعرفة الاستخبارات السرية السوفيتية، التي عُرفت في ذلك الوقت باسم المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية السوفيتية (NKVD) وتطورت لاحقًا عام ١٩٥٤ لتُعرف باسم (KGB)، فور تخرج (فيلبي) من (كامبريدج) التحق بمنظمة شيوعية تعمل على إغاثة ضحايا الفاشية الألمانية ومنها سافر إلى العاصمة النمساوية (فيينا) في بداية عام ١٩٣٤ لمساعدة اللاجئين من ألمانيا النازية، وهناك تعرف على [ليتزي فريدمان -Litzi Friedmann] (٢٣ عاما) الفتاة الشيوعية النمساوية اليهودية التي لها شبكة واسعة من العلاقات الشيوعية في جميع أنحاء أوروبا بما في ذلك المخابرات السوفيتية، في ٢٤ فبراير ١٩٣٤ أصبحت (فريدمان) زوجة (فيلبي) الأولى، وعندما بدأت حكومة ديكتاتور الدولة الفيدرالية النمساوية [انجلبرت دولفوس – Engelbert Dollfuss] حملة قمع جديدة على اليساريين المعروفين بُعَيد انهيار الحركة الاشتراكية، عاد (فيلبي) في أبريل ١٩٣٤ بصحبة زوجته (فريدمان) إلى (لندن) قبل أن تصل إليها قبضة (دولفوس)، وفي العاصمة البريطانية كان لدى (فريدمان) صديقة نمساوية بريطانية [إديث تيودور-هارت - Edith Tudor-Hart] تعمل مصورة فوتوغرافية، ومتعاطفة مع الشيوعية، وتتجسس لصالح الاتحاد السوفيتي بعيدًا عن أعين المخابرات السرية البريطانية، وبعد عدة لقاءات أوصت (تيودور-هارت) بترشيح كل من (فريدمان، وفيلبي) للتجنيد لصالح الاستخبارات السوفيتية (NKVD)، في يونيو ١٩٣٤ وداخل منتزه (ريجنت بارك - Regent’s Park) الملكي في شمال غرب (لندن) قامت (تيودور-هارت) بتقديم (فيلبي) إلى [أرنولد دويتش - Arnold Deutsch] ضابط الاستخبارات السوفيتية المسئول عن تجنيد الجواسيس في بريطانيا، كان (دويتش) رجل وسيم ذو عيون زرقاء، وشعر مجعد وُلد في تشيكوسلوفاكيا، وعاش ودرس في النمسا علم النفس والفلسفة في جامعة (فيينا)، وحصل على الدكتوراه عام ١٩٢٧، ثم بدأت مسيرته كجاسوس يعمل لصالح الاستخبارات السوفيتية في الثلاثينيات، ثم انتقل إلى العاصمة البريطانية ليبدأ في عمل الدراسات العليا في علم النفس بجامعة لندن لتكون ستار لأعماله التجسسية في بريطانيا، عُرف (دويتش) بالاسم الحركي [أوتو – Otto]، كانت المقابلة الأولى بينه وبين (فيلبي) للتعارف استطاع من خلالها (دويتش) تقييم

فيلبي بشكل ممتاز، وفي المقابلة الثانية عرض (دويتش) على (فيلبي) أن يعمل كجاسوس لصالح الاتحاد السوفيتي حيث سيمكّنه ذلك من دعم الشيوعية أكثر من كونه متعاطف معها، أو مؤيدًا لها، أوضح (دويتش) له بأنَّهم في الاتحاد السوفيتي في حاجة إلى أشخاص يمكنهم اختراق المؤسسات البرجوازية، وافق (فيلبي)، وكان أول طلب من (دويتش) على غير العادة بأنَّ يبتعد (فيلبي) تمامًا عن أي أمر يخص الشيوعية ويقطع اتصالاته مع أصدقاؤه الشيوعيين بل، وعلى النقيض من ذلك طلب منه أن ينضم إلى المعسكر المضاد كشخص يميني التوجه متعاطف مع النازيين، تأثر (فيلبي) بشخصية (دويتش) الذي عرف اسمه الحقيقي لاحقًا من صورة له اكتشفها في أحد ملفات المخابرات البريطانية لمكافحة الجاسوسية (إم أي ٥) عندما التحق بها، (فيلبي) كان يرى (دويتش) شخصًا رائعًا، وكان أول ما لاحظه فيه هو عينيه، فقد كان يشعر (فيلبي)، وكأنَّه ليس هناك شيء أكثر أهمية في الحياة من شخصه عندما ينظر له (دويتش) ويتحدث معه، وبدأ (دويتش) يعلمه أساسيات التجسس مثل عقد المقابلات، وترتيب الاجتماعات، وطرق ترك الرسائل، وكيفية اكتشاف ما إذا كان هاتفه مراقبًا، ثمَّ نصحه بمحاولة العمل بالصحافة؛ لأن ذلك سيعطيه مصدرًا جيدًا للمعلومات، ويكون غطاء ممتاز للتجسس، وكانت أول مهمة تُطلب من (فيلبي) هي القيام بعمل قائمة بزملائه في (كامبريدج) المتعاطفين مع الشيوعية، والذي يمكن تجنيدهم كجواسيس، كان على صدر القائمة [دونالد ماكلين - Donald Maclean] الذي يصغر (فيلبي) بعام واحد، على الرغم من أن كل منهما لم يعرف الأخر بشكل جيد، غير أن كلاهما شارك في مسيرة سلمية في ١١ نوفمبر ١٩٣٣ لإحياء ذكري [يوم الهدنة - Armistice Day]، ذلك اليوم الذي وُقعت فيه اتفاقية الهدنة بين الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، وألمانيا عام ١٩١٨ في فرنسا، حيث اكتشف (فيلبي) يومها أن (ماكلين) يشاركه رؤيته ورؤية (دويتش) في عالم خالي من الحروب، والاضطهاد، والظلم، والطغيان.

لم تكد تنتهي حقبة العشرينات بالقرن العشرين إلا، والعالم قد أصابته أكبر ضربة اقتصادية موجعة، ذلك الانهيار المالي الذي عُرف باسم [الكساد الكبير – The Great Depression]، حيث استيقظ العالم يوم الثلاثاء ٢٩ أكتوبر ١٩٢٩ على كارثة انهيار أسواق الأوراق المالية الأمريكية في (بورصة نيويورك) في [وول ستريت - Wall Street]، قبل قليل من ذلك التاريخ كانت البورصة مسرحًا للمضاربة الطائشة، وقام الجميع بمن فيهم عديمي الخبرة من الأفراد باستثمار مدخراتهم في الأسهم، ونتيجة لذلك شهد سوق الأسهم توسعًا سريعًا، وبمرور الوقت أصبحت أسعار الأسهم أعلى بكثير من قيمتها الفعلية، ورغم تباطؤ الإنفاق الاستهلاكي، وركود السلع في المتاجر إلا أن أسعار الأسهم استمرت في الارتفاع، حتى بدأ الهلع يتملك المستثمرون العصبيون

فبدأوا في بيع الأسهم بشكل جماعي يوم الخميس ٢٤ أكتوبر ١٩٢٩ الذي أطلق عليه [الخميس الأسود – Black Thursday].

حيث جرى التداول على ١٢.٩ مليون سهم وانهار سوق الأسهم، وبعد خمسة أيام يوم ٢٩ أكتوبر كان هناك [الثلاثاء الأسود – Black Tuesday] الذي شهد تداول نحو ١٦ مليون سهم بعد موجة جديدة من الذعر اجتاحت (وول ستريت)، وأصبحت ملايين الأسهم التي اشتراها هؤلاء المستثمرين بأموال مُقترضة بلا أي قيمة مالية، وكان نتاج ذلك أن أغلقت المصانع أبوابها، أو أخفضت إنتاجها، وسرحت كثير من العمالة مما رفع بشكل كبير معدلات البطالة وانخفضت بالتالي القوة الشرائية وركدت البضائع في المتاجر وبدأ الاقتصاد حالة من الانكماش ثم الركود ثم الكساد، وامتد تأثير تلك الأزمة إلى على غالبية الدول الأخرى حيث انكمشت التجارة العالمية ما بين النصف والثلثين، كما بدأ أصحاب الأموال الأمريكيين في سحب مدخراتهم من المصارف الأوروبية، و تأثرت الدول الصناعية بشكل أكبر من تلك الأزمة، وخاصة بريطانيا التي كان اقتصادها ما زال يعاني من آثار كلفة الحرب العالمية الأولى (يوليو ١٩١٤ – نوفمبر ١٩١٨)، فانخفضت قيمة الصادرات البريطانية إلى النصف ومع نهاية عام ١٩٣٠ أصبح الفقر يعم المناطق الصناعية والعمالية، وتضاعفت نسب البطالة لتصل إلى نسبة ٢٠ في المائة، ولم يكن أمام الحكومة إلا تخفيض الإنفاق العام، ورفع الضرائب مما أضعف الاقتصاد وانخفضت قيمة الجنيه الإسترليني بنسبة ٢٥ في المائة، وأصبح ربع السكان البريطانيين يعيشون على حد الكفاف.

ونتاجًا لذلك زادت حالات سوء التغذية للأطفال، ومعها زادت نسبة الأمراض، وانتشر الفقر والجوع، وخرجت المسيرات تجوب الشوارع، صُعق الشاب (كيم فيلبي) أحد أبناء الطبقة العليا البريطانية من مسيرات الفقر والجوع التي كانت تجوب شوارع مدينة (كامبريدج) شمال (لندن) حيث بدأ طريقه في إحدى أعرق، وأفضل الجامعات على مستوى العالم والمتاحة لأبناء الطبقة العليا، ففقد الإيمان بالنظام الرأسمالي الذي يعتمد على فكرة الملكيَّة الخاصة لكافة العناصر الإنتاجية، ووجد أنَّه نظام اقتصادي فاشل، وعلى الجانب الآخر كان هناك التيار الفكري اليميني الفاشي الآخذ في الصعود، والذي يقوم على تمجيد القائد وتعظيم الدولة ومصالحها وتمجيد قائدها على حساب مصالح الفرد كما سيتأصل لاحقًا في دول أوروبية، مثل: ألمانيا النازية، وإيطاليا الفاشية، وإسبانيا تحت قيادة الديكتاتور الدموي [فرانشيسكو فرانكو - Francisco Franco]، وجد (فيلبي) أن خلاص العالم يكمن في الشيوعية ذلك المذهب الفكري الذي نشأ مع الثورة البلشفية في روسيا عام ١٩١٧، والقائم على الأفكار الاشتراكية للفيلسوف، وعالم الاقتصاد والاجتماع الألماني [كارل ماركس - Karl Marx]، يسعى المذهب الشيوعي إلى تقديم

المادة على كل شيء في الحياة، ويهدف إلى المساوة بين الأفراد في ذات المجتمع بحيث لا يكون أي فرد أفضل من الآخر، وأسفرت الشيوعية عن قيام اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية (الاتحاد السوفيتي) عام ١٩٢٢، لم يكن (فيلبي) هو فقط من آمن بالشيوعية، أو زملاؤه بجامعة (كامبريدج)، بل شعوب، ودول بأكملها اتخذته نظامًا سياسيًّا، واقتصاديًّا لها، كانت أهم أسباب سرعة انتشار هذا المذهب هو تنامي الفاشية في أوروبا حيث تنحصر السلطات في يد الحاكم فقط، وكذلك انهيار النظام الرأسمالي الذي أهمل العدالة، والمساواة ووَلّد الفقر والجوع، دخلت الأفكار الشيوعية (كامبريدج) على يد المحاضر البريطاني [موريس دوب - Maurice Dobb] أحد أبرز علماء الاقتصاد الماركسيين في القرن العشرين حيث كان بؤرة الحركة الشيوعية ومُنظّرُها داخل الجامعة، كان (دوب) يستفيض مع طلابه عن معتقداته الشيوعية، وكان يهاجم البرجوازية، أو طبقة الأقلية القوية، والنظام الرأسمالي الذي يستخدم أموال الشعوب في حروب، وأجندات عسكرية بدلًا من استثمارها في مشاريع وأعمال عامة تفيد الشعوب، كان يجتمع الطلبة الشيوعين داخل الجامعة من خلال [جمعية جامعة كامبريدج الاشتراكية - Cambridge University Socialist Society] وهناك توجه (فيلبي) بسؤال إلى (دوب) قبيل تخرجه عام ١٩٣٣ من كلية (ترينتي) جامعة (كامبريدج) عن كيفية قيامه بخدمة الحركة الشيوعية، فوَجّهه (دوب) إلى إحدى منظمات الجبهة الشيوعية الدولية أو [الكومنترن – Comintern] والتي سهلت له لاحقًا السفر إلى العاصمة النمساوية (فيينا).

في أكتوبر ١٩٣١ التحق (جاي بورجيس) الابن الأكبر لعائلة ثرية تنتمي للطبقة الوسطى العليا بجامعة (كامبريدج)، بعدما أنهى دراسته الثانوية في مدرسة [كلية إيتون - Eton Collage] الداخلية عام ١٩٣٠، وهناك في كلية (ترينتي) بجامعة (كامبريدج) وضحت عليه ميوله الجنسية المثلية، تلك الميول التي لم يحاول أن يخفيها خلال المرحلة الجامعية رغم أنَّها كانت تُعد في ذلك الوقت جريمة، تعرف (بورجيس) في السنة الأولى على [أنتوني بلانت - Anthony Blunt] الذي يكبره ب ٤ سنوات، وكان (بلانت) هو الآخر مثلي الجنس، وكلاهما كان عضوًا في تجمع [رهبان كامبريدج - Cambridge Apostles] الاجتماعي لمناقشة الأدب والفنون، وداخل التجمع كانت هناك رابطة [جماعة الحديث - Conversazione Society]، وهي جماعة سرية تعتبر نفسها من ألمع العقول داخل الجامعة، وكثيرون منهم كانوا ماركسيين ومثليي الجنس، ارتبط كليهما بالآخر حيث جمعتهما الميول الجنسية المثلية، وربما أصبحا عاشقين، وكذلك الميول تجاه الماركسية التي زاد من تأثيرها، والإيمان بها محاضرات البروفسير (دوب)، عكف (بورجيس) هذا الشاب اللامع، والمرح، وغريب الأطوار بذات الوقت على دراسة أعمال (ماركس)، و(لينين) بتأثير من

زميله الشيوعي [ديفيد جست - David Guest]، كان (بورجيس) طالبًا متفوقًا وحصل عام ١٩٣٢ على مرتبة الشرف الأولى في المرحلة الأولى من قسم التاريخ، والتحق في أكتوبر ١٩٣٣ بالحزب الشيوعي البريطاني، وشغل نشاطه السياسي حيز أكبر فشارك في مسيرات، وتظاهرات، ومنها مسيرة إحياء ذكرى (يوم الهدنة)، كما شارك هو وأعضاء (جمعية كامبريدج الاشتراكية) في دعم [مسيرات الجوع - Hunger Marches] التي كانت تمر بمدينة (كامبريدج) في طريقها إلى (لندن) خلال فترة [الركود العظيم - Great Slump] التي تعرضت لها بريطانيا أعوام ١٩٣١ – ١٩٣٣، كنتاج طبيعي لأزمة الكساد الكبير التي نشأت في الولايات المتحدة، وتأثرت بها دول العالم، من ضمن من رشحهم (فيلبي) إلى ضابط الاستخبارات السوفيتية (دويتش) كان (بورجيس) بالرغم من بعض التحفظات بسبب شخصية (بورجيس) المتقلبة، ولكن (دويتش) وجد أن (بورجيس) يستحق المخاطرة نظرًا لتفوقه الدراسي، وذكائه البالغ، وشبكة علاقاته المتميزة، والمتشعبة فضلًا عن روح المغامرة لديه.

ونجح (دويتش) في تجنيد (بورجيس) الذي قام بدوره بتجنيد زميله (بلانت)، عمل (بورجيس) لعدة أشهر في أواخر عام ١٩٣٥ حتى منتصف عام ١٩٣٦ كمساعد خاص لعضو البرلمان المنتخب حديثا عن حزب المحافظين [جون ماكنمارا - John Macnamara]، كان (ماكنمارا) يميني التوجه وانضم هو و(بورجيس) وعديد من نواب البرلمان من المحافظين إلى منظمة [الزمالة الأنجلو-ألمانية - Anglo-German Fellowship]، وهي منظمة أنشأت عام ١٩٣٥ تهدف إلى بناء الصداقة بين المملكة المتحدة وألمانيا، وكان ينظر إليها على نطاق كبير بأنَّها منظمة تدعم النازية التي تمكنت من الوصول للحكم في ألمانيا عام ١٩٣٣ بقيادة زعيمها (أدولف هتلر)، ساعد ذلك (بورجيس) على التخلص من ماضيه السياسي القريب كشيوعي ماركسي، واستطاع من خلال المنظمة جمع معلومات مهمة عن نوايا السياسة الخارجية لألمانيا، في يوليو ١٩٣٦ تم تعيين (بورجيس) بهيئة الإذاعة البريطانية (BBC) كمساعد منتج في قسم البرامج الحوارية، وهذا مكنه من توسيع دائرة علاقاته السياسية، ولقائه مع رموز عالم السياسة البريطانية بمن فيهم (وينستون تشرشل) وكيل وزارة الخزانة لجلالة الملكة الأسبق والتي تعادل صفة وزير في ذلك الوقت في حكومة [ستانلي بالدوين - Stanley Baldwin]، قام (بورجيس) بتوطيد علاقاته مع الكاتب، وضابط الاستخبارات البريطانية [ديفيد فوتمان - David Footman] بناء على تعليمات من ضابط الاستخبارات الروسي المسئول عنه، ومنها قام (فوتمان) بترشيح (بورجيس) لدى رئيسه في الاستخبارات البريطانية (فالنتين فيفيان) للعمل في وكالة الاستخبارات السرية البريطانية.

التحق (بورجيس) بالعمل لدى الاستخبارات البريطانية في ديسمبر ١٩٣٨ في القسم (D)، حيث مَكّنَه هذا العمل من أن يبقى على معرفة آنية بالتوجهات الحالية للدولة، وخططها المختلفة تجاه ألمانيا، والاتحاد السوفيتي، وهو ما وفرته أيضًا اتصالاته مع كبار المسؤولين الحكوميين، ومن أهم ما أخبر به الاستخبارات السوفيتية في تلك الفترة هو عدم وجود حاجة لدى الحكومة البريطانية تهدف إلى عقد اتفاق مع السوفييت، حيث أن بريطانيا تثق بقدرتها على هزيمة الألمان بدون الحاجة للدعم السوفييتي، وهو أحد الأسباب التي دفعت الزعيم الروسي (ستالين) للقيام بعقد اتفاقية الحياد أو [الاتفاق الألماني السوفيتي - Molotov–Ribbentrop Pact] المثيرة للجدل في ٢٣ أغسطس ١٩٣٩، وهي اتفاقية موقعة في (موسكو) بواسطة وزير الخارجية الألماني (يواخيم فون ريبنتروب - Joachim von Ribbentrop) ووزير الخارجية السوفيتي (فياتشيسلاف مولوتوف - Vyacheslav Molotov) بعدم اعتداء أي من الدولتين على الأخرى، وعدم دخول أي من الدولتين في أي تحالف يشن هجوم على الدولة الأخرى، بالطبع كانت تلك الاتفاقية خيانة للغرب من الاتحاد السوفيتي، وصدمة على بعض المؤمنين بالشيوعية من داعمي الزعيم السوفيتي (ستالين)، حيث انقلب العديد منهم على الاتحاد السوفيتي مدركين أن انتهازية (ستالين) في اتفاقيته مع (هتلر) قد تكون إشارة إلى أن الاتحاد السوفيتي لا يجسد المثاليات التي يؤمنون بها ويدعون لها، لم يكن ذلك الأمر كافيًا لكل من (فيلبي) و(بورجيس) و(بلانت) خريجي (كامبريدج) لعدلوهم عن التجسس لصالح السوفييت، وبالعودة إلى (بورجيس) فقد حصل في يونيو ١٩٤٤ على وظيفة في القسم الإعلامي في وزارة الخارجية البريطانية، وكانت طبيعة دور (بورجيس) كمسئول صحفي هي شرح سياسة الحكومة للمحررين الأجانب، والمراسلين الدبلوماسيين.

من خلال تلك الوظيفة استطاع (بورجيس) الاطلاع على أخبار سرية وتفاصيل هامة عن سياسة التحالف البريطاني ومعلومات متعلقة بوجهة النظر البريطانية لألمانيا وبولندا بعد الحرب، سرعان ما وجدت تلك التفاصيل طريقها إلى موسكو قبل، وأثناء مؤتمر (يالطا) في مارس ١٩٤٥ الذي كان يناقش كيفية توزيع التركة بعد انتهاء الحرب، في أكتوبر ١٩٤٦ تم تعيين الصحفي الاسكتلندي السابق، والنائب البرلماني [هيكتور ماكنيل - Hector McNeil] وزير دولة في وزارة الخارجية، وهو بحكم الأمر الواقع يعتبر نائب لوزير الخارجية [إرنست بيفين -Ernest Bevin]، وفي ديسمبر ١٩٤٦ أصبح (بورجيس) السكرتير الخاص لوزير الدولة لشؤون الخارجية (ماكنيل)، وهو ما أتاح الفرصة إلى (بورجيس) للوصول لمركز صنع السياسة الخارجية، والدفاعية البريطانية، وفي خلال ستة أشهر استطاع (بورجيس) أن يصل إلى

محتويات ٦٩٣ ملف بإجمالي عدد صفحات يتعدى ٢٠٠٠ صفحة تم إرسالها جميعًا إلى الاتحاد السوفيتي.

بعد ظهيرة يوم الخميس ١٥ نوفمبر ١٩٧٩ كشفت رئيسة الوزراء البريطانية [مارجريت تاتشر - Margaret Thatcher] أمام مجلس العموم البريطاني عن هوية الشخص الرابع في [خلية جواسيس كامبريدج - Cambridge Spy Ring]، إنَّه السير (أنتوني بلانت)، ضابط الاستخبارات البريطانية السابق، والمستشار الفني للملكة، هذا الإعلان أنهى تغطية استمرت ١٥ عامًا على اسم الشخصية، كان (بلانت) قد اعترف إلى سلطات الاستخبارات البريطانية في ٢٣ أبريل ١٩٦٤ بعد تحقيقات مطولة لسنوات بأنَّه تم تجنيده من قبل الاستخبارات الروسية قبل الحرب العالمية الثانية، ومنذ تخرجه من (كامبريدج)، قام (بلانت) بتمرير المعلومات بشكل منتظم إلى السوفييت عندما كان يعمل بالاستخبارات البريطانية في الفترة من ١٩٤٠ وحتى ١٩٤٥.

كان من ضمن تلك المعلومات التي مررها (بلانت) معلومات تخص القوات الألمانية، والتي كان الألمان يقومون بتشفيرها بنظام [إنيجما – Enigma]، واستطاعت قوات الحلفاء عام ١٩٣٩ فك شفرتها، قدم (بلانت) هذا الاعتراف بعدما تلقى تعهدا ووقع اتفاقًا سريًّا بعدم محاكمته في حالة اعترافه، وقد منحت له تلك الحصانة؛ لأن التحقيقات المكثفة التي أُجريت معه منذ عام ١٩٥١ إلى عام ١٩٦٤ عندما وشى به (أناتولي جوليتسين)، العميل السوفيتيّ الذي انشقّ، وهرب إلى الغرب، لم تنجح في أن تقدم دليلًا دامغًا على كل الشكوك الخاصة بعلاقته بالاستخبارات السوفيتية، بعد عدة دقائق من كشف (تاتشر) عن هوية الجاسوس الرابع في خلية (كامبريدج) أعلن قصر (باكنجهام) أنَّه تم تجريد (بلانت) من لقب [فارس – Sir] والذي تم منحه إيَّاه عام ١٩٥٦.

لاحقًا أعلنت كلية (ترينتي) بجامعة (كامبريدج) سحب درجة الزمالة الفخرية التي مُنحت له، أصيب (بلانت) بالفزع عقب كشف (تاتشر) عن هويته لدرجة أنَّه فكر في الانتحار، وأشيع إعلاميًّا على غير الواقع فراره من بريطانيا، ولكنه أصدر بيان للإعلام بعد ٤ أيام من الكشف عن هويته حيث أعلن أن قرار الحصانة مُنح له من قبل رئيس الوزراء البريطاني آنذاك السيد [أليك دوجلاس-هوم - Alec Douglas-Home] وأنَّه نادم بمرارة على أنشطته التجسسية التي كان يراها في تلك الأثناء نوع من المثالية، حاصر الإعلام البريطاني (بلانت) الذي التزم منزله بشكل دائم رافضًا التعامل مع الإعلام، حيث وجهت له صحيفة [صنداي تليجراف - Sunday Telegraph] الاتهام بأنَّه مسؤول عن مقتل ٤٩ من عملاء القوات الخاصة الهولندية وقت الحرب،

سافر (بلانت) عام ١٩٣٣ إلى روسيا، وتمَّ تجنيده في العام التالي بواسطة صديقه الحميم (جاي بورجيس).

كان (بلانت) يعمل وقتها عقب تخرجه كمساعد مدرس في (كامبريدج)، وكان مكتشف موهوب للعملاء المحتملين للاستخبارات، كانت مسيرته المهنية تسير بشكل جيد حيث بدأ عام ١٩٣٧ نشر عشرات من الأوراق العلمية، والكتب في المجال الذي تخصص فيه وهو الدراسات التاريخية للفنون في بريطانيا، انضم (بلانت) للجيش البريطاني عام ١٩٣٩، وأثناء الحرب العالمية الثانية عمل كضابط في المخابرات الحربية (إم أي ٥ - 5MI) بين عامي ١٩٤٠ و ١٩٤٥، كانت السلطات على دراية بآرائه الماركسية لكنها لم تعتبر ذلك في تلك الأثناء يشكل خطرًا أمنيًّا، فضلا عن تمرير بعض المعلومات السرية إلى السوفييت أتاح له العمل في (إم أي ٥) تحذير زملائه من الجواسيس عما إذا كان هناك أي خطر محتمل عليهم من إدارة مكافحة التجسس، توقف تقريبًا نشاط (بلانت) الاستخباراتي مع نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥، إلَّا أنَّه حافظ على اتصالاته، وعلاقاته مع العملاء السوفييت، انعزل (بلانت) عن المجتمع عقب الكشف عن هويته، وعكف على كتابه مذكراته التي أهداها إلى [المكتبة البريطانية - British Library]، وطلب عدم الكشف عنها إلا بعد مرور ٢٥ سنة، لأنه قد يَرِد بالمذكرات أسماء، أو عائلات أشخاص لا ترغب في الكشف عنهم، تلك المذكرات أصبحت متاحة للاطلاع العام في ٢٣ يوليو ٢٠٠٩ وفيها اعترف (بلانت) بأنَّ التجسس لصالح الاتحاد السوفيتي كان أكبر خطأ ارتكبه في حياته، قائلا: «ما لم أكن أدركه هو أنني كنت ساذجًا سياسيًّا لدرجة أنني لم أكن مجبرًا بإلزام نفسي بأي عمل سياسي من هذا النوع، كانت الأجواء في (كامبريدج) حادة جدًا، وكان الحماس لأي نشاط مناهض للفاشية مُقدرًا جدًا لدرجة أنني أقدمت على ارتكاب أكبر خطأ طوال حياتي».

يُقر (بلانت) في مذكراته بأنَّ الاستخبارات السوفيتية (KGB) طلبت منه عام ١٩٥١ الفرار من بريطانيا إلى الاتحاد السوفيتي، ولكنَّه رفض بسبب قناعته بأنَّ أي مخاطرة داخل بريطانيا سوف تكون أفضل من الذهاب إلى روسيا، وَدّع (بلانت) الحياة بعد أربعة أعوام من الكشف عن هويته إثر تعرضه لسكتة قلبية في منزله بالعاصمة (لندن) في ٢٦ مارس ١٩٨٣ عن عمر يناهز ٧٥ عاما.

عقب قيام وزير الخارجية البريطاني |(هارولد ماكميلان) بتبرئة (كيم فيلبي) في مجلس العموم في ٢٧ أكتوبر ١٩٥٥، وكان ذلك بعد يومين من سؤال النائب العمالي اللامع [ماركوس ليبتون - Marcus Lipton] لرئيس الوزراء (إيدن) عمَّا إذا كانت الحكومة البريطانية تحاول التستر على (فيلبي)، أقام (فيلبي) مؤتمر صحفيًّا في منزل والدته في الكائن بشارع [حدائق درايتون - Drayton Gardens] بحي [تشيلسي – Chelsea] الثري غرب (لندن)، وفي

المؤتمر اتهم (فيلبي) النائب (ليبتون) بالكذب، وتحداه بتكرار ادعاءاته بعيدًا عن الحصانة البرلمانية، الأمر الذي أجبر (ليبتون) على إصدار بيان يسحب فيه ادعاءاته حول (فيلبي)، كان (فيلبي) مُتمكنًا، وواثقًا من نفسه أثناء المؤتمر الصحفي لدرجة أن ضابط الاستخبارات السوفيتية الروسي (يوري مودين) المقيم في (لندن)، والمسئول عن (فيلبي) التقط أنفاسه، وهو يشاهد المؤتمر الصحفي في أخبار التلفزيون المسائية، ويرى كيف كان (فيلبي) بارعًا، وماكرًا حيث أدرك وقتها أن الحكومة البريطانية ليست لديها أدلة جدية على تورط (فيلبي)، عندما سافر (فيلبي) في العام التالي إلى لبنان، لم يكن السوفييت بحاجة مُلحّة إلى خدماته حيث كان لديهم كثير من الجواسيس عالية القيمة تعمل في الشرق الأوسط، ولكن هذا لا يمنع من استقبال معلومات من (فيلبي) قد تحمل بعض الأهمية، كان (فيلبي) يغلف معلوماته بتحليلاته، وتقييماته، لمْ يكنْ السوفييت يلقون بَالًا كثيرًا لتقييمه فقد كان لديهم فريق كامل في الاستخبارات يعمل على تحليل، وتقييم الأمور كافة وربطها معًا، كانت أمور (فيلبي) الاستخباراتية في لبنان تمر بشكل طيب بعد سنوات من عاصفة اتهامه بالجاسوسية، وتبرئته منها، ولكن لا شيء يبقى مُستترًا للأبد، إنَّها [فلورا سولومون - Flora Solomon] ابنة المليونير الروسي، وتاجر الذهب اليهودي [جريجوري بيننسون - Grigori Benenson]، والتي هاجرت إلى بريطانيا عقب اندلاع الثورة البلشفية عام ١٩١٧ وسرعان ما تزوجت من الكولونيل في سلاح الفرسان البريطاني [هارولد سولومون - Harold Solomon]، التقت (فلورا سولومون) عام ١٩٢٣ أثناء رحلة لها إلى فلسطين مع [الشيخ عبد الله - Sheikh Abdullah]، أو [جاك فيلبي - Jack Philby] والد (جون فيلبي) ذلك الرحالة المستعرب، ومصمم الخرائط البارز وضابط المخابرات الإنجليزية، الذي لعب دور محوري في إزاحة العثمانيين عن المشرق العربي، وأصبح مقربا من الملك (عبدالعزيز) بعد قدومه بتكليف بريطاني إلى مدينة (الرياض) في شبه الجزيرة العربية عام ١٩١٧، وأصبح مستشارًا بشكل غير رسمي للشؤون الخارجية عام ١٩٣٠ وأعلن إسلامه في تلك الأثناء، عندما التقت (سولومون) بالأب (هاري سانت جون فيلبي) الذي اشتهر باسم (جاك فيلبي).

التقت أيضًا بالابن (كيم فيلبي) الذي كان عمره في ذلك الوقت ١١ عامًا، وبعد مرور سنوات عديدة وتحديدًا عام ١٩٣٦ أصبحت (سولومون) من أصدقاء (كيم فيلبي)، وزوجته (ليتزي فريدمان)، أخبر (فيلبي) عام ١٩٣٧ (سولومون) بأنَّه يعمل في التنظيم الشيوعي الدولي [الكومنترن – Comintern]، وطلب منها بشكل مفاجئ الانضمام معه، حيث لم يَعد يُعرف عن (فيلبي) علانية أية ميول له تجاه الشيوعية منذ أن تمَّ تجنيده عام ١٩٣٤، بل على النقيض كان داعمًا بشكل واضح للفاشية اليمينية، رفضت (سولومون) الدعوة بالعمل في

التنظيم الشيوعي ليس بسبب خلفيتها الرأسمالية في روسيا قبل الثورة، ولكن لأن اهتماماتها كانت موجهة لإنقاذ اليهود المضطهدين في أوروبا، في ٣ سبتمبر ١٩٣٩ يوم إعلان بريطانيا رسميًّا الحرب على ألمانيا التقى (فيلبي) في منزل (سولومون) للمرة الأولى مع [إيلين فورس - Aileen Furse] التي سيتزوجها لاحقًا في ٢٤ سبتمبر ١٩٤٦ بعد أسبوع من طلاقه من زوجته الأولى (فريدمان)، بعد مرور ١٩ عامًا على عرض (فيلبي) تجنيد (سولومون)، انزعجت (سولومون) مما كان يكتبه (فيلبي) في جريدة (الأوبزرفر) من لبنان منذ العدوان الثلاثي (الإسرائيلي – البريطاني – الفرنسي) على مصر عام ١٩٥٦، حيث رفضت رؤيته المنحازة للعرب على حساب إسرائيل التي كان ولاء (سولومون) لها كبيرًا، وقررت ألا تصمت.

في أغسطس ١٩٦٢ أثناء حفل استقبال في [معهد وايزمان - Weizmann Institute] في العاصمة البريطانية التقت (سولومون) مع [فيكتور روتشيلد - Victor Rothschild] الضابط السابق في جهاز الاستخبارات البريطانية (إم أي ٦) أثناء الحرب العالمية الثانية، والذي كان على علاقة متميزة مع قادة جهاز المخابرات الإسرائيلية [الموساد – Mossad]، تساءلت (سولومون) باستنكار موجهة حديثها إلى (روتشيلد) عن الأسباب التي تدفع صحيفة (الأوبزرفر) للاستعانة بصحفي مثل (فيلبي)، مُصرحة له أن (فيلبي) شيوعي التوجه، واسترسلت في الحديث له معبرة عن شكوكها في أن (فيلبي) عميل للاتحاد السوفيتي منذ الثلاثينات حينما عرض عليها سرًا الانضمام للتنظيم الشيوعي الدولي، في مبنى [ليكونفيلد هاوس - Leconfield House] حيث مقر جهاز مكافحة الجاسوسية (إم أي ٥ – MI٥) التقت (سولومون) مع ضابط التحقيق بالجهاز [آرثر مارتن - Arthur Martin]، وأخبرته عن شكوكها في (كيم فيلبي)، لم يكن ذلك الأمر هو الوحيد الذي وضع (فيلبي) مرة أخرى بعد سنوات في دائرة الاتهام، ولكن هناك [أناتولي جوليتسين - Anatoli Golitsyn] الضابط السابق في قسم التخطيط الاستراتيجي في المخابرات الروسية [كي جي بي – KGB]، والذي عمل لاحقًا لمدة ستة سنوات في [مركز موسكو - Moscow Center] في تدوين ملاحظات ملفات عالية المستوى، في ديسمبر ١٩٦١ ارتجل (جوليستين) حيث كان يعمل في ذلك الوقت ملحق دبلوماسي في السفارة السوفيتية بالعاصمة الفنلندية (هلسنكي) إلى مقر السفارة الأمريكية، وطلب الحصول على اللجوء السياسي، طار (جوليتسين) على الفور إلى الولايات المتحدة، واستقر في منزل بالقرب من العاصمة، في مارس ١٩٦٢ التقى محقق الاستخبارات البريطانية (آرثر مارتن) مع (جولستين) في (واشنطن)، وأخبره أن طبيعة عمله داخل المخابرات السوفيتية أتاحت له الاطلاع على العملاء المزدوجين ومن بينهم كان (كيم

فيلبي) الذي يعمل جاسوسًا للاتحاد السوفيتي هو ومجموعة أخرى من زملائه منذ فترة الدراسة بالجامعة.

متسلحًا بتلك المعلومات من (سولومون) و(جولستين) اتفقت الاستخبارات البريطانية بفرعيها (إم أي ٥) و (إم أي ٦) على استجواب (فيلبي) في لبنان بواسطة (مارتن) في البداية، ولكن استقر الأمر لاحقا على (نيكولاس إليوت) صديق (فيلبي)، في ١٠ يناير ١٩٦٣ سافر (إليوت) من (لندن) إلى (بيروت) ليستجوب (فيلبي)، وهناك التقى (فيلبي) في إحدى غرف مقر إقامته حيث أخبره بظهور أدلة جديدة تثبت ضلوعه في التخابر لصالح السوفييت، ولكن (فيلبي) الذي أنكر مرارًا، وتكرارًا طيلة عشر سنوات تلك الاتهامات اعترف ببساطة دون أن يسأل صديقه (إليوت) حتى عن ماهية تلك الأدلة الجديدة.

وكانت هناك قناعة بأنَّ فيلبي لم يسأل عن الأدلة الجديدة لأنَّه كان يعرفها، وهذا يعني أن الاستخبارات السوفيتية ما زالت قادرة على الوصول إلى معلومات عما يحدث داخل الاستخبارات البريطانية، (أليوت) وعد (فيلبي) بأنَّه في حالة قيامه بالاعتراف طواعية سوف يحصل على عفو تام، وحصانة ضد ملاحقته ولن يتم نشر أي أمر يخص ذلك علانية، وعندما رفض (فيلبي) فكرة الاعتراف الرسمي، هدده (إليوت) بقدرته على سحب جواز سفره، وإلغاء تأشيرة إقامته، وبالتالي عدم قدرته في التعامل مع حسابه البنكي، ومنعه من العمل الصحفي، وهنالك طلب (فيلبي) مهلة ٢٤ ساعة للرد، في صفحتين عرض (فيلبي) بعض أنشطته الاستخبارية على (إليوت)، وكان عديد منها يفتقر للدقة، كما أقر أنَّه توقف عن التخابر لصالح السوفييت عام ١٩٤٥ مع نهاية الحرب العالمية الثانية، وبداية الحرب الباردة حيث تحول الاتحاد السوفيتي من حليف مع بريطانيا إلى عدو، كما أمده بقائمة من الأسماء الكودية للعملاء السوفييت قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية فقط، لم يكن ذلك كافياً لإرضاء (إليوت) فالعفو الشامل يجب أن يتضمن كل المعلومات التي يعرفها، وعلى رأسها بيانات كاملة عمن كان يتعامل معهم في (موسكو).في اليوم التالي عرض (إليوت) على (فيلبي) قائمة باثني عشر اسمًا تعتقد الاستخبارات البريطانية بقيامهم بالعمل لصالح السوفييت، أصاب ذلك (فيلبي) بالقلق الشديد حيث أن اسم واحد فقط بالقائمة لم يكن يعمل لصالح السوفييت، وهو الشخص الوحيد الذي أشار عليه (فيلبي) كذبًا بأنه عميل سوفيتي، أخبر (إليوت) بعد أربعة أيام من الاستجوابات (فيلبي) بأنَّه مضطر للسفر إلى الكونغو، وأن زميل آخر [بيتر لون - Peter Lunn] سوف يستكمل استجوابه، لمْ يكنْ (لون) متعاطفًا مع (فيلبي)، وعندما طلب من (فيلبي) الحضور للسفارة وقتها شعر (فيلبي) بعدم الاطمئنان، ولكنَّه طلب التأجيل لبضعة أيام مدعيًا إصابة ألمت به نتيجة انزلاقه في إحدى غرف منزله، في تلك الأثناء

رتب له ضابط الاستخبارات الروسي عملية الهرب إلى الاتحاد السوفيتي من خلال سفينة الشحن الأوكرانية المتواجدة في ميناء بيروت.

كان اسم [دونالد ماكلين - Donald Maclean] هو أول اسم رشحه (كيم فيلبي) على ضابط الاستخبارات الروسي (أرنولد دويتش) في يونيو عام ١٩٣٤، (ماكلين) الذي يصغر (فيلبي) بعام ونصف هو ابن السير (دونالد ماكلين) زعيم المعارضة من ١٩١٨ – ١٩٢٠، ورئيس الحزب الليبرالي من ١٩٢٣ – ١٩٢٦، التحق (ماكلين) الابن بكلية (ترينتي) بجامعة (كامبريدج) عام ١٩٣١ ليدرس اللغات الحديثة، وهناك سرعان ما تخلص من القيود الأبوية، والمعتقدات السياسية الليبرالية، واتجه ليشارك في البروباجندا الشيوعية، حيث التحق بالحزب الشيوعي، وفي سنواته الأخيرة بالجامعة لمع اسمه كأحد رواد الشيوعية داخل الجامعة بعدما منحته وفاة والده وهو في عامه الدراسي الثاني مزيدًا من التحرر الفكري السياسي، تخرج (ماكلين) بتفوق من (كامبريدج)، وكان ينوي السفر للاتحاد السوفيتي ليعمل بتدريس اللغة الإنجليزية هناك، ولكنه عدل عن تلك الفكرة، وتقدم للعمل في السلك الدبلوماسي.

وفي الاختبار عندما سُأل عن معتقداته الشيوعية أثناء الجامعة، أجاب بأنَّه لا ينكرها، ولا يستطيع أن ينكر أن بعضًا من تلك الأفكار لمْ يفلحْ بعد في التخلص منها، أعجبت تلك الردود لجنة الممتحنين لأنَّه بدا أمينًا في الرد، ولم ينكر ميوله تجاه الماركسية، ونجح في العمل بالسلك الدبلوماسي، وبعد قليل من تسلمه العمل تلقى (ماكلين) دعوة من (كيم فيلبي) على العشاء حيث أخبره بأنَّ هناك نشاط سري يمكن أداؤه لصالح الاتحاد السوفيتي، والشيوعية، وأنَّه يستطيع أن يقدمه لأشخاص على قدر كبير من الجدية والمسؤولية، وافق (ماكلين)، وتقابل لاحقًا مع (دويتش) في مكان رُتب لهما في أحد المقاهي، وهناك بعدما أعجب كل منهما بالآخر، ووافق على العمل جاسوسًا طلب (دويتش) من (ماكلين) أن يقطع علاقته تمامًا بكل أصدقائه الشيوعيين، اقترح (ماكلين) على (دويتش) بعد فترة قصيرة تجنيد شخص مهم، ومؤثر، ولم يكن هذا الشخص سوى (جاي بورجيس)، والذي سبق وأن رشحه (فيلبي) أيضًا، لذلك قام (دويتش) بتجنيده ولكن على مضض نظرًا لتصرفاته الغريبة، والسطحية في بعض الأحيان، قام (بورجيس) عقب تجنيده بترشيح زميله (أنتوني بلانت)، وهكذا تكونت حلقة (كامبريدج) من أربعة أشخاص، وهم على التوالي (فيلبي)، ثمَّ (ماكلين)، ثمَّ (بورجيس)، وأخيرًا وليس آخرا (بلانت)، جميعهم أصبحوا جواسيس بناء على فكر أيديولوجي ملتزم، ومستوحى من صورة أسطورة للزعيم الروسي (ستالين) كقائد لدولة من العمال، والفلاحين تضمن عدالة اجتماعية للجميع، متغاضين عن واقع ديكتاتوري وحشي تعانيه تلك الطبقة في معسكرات الاعتقال في (سيبيريا)، والتي عرفت باسم [جولاج

– Gulag] حيث تعرض العاملين هناك للعمل الإلزامي، والسخرة، والقمع، والتنكيل، وانتهاك صارخ لكل حقوقهم، كان النظام الشيوعي لا يحمل قيودًا على الحرية الجنسية، عكس ما كانت عليه الأعراف، والقيود الجنسية الصارمة، والنظام الطبقي القديم في بريطانيا وقتها، وهو ما وجد ترحيبًا منهم حيث كان (بورجيس) و(بلانت) مثليي الجنس، وكانت ميول (ماكلين) ثنائية الجنس، بينما (فيلبي) كانت ميوله مغايرة، أو متباينة الجنس وسيصبح (فيلبي) لاحقًا من أصحاب الزيجات المتعددة.

عام ١٩٣٨ عُيّن (ماكلين) كسكرتير ثالث بالسفارة البريطانية في (باريس)، وهناك في ديسمبر ١٩٣٩ تزوج بالطالبة الأمريكية [ميلندا مارلينج - Melinda Marling]، قامت الاستخبارات البريطانية عام ١٩٣٩باستجواب ضابط الاستخبارات السوفيتي [والتر كريفيتسكي – Walter Krivitsky] الذي فرّ في أكتوبر ١٩٣٧ إلى (باريس) ليطلب العمل مع الاستخبارات الغربية، أخبر (كريفيتسكي) الاستخبارات البريطانية بأنَّ أحد عملاء الاتحاد السوفيتي بريطاني الجنسية في منتصف الثلاثينات، ويعمل في وزارة الخارجية، ومتخرج من إحدى الجامعات المرموقة، ومن أسرة مرموقة اسكتلندية (كان والدي (ماكلين) يمتلكان منزلًا على الحدود الاسكتلندية)، فضلًا عن أنَّه شخص مثالي لا يتقاضى أجرًا مقابل خدماته، ولكن يقدمها بسبب الأيدلوجية الفكرية، وقناعته بالفكر الماركسي، عندما علم (فيلبي) من خلال عمله وقتها في الاستخبارات البريطانية عرف أن المقصود هو (دونالد ماكلين) الذي لم يتمكن محققي الاستخبارات في تلك الأثناء من تحديده، ولم يعطوا أهمية لمعلوماته، وبالتالي لم يتتبعه أحد بعد تلك المعلومات، عاد (ماكلين) مرة أخرى إلى (لندن) عقب الاجتياح الألماني لفرنسا عام ١٩٤٠.

في مايو ١٩٤٤ تم تعيين (ماكلين) كسكرتير أول في السفارة البريطانية في (واشنطن)، وهناك استطاع أن يُمرر للاتحاد السوفيتي وثائق هامة وسرية خاصة بالبرنامج النووي الأمريكي، حيث عمل كسكرتير مشترك للجنة السياسة المشتركة الأنجلو أمريكية - الكندية للطاقة الذرية، والتي أتاحت له فرصة الاطلاع على برنامج هيئة الطاقة الذرية الأمريكية، لم تكن المعلومات تقنية بقدر ما كانت عن تطور البرنامج النووي وتقدمه، وكمية البلوتونيوم المستخدمة في تصنيع القنابل وقوة تدميرها، وهو ما سمح للعلماء السوفييت وبناء على معلومات من مصادر أخرى تحديد عدد القنابل الأمريكية وقوتها، ومقارنة قوة الترسانة النووية للولايات المتحدة، وبريطانيا بنظيرتها لدى الاتحاد السوفيتي، عاد (ماكلين) إلى (لندن) مرة أخرى عام ١٩٤٨ وبعد فترة قصيرة تمَّ تعيين (ماكلين) رئيسًا للبعثة الدبلوماسية في السفارة البريطانية في العاصمة المصرية (القاهرة) حيث كان في ذلك الوقت أصغر مستشار في سفارات الخارجية البريطانية، كانت وظيفة العمل في القاهرة مهمة، حيث

كانت بريطانيا في هذا الوقت القوة الرئيسية في الشرق الأوسط مع وجود قوات لها في القواعد الجوية بمنطقة [قناة السويس – Suez Canal] حيث يمكن أن تصل من خلالها القاذفات النووية الأمريكية إلى الاتحاد السوفيتي، اعتبر (ماكلين) المسئول الرئيسي في السفارة البريطانية بالقاهرة، والمسؤول تحديدًا عن تنسيق الخطط العسكرية بين الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة والحكومة المصرية تحت إشراف السفير البريطاني.

أدمن (ماكلين) على الشراب، وتدهورت صحته، وأصبح يتفوه بكلمات، وأخبار قد تلفت الأنظار إليه، وقد عملت زوجته (ميلندا) على إقناع السفير بمرضه، وأهمية سفره إلى (لندن) بعدما فقد وعيه نتيجة الشراب، وقام بتحطيم غرفة موظفي السفارة، عاد (ماكلين) إلى لندن للعلاج، بينما سافرت (ميلندا) لبعض الوقت مع عشيق لها مصري الجنسية إلى إسبانيا، وهناك في (لندن) لم يعد (ماكلين) مرة أخرى حيث تمَّ تعيينه كرئيس للقسم الأمريكي في الخارجية البريطانية، في تلك الأثناء وفي يوليو ١٩٥٠ تم تعيين (بورجيس) في نفس الوظيفة التي كان يشغلها (ماكلين) كسكرتير أول في السفارة البريطانية في (واشنطن)، وهناك استضافه (كيم فيلبي) الذي تمَّ تعينه قبل عام في (واشنطن) كضابط اتصال استخبارات بريطاني مع الاستخبارات الأمريكية، أقام (بورجيس) في الطابق الأرضي بمنزل (فيلبي) الكائن في [شارع نبراسكا- Nebraska Ave]، كان (فيلبي) يقيم في المنزل مع زوجته الثانية [إيلين فيلبي - Aileen Philby]، كان أهم ما يطلع عليه (بورجيس) داخل السفارة البريطانية، وينقله للسوفييت هو أخبار الاستعدادات الأمريكية، والخطط الاستراتيجية في الحرب الكورية، عمل قسم الإشارة في الاستخبارات العسكرية الأمريكية منذ عام ١٩٤٣ على مشروع يُسمى [مشروع فينونا - Venona Project]، وهو برنامج خاص بمكافحة التجسس يقوم على اعتراض الرسائل المشفرة التي ترسلها وكالات الاستخبارات في الاتحاد السوفيتي، ويقوم بفك تشفيرها، استطاع فريق برنامج (فينونا) في مبنى [أرلينجتون هول - Arlington Hall] أن يعترض بعض الرسائل المشفرة الصادرة من محطة الاستخبارات السوفيتية بالقنصلية العامة السوفيتية في (نيويورك)، وعند فك شفرتها تبين تكرار اسم جاسوس تابع للاستخبارات السوفيتية يحمل الاسم الرمزي [هومر – Homer] واتضح أنَّه نشطًا في (واشنطن) منذ عام ١٩٤٤.

خلص مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى أن هذا الشخص يمكن أن يكون واحدًا من بين ستة آلاف شخص، وبدأ التحقق بداية مع الشخصيات غير الدبلوماسية العاملة في السفارات الأجنبية، في أبريل ١٩٥١ اكتشفت أجهزة فك الشفرة معلومات حيوية أكثر عن ذلك الشخص حيث تبين أنَّه كان يلتقي الضباط السوفييت بواسطة زوجته الحامل كنوع من التمويه، وهي المعلومة التي

يمكن أن تؤدي إلى التعرف على هوية (ماكلين) كأول جاسوس في حلقة (كامبريدج)، علم (فيلبي) الذي كان على اتصال مباشر بالاستخبارات الأمريكية سريعًا بهذا الأمر، وأدرك مباشرة أن المقصود هو (ماكلين)، حاول (فيلبي) التصرف بهدوء بعيدًا عن أي انفعال فالأمر ما زال بعيدًا على التعرف عليه، وخصوصًا أنَّه ليست بينه وبين (ماكلين) علاقة مباشرة، ولم يلتقيا منذ سنوات بعيدة، عندما وصلت المعلومات بريطانيا قرر جهاز (إم أي ٥) عدم القبض مباشرة على (ماكلين)، وذلك نظرا لسرية برنامج (فينونا) حيث يصعب استخدامه كدليل في التحقيقات، أو أثناء المحاكمة، لهذا السبب قرر الجهاز إبقاء (ماكلين) تحت المراقبة على أمل الوصول إلى مزيد من الأدلة حوله، قام (فيلبي) بإخطار الاستخبارات السوفيتية بالأمر، وطالبهم بسرعة خروج (ماكلين) من بريطانيا قبل استجوابه، وتعريض شبكة التجسس البريطانية كلها للخطر، في مطعم صيني بوسط (واشنطن) يصعب التنصت عليه التقى (فيلبي) مع (بورجيس)، وأخبره بالأمر، وطلب منه العودة إلى (لندن) لتحذير (ماكلين)، وإعلامه بضرورة فراره سريعًا إلى (موسكو) قبل القبض عليه، وأكد (فيلبي) على (بورجيس) بألا يهرب هو الأخر معه، لأن ذلك من الممكن أن يُعرّضُه بشكل مباشر للخطر، فكان (فيلبي) يدرك أن هروبهما معًا إلى (موسكو) سيجعل الأنظار تتجه إليه مباشرة على أنَّه شريكهما، أو متواطئ معهما.

وصل (بورجيس) إلى بريطانيا في ٧ مايو ١٩٥١، وهناك التقى سريعًا بصديقه (أنتوني بلانت)، وأخبره بالأمر، تواصل (بلانت) مع ضابط الاستخبارات السوفيتي (يوري مودين)، وأخبره بأن القبض على (ماكلين) مسألة وقت، وأن ذلك قد يحدث في غضون بضعة أيام، ووضع (ماكلين) يحتمل أن يقر فيه بكل شيء فور القبض عليه، قام (مودين) بالتواصل مع رؤسائه، وبدأ في تدبير أمر فرار (ماكلين)، وفي تلك الأثناء نما إلى علمه بأنَّه سيتم القبض على (ماكلين) يوم ٢٨ مايو، بسيارة مستأجرة قام (بورجيس) بالمرور على منزل (ماكلين) في قريته [تاتسفيلد – Tatsfield] بمقاطعة [سوري – Surrey] يوم ٢٥ مايو ١٩٥١، وقاما بحزم أمتعتهما، وانطلقا بالسيارة إلى مدينة (ساوثهامبتون)، ومن خلال تذكرتي ذهاب، وعودة بأسماء مزيفة رحلا على سطح الباخرة [فاليز – Falaise] التي انطلقت في منتصف الليل إلى ميناء [سان مالو - Saint-Malo] التاريخي شمال غرب فرنسا، أصر (مودين) على أن يفر كلاهما معًا، وذلك لأن المركز السوفيتي قد خلص بأنَّ (ماكلين) وحده لم يعد هو الكارت المحروق، بل أن (بورجيس) فقد قيمته هو الآخر، حتى لو بفرض أنه ظل محتفظًا بوظيفته الدبلوماسية، فسيجد صعوبة بالغة بإمداد الاستخبارات السوفيتية بمعلومات مثلما كان يفعل مسبقًا نتيجة الشكوك التي سوف

تشوبه، من ميناء (سان مالو) استقل كل من (ماكلين)، و(بورجيس) قطارًا إلى (باريس)، ثمَّ من هناك قطارًا آخر إلى مدينة (برن) السويسرية.

وهناك في سويسرا وفرت السفارة السوفيتية لكل منهما جواز سفر مزور باسم مزيف، ثم استقلا قطارًا آخر إلى مدينة [زيورخ - Zürich] داخل سويسرا، حيث ركبا الطائرة المتجهة إلى العاصمة السويدية (ستوكهولم) التي ستتوقف أولًا في العاصمة التشيكية (براغ)، وهناك في تشيكوسلوفاكيا أصبحا بمأمن داخل الستار الحديدي للكتلة الشرقية، ومن (براغ) تمَّ نقلهما بالسيارة إلى العاصمة السوفيتية (موسكو)، بعد ثلاثة أيام ببراءة، وانزعاج واضحين أخبرت (ميلندا ماكلين) وزارة الخارجية باختفاء زوجها، واقتنعت الاستخبارات في أنَّها لا تعلم شيئًا عن فرار زوجها، وخصوصًا أنَّها كانت في الشهر الأخير من حملها، سرعان ما تمْ اكتشاف اختفاء (بورجيس) أيضًا ليصبح غيابهما أمرًا غامضًا، وقامت الشرطة بتفتيش منزل (بورجيس) عسى أن تجد أي أثر يفيدها، ورغم أن المنزل تمَّ تدقيقه مسبقًا بواسطة (بلانت) إلا أن الشرطة وجدت إشارات تدل عن شخصية جديدة وهو [جون كيرنكروس - John Cairncross] الذي كان يدرس الفرنسية، والألمانية في جامعة (كامبريدج)، أما في (موسكو) فقد حصل كل من (ماكلين) و (بورجيس) على الجنسية السوفيتية في أكتوبر ١٩٥١، وعلى النقيض من (بورجيس) استطاع (ماكلين) التأقلم مع الحياة في الاتحاد السوفيتي، وأصبح مواطن فعّال، فسرعان ما أتقن اللغة الروسية، وحصل على الدكتوراة، وعمل كمتخصص في السياسية الاقتصادية الغربيةـ والشؤون الخارجية البريطانية، وكانت له بعض الكتابات في معهد الاقتصاد العالمي، والعلاقات الدولية تحت اسم [مادزوفسكي - Madzoevsky].

لم يكن هناك يومًا تأكيد رسمي بوجود كل من (بورجيس) و (ماكلين) في الاتحاد السوفيتي، حتى أعلن الزعيم السوفيتي [نيكيتا خروشوف - Nikita Khrushchev] ذلك الأمر بعد خمسة سنوات من فرارهما، وذلك عندما عقدا مؤتمرًا صحفيًا، قام (ماكلين) في مايو عام ١٩٧٠ بنشر كتابه: «السياسة الخارجية البريطانية منذ السويس ١٩٥٦ وحتى ١٩٦٨ - British Foreign Policy Since Suez ١٩٥٦-١٩٦٨» حيث قام بتحليل السياسة البريطانية الخارجية، وانتقد الدعم البريطاني للولايات المتحدة، وخصوصا أثناء حرب فيتنام، في ٦ مارس ١٩٨٣ توفي (ماكلين) عن عمر ٦٩ عاما نتيجة إصابته بالتهاب رئوي.

أمَّا (بورجيس) فقد استهلك وقته في القراءة والشراب، وكان دائم الشكوى من سوء المعاملة من عدم السماح له بالسفر، فقد كان يرغب في العودة مرة أخرى لإنجلترا، وكان يرى أنَّه يستطيع مواجهة تحقيقات الاستخبارات

البريطانية، كما وجد أن المثلية الجنسية في الإتحاد السوفيتي أمر مرفوض اجتماعيًا وغير معترف به، في عام ١٩٥٦ وجد عمل بدوام جزئي في [دار الأدب الأجنبي - Foreign Literature Publishing House] حيث كان يساهم في ترجمة الروايات البريطانية الكلاسيكية، سُمح لكليهما في فبراير ١٩٥٦ بعقد مؤتمر صحفي قصير حضره مُراسلين اثنين غربيين، وكان ذلك أول دليل ملموس، وجازم للغرب على أن الدبلوماسيين المفقودين على قيد الحياة في الاتحاد السوفيتي، أنكر كليهما في المؤتمر أنَّهما جاسوسين شيوعيين، وصرحا بأنَّهما جاءا إلى (موسكو) لتحقيق تفاهم أفضل بين الاتحاد السوفيتي، والغرب، بداية من عام ١٩٦٠ تدهورت صحة (بورجيس) نتيجة العادات السيئة للأكل، والإفراط في الشراب ونتيجة فشل حاد في الكبد وتصلب الشرايين توفي في ٣٠ أغسطس ١٩٦٣ عن عمر ٥٢ عامًا حيث أحرقت جثته.

عندما شاع خبر هروب (ماكلين) و(بورجيس) إلى الاتحاد السوفيتي، توجهت الأعين مباشرة إلى (كيم فيلبي) في واشنطن على أنَّه [الرجل الثالث - The Third Man] في الخلية، والذي استطاع إخبار صديقه في السكن (بورجيس) بالشكوك الجادة حول (ماكلين) وأنَّه هو الذي أرسل (بورجيس) إلى لندن ليحذر (ماكلين) قبل القبض عليه، حتى هربا معاً إلى الإتحاد السوفيتي، كان (فيلبي) قد وصل الولايات المتحدة عام ١٩٤٩ في وظيفة كبير ضباط الاستخبارات البريطانية في (واشنطن)، وقائد الاتصال مع وكالة الاستخبارات الأمريكية (CIA)، والمباحث الفيدرالية (FBI)، استطاع (فيلبي) الوصول لمعلومات عن خطة الاستخبارات الأنجلو - أمريكية التي تهدف للإطاحة بالرئيس الشيوعي الألباني (أنور خوجه).

وبناء على المعلومات التي سربها (فيلبي) تمَّ القضاء على كل مرتكبي المؤامرة، وعددهم بالمئات حيث تمَّ إعدامهم، نجح (فيلبي) في أن يكون على تواصل مع [ميرديث جاردنر - Meredith Gardner] المسئول على مشروع (فينونا) وزاره عدة مرات في مقر المشروع، ومنه علم بأمر (ماكلين)، وأرسل (بورجيس) إلى بريطانيا لتحذيره، زادت شكوك الاستخبارات البريطانية، والأمريكية حول أن (فيلبي) هو الذي سرب المعلومات إلى (ماكلين) بأنَّه قد تمَّ كشفه، وخصوصًا عندما اختفى أيضًا في ذات اليوم (بورجيس) الذي كان يقيم معه في منزله، فتم استدعاؤه إلى (لندن) في مايو ١٩٥١ نتيجة شكوك الأجهزة البريطانية، وفي ١٢ يونيو ١٩٥١ استدعي لمقابلة [ديك وايت - Dick White] رئيس جهاز مكافحة الجاسوسية (٥MI)، وطلب منه توضيح أمر كل من (ماكلين) و(بورجيس)، كان (فيلبي) حذرًا بالرغم من إفادته بكثير من المعلومات العامة حول شخصيتهما، وخصوصًا (بورجيس) غريب الأطوار والمنفعل والمتحمس فضلاً عن مثليته الجنسية، وهي صفات كلها لا تتفق مع صفات الجواسيس حيث تجعله تحت الأضواء بشكل ظاهر، أمَّا عن

(ماكلين) فقد أفاد بأنَّه ليست ثمة علاقة قوية تربطه به حيث لم يلتقي به سوى مرتين منذ بضعة سنوات ولمدة قصيرة، كان ردود (فيلبي) تحمل نفيًا ضمنيًا عن الاتهام غير المعلن بأنَّه قد يكون جاسوسًا هو الآخر، كانت الاستخبارات الأمريكية هي الأخرى تبحث في أمر (فيلبي)، ووصلتها قناعة مثلما وصلت للاستخبارات البريطانية عن أن (فيلبي) جاسوس يعمل لصالح السوفييت، ولكن دون وجود أي دليل ملموس، كانت تلك الشكوك كافية لاتخاذ قرار بإبعاده عن العمل في حقل الاستخبارات، لذلك لم يعد مرة أخرى لوظيفته كضابط اتصال في (واشنطن) بين الاستخبارات البريطانية ونظيرتها الأمريكية، وانتهت علاقته الرسمية تمامًا بالاستخبارات البريطانية، بعدما قدم استقالته.

في ٢٥ يوليو ١٩١٣ وُلد (جون كيرنكروس) في مقاطعة [لاناركشاير – Lanarkshire] التاريخية في وسط سهول إسكتلندا، كان الأصغر لأربعة أشقاء وأربعة شقيقات، عمل والده بالتجارة بينما عملت والدته بالحقل التعليمي، درس بجامعة [السوربون – Sorbonne] في (باريس) قبل أن يلتحق من خلال منحة دراسية بكلية (ترينتي) في جامعة (كامبريدج) عام ١٩٣٤ ليدرس اللغات المعاصرة، كان (كروس) الوحيد بين خماسي (كامبريدج) القادم من الطبقة العمالية المتواضعة، ولمْ يكن من الطبقة الأرستقراطية التي كان ينتمي لها باقي أقراد الخلية، في الجامعة أبدى اهتمام واضح بالمجموعات السياسية، وظهرت ميوله اليسارية بوضوح وبصورة لفتت نظر (أنتوني بلانت).

ولكن بالرغم من كونه متفوقًا، وميوله ماركسية بشكل واضح إلا أنَّه لمْ يكنْ شخصية جاذبة لنظر (دويتش) المسئول السوفيتي المسئول عن التجنيد، بسبب شخصيته الباهتة، وانطوائه على نفسه وعدم اهتمامه بمظهره وكونه مندمج اجتماعيًّا أكثر مع الفئات الأقل مستوى، خلال الجامعة انضم، (كروس) إلى الحزب الشيوعي، كان نبوغ وذكاء (كروس) ملحوظًا حيث تصدر لاحقًا قائمة المتفوقين في فترة الخدمة المدنية الأمر الذي جعله ينضم للعمل بوزارة الخارجية في ١٤ أكتوبر ١٩٣٦، لم يجد ظابط الاستخبارات السوفيتي (دويتش) مفرًا سوى تجنيده وتم ذلك بواسطة [جيمس جلوكمان - James Klugmann] العضو النشط في الحزب الشيوعي والذي تزامل مع (كروس) أثناء الجامعة.

كان تأثير (كلوجمان) على الآخرين قويًّا، وبهذا التأثير نجح في أن يجعل شخصا مثل (بلانت) يتحول للماركسية، ويؤمن بالفكر الشيوعي، في سبتمبر ١٩٣٨ اكتشف (كروس) في الخارجية وثيقة تظهر أن عميل بريطاني في الاتحاد السوفيتي أبلغ بريطانيا بالقرار السوفيتي، والخاص بعدم تقديم مساعدات عسكرية إلى تشيكوسلوفاكيا، وهي الرسالة التي وجدت طريقها

سريعا للسوفييت، وبعدها في ٣٠ سبتمبر ١٩٣٨ تم توقيع [معاهدة ميونخ - Munich Agreement] تلك الاتفاقية التي وقعت في (ميونخ) بين ألمانيا النازية، وبريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وكانت بمثابة تسوية تسمح بضم ألمانيا النازية لإقليم (السوديت) التشيكي على الحدود الألمانية، استكمل (كروس) عملية إرسال المعلومات السرية التابعة لوزارة الخارجية بانتظام، واستغل انتقاله للعمل عام ١٩٤٠ كسكرتير خاص لدى اللورد [موريس هانكي - Maurice Hankey] مستشار [دوقية لانكستر - Duchy of Lancaster]، ورئيس لجنة اليورانيوم، لنقل أوراق مجلس الوزراء، وبرقيات وزارة الخارجية إلى الاستخبارات السوفيتية بداية من يونيو ١٩٤١، وفي أواخر عام ١٩٤١ قدم معلومات بالغة السرية عن سياسة لندن في مجال الطاقة الذرية، ساعدت هذه المعلومات نظام (ستالين) في صنع قنبلة ذرية أواخر الأربعينات بنجاح كما كشفت عنه محفوظات أجهزة الاستخبارات السوفيتية السابقة، من المعلومات الهامة التي قدمها (كروس) للاتحاد السوفيتي تلك التي تخص [معركة كورسك -Battle of Kursk] (٥ يوليو - ٢٣ أغسطس ١٩٤٣) التي تعتبر أكبر معركة مدرعات في التاريخ، وإحدى المعارك الرئيسية الحاسمة في الحرب العالمية الثانية بين القوات الألمانية والسوفيتية، حيث انتقل (كروس) نتيجة إتقانه اللغة الألمانية للعمل في المركز البريطاني لفك رموز البرقيات الألمانية السرية في [حديقة بلتشلي - Bletchley Park] الذي يعتبر المقر الرئيسي لعمليات فك الشفرة للقوات البريطانية ثمَّ قوات التحالف لاحقا، قدم (كروس) معلومات هامة من خلال الرسائل الألمانية التي اعترضتها الاستخبارات البريطانية، واستطاعت فك شفرتها، عن نية ألمانيا الوشيكة الهجوم على مدينة (كورسك) السوفيتية والتي تبعد ٤٥٠ كيلومتر جنوب غرب العاصمة السوفيتية (موسكو)، كانت أهم الوثائق التي تكشف خطط، ونوايا الألمان عام ١٩٤٣ للسوفييت تلك الوثائق التي سربها (كروس) من (حديقة بلتشي)، وطبقًا لأرشيف الاستخبارات السوفيتية (KGB) فإن (كروس) استطاع تمرير ٥٨٣٢ وثيقة في الفترة من ١٩٤١ وحتى ١٩٤٥.

كانت الاستخبارات السوفيتية على إطلاع بمعظم مجريات الأمور في بريطانيا، ففضلا عن (كيرنكروس) في (حديقة بلتشي)، كان هناك (كيم فيلبي) في القطاع (V) بالاستخبارات البريطانية، و(جاي بورجيس) في جهاز الاستخبارات (٦MI)، و(دونالد ماكلين) في وزارة الخارجية البريطانية، و(أنتوني بلانت) في جهاز مكافحة الجاسوسية البريطاني (٥MI)، لم يكن الاتحاد السوفيتي يقبل بكل المعلومات التي تصله بغزارة من الجواسيس الخمسة، حيث تولدت لديهم شكوك من أن هؤلاء العملاء قد يكونوا عملاء مزدوجين، وأن الاستخبارات البريطانية هي التي تحركهم، وتمدهم بمعلومات منها الصحيح، ومنها المضلل ليخدم أهدافهم، كانت السوفييت يحاولون أن

يتفهموا كيفية قدرتهم على تجنيد كل هؤلاء الجواسيس داخل بريطانيا، في الوقت الذي لا يوجد فيه جواسيس بريطانيين بتلك الكثافة، والمقدرة داخل الاتحاد السوفيتي.

حاول (فيلبي) مرة الإجابة على هذا التساؤل، وبالرغم من صدق إجابته إلا أن السوفييت لم يقتنعوا بها وظلوا على شكوكهم، كانت إجابة (فيلبي) ببساطة تفيد أن الاتحاد السوفيتي أثناء الحرب العالمية الثانية كان حليف لبريطانيا، ودول التحالف، وكان جل التركيز الاستخباراتي البريطاني في تلك الأثناء ينصب على الجانب الألماني، والإيطالي، ودول المحور، ولا ينشغل كثيرًا بالحليف السوفيتي، عندما فرَّ (ماكلين)، و(بورجيس) إلى (موسكو) في مايو ١٩٥١، تخوفت الاستخبارات السوفيتية من اكتشاف بقية أعضاء خلية (كامبريدج) فطلبت من (أنتوني بلانت) سرعة التوجه إلى منزل (بورجيس)، والتخلص من أي دليل يمكن أن يؤدي للكشف عن هوية باقي أعضاء الشبكة، لم ينتبه (بلانت) إلى مجموعة من الوثائق كانت تشير إلى اجتماع حكومي عام ١٩٣٩ برز فيه اسم المسئول الحكومي البريطاني [جوك كولفيل - Jock Colville]، وشخص آخر غير محدد الهوية، وبسؤاله عن الاجتماع استطاع (كولفيل) أن يحدد هوية الشخص المعني وكان هو (كيرنكروس)، قامت الاستخبارات بمراقبة (كروس) حتى استطاعت أن ترصد لقاء له مع ضابط الاستخبارات السوفييتي (يوري مودين)، وقتها لاحظ (مودين) المراقبة فترك المكان سريعًا، وغادر دون أن يقابل (كروس).

كان [أنتوني سيميكنز - Anthony Simkins] ضابط الاستخبارات البريطاني في (٥MI) هو المسئول عن العملية، وحينما قرأ في التقرير أن (كروس) أشعل سيجارته، تذكر أن (كروس) غير مدخن، وأدرك أن إشعال السيجارة كان وسيلة من (كروس) لإبلاغ (مودين) بأمر المراقبة تلك التي يبدو أنَّه استطاع أن يدركها قبيل لقائه مع (مودين)، كان أمر استجواب (كروس) حتمي، وكان (مودين) قد لقنه مسبقًا في حال استجوابه بأن يعترف بتعاطفه مع الفكر الشيوعي، وصداقته البريئة مع (بورجيس)، ولكن يجب عليه أن ينكر تمامًا أي علاقة له بأمر الجاسوسية، وهو ما قام به تمامًا أثناء التحقيق معه، حيث أنكر علاقته بالجاسوسية رغم أنَّه أعطى صديقه (بورجيس) بعض المعلومات دون أن يعرف حقيقة أمره، لمْ يكنْ هناك دليل يمكن من خلاله القبض على (كروس)، ومحاكمته، وكان أقصى ما تم عمله هو إنهاء عمله الحكومي في وزارة الخزانة.

رحل (كروس) إلى (روما)، وعمل هناك مراسلًا لصحيفة (الأوبزرفر)، ومجلة (الإيكونوميست)، ولكن عندما اعترف (بلانت) عام ١٩٦٤ تحت الحصانة بعدم مقاضاته، كان (كروس) من ضمن الأسماء التي ذكر عمالتها للاستخبارات

السوفيتية، تمَّ استجواب (كروس) مرتين أخيرتين، أحداهما في (باريس)، وأقر فيها باعتراف كامل محصن، وغير معلن، ثم أُعيد استجوابه مرة أخرى في السبعينات، ولم يقدم أي جديد عن اعترافه السابق، رحل (كيرنكروس) الذي عُرف بأنَّه الرجل الخامس في خلية خماسي (كامبريدج) عن الحياة نتيجة سكتة قلبية في ٨ أكتوبر ١٩٩٥ عن عمر يناهز ٨٢ عامًا ليصبح أطول الخماسي عمرًا، بعد عامين من رحيله، وفي ٢ أكتوبر ١٩٩٧ نُشرت مذكراته التي حملت عنوان: «جاسوس إنيجما - The Enigma Spy».

قبل شهور من وفاة (بورجيس) وصل (فيلبي) إلى الاتحاد السوفيتي، لمْ يتمْ تأكيد خبر وصوله، ولم تنشر الصحافة السوفيتية أي أنباء عنه مطلقًا، والتزم المسؤولون في جهاز الاستخبارات البريطانية بفرعيه الداخلي، والخارجي الصمت إزاء اختفائه، كان يتوقع (فيلبي) أن يتم استقباله كالأبطال، ولكن الاستقبال كان باردًا، فقد أصبح عديم الفائدة في نظر الاستخبارات السوفيتية، ولا يستطيع أن يقدم خدمات ذات قيمة، وهو داخل الاتحاد السوفيتي كما كان الحال في السابق، اكتشف (فيلبي) أنَّه ليس ضابط داخل جهاز الاستخبارات السوفيتي (KGB) مثلما كان يعتقد، بل وجد تصنيفه كعميل للجهاز فقط، قرابة عشر سنوات مرت عليه منذ وصوله قبل أن يزو المقر الرئيسي للاستخبارات، ويتم تكليفه بأداء بعض الأعمال البسيطة، كان (فيلبي) الذي لمْ يستطع أن يتقن اللغة الروسية يقع تحت الإقامة شبه الجبرية وحراسة أقرب ما تكون لمراقبته، وكان ضيوفه يخضعون لفحص الاستخبارات التي كانت تضع احتمال فرار (فيلبي) والعودة إلى (لندن)، قدمت (إليانور) زوجة (فيلبي) إلى (موسكو) في نوفمبر ١٩٦٤ ولكن في مايو ١٩٦٥ تمَّ انفصالهما بعدما أقام (فيلبي) علاقة مع (ميليندا) زوجة (ماكلين) أثناء سفر زوجته (إليانور) إلى الولايات المتحدة، انفصلت (ميليندا) عن (ماكلين)، واستقرت علاقتها مع (فيلبي)، وأقامت معه، ولكنها تركته بعد ثلاثة أعوام، وعادت مرة أخرى إلى (ماكلين)، منحت السلطات السوفيتية (فيلبي) عام ١٩٦٥ [وسام لينين - Order of Lenin] الذي كان يظهره بكل فخر لأصدقائه البريطانيين الذين كانوا يزورونه في (موسكو).

وفي نفس العام قامت الحكومة البريطانية بسحب [وسام الإمبراطورية البريطانية - Order of the British Empire (OBE)]، وهي الرتبة فائقة الامتياز في الإمبراطورية البريطانية منه، والتي مُنحت له عام ١٩٤٦، عُقدت زِيجَة (فيلبي) الرابعة والأخيرة عام ١٩٧١ حينما تزوج (فيلبي) من الروسية [روفينا بوخوفا - Rufina Pukhova] ذات الأصول البولندية، والتي تصغره بعشرين عامًا، والتي ظلت معه حتى وفاته في ١٩٨٨.

حاولت (روفينا) تحجيم تعاطيه المفرط للشراب، وبالأخص بعدما أصيب في بعض الأوقات بالاكتئاب قبل رحيله، عكف (فيلبي) على كتابة مذكراته، والتي نشرت في بريطانيا عام ١٩٦٨ تحت عنوان: «حربي الصامتة - My Silent War»، ولم تنشر داخل الاتحاد السوفيتي حتى عام ١٩٨٠، في حديث معه بخصوص نشر الكتاب أوضح (فيلبي) أنَّه ساعد الاتحاد السوفيتي بسبب اعتقاده أن الديمقراطيات الغربية لم تفعل ما يكفي لمواجهة الزعيم النازي (هتلر)، لم يعتبر (فيلبي) نفسه خائنًا لبلده حيث يرى أن اتهام الخيانة يعني من الأساس الانتماء لما يُفترض خيانته، وهو لمْ يرى أنَّه كان ينتمي يومًا لهذا النظام المنافق.

داخل جهاز استخبارات ألمانيا الشرقية [شتازي – Stasi] في (برلين) أَلْقَى (فيلبي) محاضرة سرية لموظفي الجهاز عام ١٩٨١، تمْ العثور على تسجيل لتلك المحاضرة لاحقًا في أرشيف جهاز استخبارات ألمانيا الشرقية، وفيها أوضح أنَّه بفضل علاقاته مع بعض موظفي أرشيف الاستخبارات البريطانية استطاع بسهولة الوصول إلى أسرار حساسة داخلية كثيرة بالرغم من عدم سماح القوانين بأن يصل إليها، وأنَّه ما كان يستطيع الوصول لها لو كان يتم تطبيق تلك القوانين بصرامة، رأي (فيلبي) أن ثمة سببين رئيسيين ساعداه؛ لكي يستمر في التجسس لفترة طويله، أولهما: النظام الطبقي البريطاني الذي لمْ يكنْ ليقبل بأن يكون أحد أبناء الطبقة العليا خائنًا، والتي أتاحت له استجوابات ليست خشنة، والثاني: هو أن موقف كثيرين في الاستخبارات البريطانية سيصبح سيئًا بشكل كبير إذا ثبت أنَّه جاسوس، أنهي (فيلبي) محاضرته لضباط جهاز أمن الدولة الألماني الشرقي بنصيحة يرى أنَّها خدمته جيدًا قائلًا: «لا تعترف أبدًا، حتى لو واجهوك بوثيقة مكتوبة بخط يدك، أنكِر واتهمهم بالتزوير، كانوا يستجوبوني لإرهاقي عصبيًّا، وإجباري على الاعتراف، وكل ما كان عليَّ فعله هو الحفاظ على ثبات أعصابي، لذا فإن نصيحتي لكم هي إخبار عملاؤكم دائمًا بألا يعترفوا أبدًا».

قبل ثلاثة أعوام من انهيار الاتحاد السوفيتي، ونتيجة قصور في القلب تُوُفِيَ [هارولد أدريان رسل فيلبي - Harold Adrian Russell Philby] الشهير ب (كيم فيلبي) في ١١ مايو ١٩٨٨، كُرِم كرجل عسكري، ودفن في [مقبرة كونتسيفو - Kuntsevo Cemetery] على مقربة من نهر (سيتون) في العاصمة (موسكو)، وهي المقبرة المخصصة لأبطال الحرب المميزين، وللمواطنين المكرمين، والشخصيات التي أثرت في التاريخ السوفيتي في العلوم، والفنون، والآداب، وفي تلك المقبرة الوطنية دفنت أيضًا شخصيات متنوعة، مثل: [رامون ميركادير - Ramón Mercader] العميل السوفيتي الذي كلفته استخبارات (ستالين) باغتيال الزعيم، والمفكر السوفييتي [ليون تروتسكي - Leon Trotsky] في المكسيك في ٢١ أغسطس ١٩٤٠، وكذلك دُفن فيها

الجاسوس الأمريكي [موريس كوهين - Morris Cohen]، والطيار الروسي المقاتل اللواء: [كيريل يفستجينيف - Kirill Yevstigneyev] أحد أبطال القيادة السوفيتية أثناء الحرب العالمية الثانية، في عام ٢٠١٨ تدهورت العلاقات البريطانية الروسية بشدة، ووصلت إلى المستوى التي كانت عليه خلال الحرب البادرة؛ بسبب قضية تسميم عميل الاستخبارات البريطانية المزدوج، والعقيد السابق بالمخابرات العسكرية الروسية [سيرجي سكريبال - Sergei Skripal]، وابنته في مقاطعة [ويلتشاير – Wiltshire] جنوب غرب إنجلترا يوم ٤ مارس ٢٠١٨ على أيدي جواسيس روس مفترضين، وفي خضم تأزم تلك العلاقات تمَّ إثارة حفيظة البريطانيين بأن أطلقت (موسكو) في نوفمبر ٢٠١٨ اسم (كيم فيلبي) على ساحة قرب مقر جهاز الاستخبارات الخارجية الروسية جنوب غرب العاصمة الروسية (موسكو).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كسباروف.. والأزرق الداكن

«أنا إنسان... عندما أرى شيئًا يتجاوز حدود تخيلي، أشعر بالخوف»

هكذا صرح [جاري كاسباروف - Garry Kasparov] بطل العالم في لعبة الشطرنج بكل تلقائية، تفسيرًا لقوله: «لم أكن في جو اللعبة على الإطلاق، فأنا بعد المباراة الخامسة يوم السبت، أصبحت منزعجًا جدًا لدرجة أنِّي شعرت أن المباراة انتهت بالفعل».

الساعة الثالثة عصر يوم الأحد ١١ مايو ١٩٩٧ داخل [مُجمع إكويتابل - Equitable Center] الواقع في الجادة السابعة بين شارعي الواحد والخمسون والثاني والخمسون في حي (مانهاتن) بمدينة (نيويورك) أزحم مدن الولايات المتحدة، بدأ بطل العالم في الشطرنج: (كاسباروف) مباراته الأخيرة في سلسلة مبارياته الست أمام [ديب بلو – Deep Blue]، كانت مباراة حاسمة حيث أن مجموع نتائج المباريات الخمس السابقة مع (ديب بلو) كان التعادل ٢,٥ لكل منهما، فاز (كاسباروف) بسهولة في المباراة الأولى التي أقيمت يوم ٣ مايو ١٩٩٧ بعد ٤٥ حركة بنتيجة ١-٠، في اليوم التالي، وخلال ٤٥ دقيقة خسر المباراة الثانية بعدما أعلن انسحابه ليفوز (ديب بلو) بنتيجة ١-٠، بعض التحليلات التي أعقبت المباراة من خلال الحواسيب الإلكترونية أوضحت أنه كان بإمكانه إنقاذ الموقف بالوصول للتعادل، ولكنَّه لمْ يفعلْ.

أمَّا المباراة الثالثة التي أقيمت يوم ٦ مايو ١٩٩٧ فقد انتهت نتيجتها بالتعادل ½–½، وهي كانت نفس نتيجة المباراة الرابعة في اليوم التالي ليصبح مجموع المباريات الأربعة هي التعادل بنتيجة ٢ - ٢، أقيمت المباراة الخامسة يوم ١٠ مايو ١٩٩٧ وفيها وضح تفوق (كاسباروف) في البداية، وتوقع الجميع مع تلك البداية فوزه بالمباراة، ولكن (ديب بلو) لعب قبيل نهاية المباراة بطريق مذهلة ضمنت له التعادل الثالث بنتيجة ٠,٥–٠,٥؛ ليصبح مجموع المباريات الخمسة التعادل ٢,٥ - ٢,٥، قيمة جائزة البطولة ١.١ مليون دولار يحصل فيها الفائز على ٧٠٠ ألف دولار.

بينما يحصل الخاسر على ٤٠٠ ألف دولار، شهدت المباراة الأخيرة، والحاسمة اهتمام إعلامي محلي، ودولي كبيرين، ولم تتم إقامتها كالمعتاد على المسرح الصغير الذي يحتوي على خمسمائة متفرج في مبنى (إكويتابل سنتر)، بل أقيمت في غرفة اِسْتوديو تليفزيوني بذات المبنى، حيث نُقلت أحداث المباراة إلى المسرح الصغير في المبنى والذي نفذت كل تذاكر مبارياته الست فور طرحها.

حملت سلسلة تحركات (كاسباروف – ٣٤ عامًا) بالقطع السوداء بعد قليل من بداية المبارة جرأة، ومخاطرة كبيرة رغم البداية المتحفظة، مِمَّا دفع (ديب بلو) للتضحية بقطعة [الحصان – Knight]، حيث أصبح الملك الأبيض مكشوفًا، ولكن دفاعات (كاسباروف) تحطمت مقابل ذلك بسبب فشل النقلة السابعة، ومنها تفوق (ديب بلو) تفوقًا ملحوظًا، وبدى (كاسباروف) المنحنى على رقعة الشطرنج محبطًا، ومتخبطًا، وهو يضع كفيه على وجنتيه، وبعد ١٩ حركة قام بأدائها على رقعة الشطرنج، قام متأرجحًا وهو يهز رأسه بالرفض متململًا غير مصدق، وتحرك مبتعدًا عن مقعده، رافعًا يديه متعجبًا ومعلنًا هزيمته أمام (ديب بلو) في أقل من ساعة، حيث قدم في المؤتمر الصحفي عقب المباراة اعتذاره لمشجعيه، وشعوره بالخجل من أداؤه في نهاية المباراة معتبرًا أن ما حدث لا يمت للعبة الشطرنج بصلة.

تضم ناطحة السحاب الشهيرة [إمباير ستيت – Empire State] في مدينة (نيويورك) العديد من مقار الشركات والمؤسسات والهيئات العالمية، ومنها مقر [مؤسسة حقوق الإنسان - Human Rights Foundation (HRF)]، التي يترأس إدارتها (كاسباروف) بعدما أصبح ناشطًا حقوقيًّا، ومعارضًا سياسيًّا شهيرًا لنظام حكم الرئيس الروسي [فلاديمير بوتين - Vladimir Putin]، وقد أعلن عن نيته الترشح لمنصب الرئاسة في الانتخابات الرئاسية الروسية عام ٢٠٠٨ والتي فاز بها حينها [ديمتري ميدفيديف - Dmitry Medvedev].

لكن سرعان ما تم التضييق عليه من قبل السلطات، فلم يسمح بطائرته المستأجرة من الهبوط بالمطار، وتمَّ إبلاغ الفنادق بعدم قبول أي حجوزات له، فضلًا عن تهديد منظمي، وحاضري مؤتمراته، كما تمَّ فرض تعتيم تليفزيوني كامل على أي خبر له، كل تلك الأمور جعلته يعلن انسحابه قبل الترشح رسميًّا، ففي عالم السياسة لا تشفع الشهرة، ولا المجد، ولا التاريخ أحيانًا في تحقيق النجاح السياسي.

(جاري كاسباروف) يُعد أفضل لاعبي الشطرنج العظام على مر العصور، وتربع على قمة الترتيب العالمي طبقًا لترتيب الاتحاد الدولي للشطرنج طوال ١٩ عامًا منذ عام ١٩٨٦ وحتى اعتزاله في ٢٠٠٥ بتصدره المركز الأول لمدة ٢٢٥ شهر من إجمالي ٢٢٨ شهرًا، وهو حامل لسجل أفضل انتصارات متتابعة بتصدره الفوز في ١٥ بطولة شطرنج عالمية سنوية لمدة ٩ سنوات من عام ١٩٨١ إلى عام ١٩٩٠، فضلًا على حصوله على جائزة [أوسكار الشطرنج - Chess Oscar] ١١ مرة وهي جائزة تمنح سنويًّا لأفضل لاعب شطرنج في العالم، حيث يتم اختيار الفائز من خلال الأصوات التي يدلي بها صحفيين مختصين وخبراء ولاعبين محترفين للشطرنج من مختلف أنحاء العالم، ويعتبر (كاسباروف) أصغر لاعب يتوج بطلًا للعالم في الشطرنج وذلك عام ١٩٨٥

عندما كان عمره ٢٢ عاما و٢١٠ يوما، بعد مباراة قوية وطويلة فاز فيها على بطل العالم في ذلك الوقت المخضرم: [أناتولي كارابوف - Anatoly Karpov] لتبدأ بينهما سلسلة من المنافسات الملحمية حتى نهاية العقد. شارك (كاسباروف) في ثماني دورات أولمبية خلال مسيرته، حيث خسر ثلاث مباريات فقط من أصل ٨٢ مباراة، وفاز بـ ١٩ ميدالية بما في ذلك ذهبية الفريق في جميع مبارياته الثماني.

في ٣٢٠ صفحة نشر (كاسباروف) كتابه: «الشتاء قادم: لماذا يجب أن يتنحى فلاديمير بوتين وأعداء العالم الحر - Winter Is Coming: Why Vladimir Putin and the Enemies of the Free World Must Be Stopped» في ٢٧ أكتوبر ٢٠١٥، حيث يتحدث فيه عن الخطر الذي يمثله (بوتين) على العالم، كما يتطرق الكتاب إلى انزلاق روسيا في مستنقع الديكتاتورية، وكيف يدفع الغرب ثمن السماح بذلك مستعرضًا الموقف منذ نهاية الحرب الباردة، وسقوط الاتحاد السوفيتي، وبزوغ نجم (فلاديمير بوتين)، والمسرحية السياسية التي تمت مع رئيس وزرائه (ميدفيديف)، في الكتاب يرى (كاسباروف) أن هدف (بوتين) الوحيد هو البقاء في السلطة، وأن الذين يدافعون عن (بوتين) على مدار عقد من الزمن على الأقل إمَّا لديهم ما يستفيدون منه، أو أنَّهم جاهلون بشكل مدمر.

يشارك (كاسباروف) أيضًا بالكتابة في صحيفة [وول ستريت جورنال - The Wall Street Journal] منذ عام ١٩٩١، وفي عام ٢٠١٤ أصبح (كاسباروف) مواطنًا كرواتيًّا، وبعيدًا عن السياسة نشر (كاسباروف) في ٢٥ سبتمبر ٢٠١٧ كتابًا آخر له في ٢٤٠ صفحة يحمل عنوان طويل أيضًا: «كيف تحاكي الحياة لعبة الشطرنج» اتخاذ الخطوات الصحيحة، من لوحة الشطرنج إلى غرفة الإدارة - How Life Imitates Chess: Making the Right Moves, from the Board to the Boardroom»، وفيه يوضح كيف أن الأدوات التي جعلته بطل أسطوري في الشطرنج يمكن أن تكون هي ذاتها الأدوات التي تحقق التفوق في الحياة العملية، والاجتماعية، حيث يربط بطريقة حيوية، ومبتكرة بين أساسيات تفوقه في لعبة الشطرنج بداية من التفكير الاستراتيجي مرورًا بالتقييم، والإعداد، والفنون الإنسانية التي تطور الذات إلى استخدام الذاكرة والخيال والحدس، ومدى إمكانية أن تساعد تلك الأدوات في النجاح والتوفق في الحياة العملية، وعندما سأله موقع التجارة الإلكترونية الشهير [أمازون - Amazon.com] في مَعرِض تسويقه للكتاب عن أنَّه إذا كانت لديه القدرة على اختيار خمسة أشخاص رحلوا، أو على قيد الحياة يمكن مواجهتهم في مباراة شطرنج، فمن يكونوا؟، أجاب (كاسباروف) موضحًا أنَّه بالرغم من اعتزاله اللعبة فأنَّه يأمل في مواجهة رابع حاملي لقب بطل العالم وهو الروسي [ألكسندر أليخينِ - Alexander Alekhine] حيث كان مَثل (كاسباروف) الأعلى

عندما كان طفلًا، وكذلك اختار بطل العالم الرابع عشر الروسي [فلاديمير كرامنيك - Vladimir Kramnik] الذي توج باللقب عام ٢٠٠٠ عقب تغلبه على (كاسباروف) في مباراته الشهيرة التي أقيمت بالعاصمة الإنجليزية (لندن)، وكان الاختيار الأخير هو مباراة من شوط واحد مع (ديب بلو)، وستكون تلك المرة أمام الجميع بعيدًا عن الغرف المغلقة، والصناديق السوداء وسيكون وقتها من الجيد الثأر للهزيمة السابقة ووضع الأمور في نصابها.

حصل [فينج شيونج شو - Feng-hsiung Hsu] على بكالوريوس الهندسة الكهربية من جامعة تايوان الوطنية، ثم سافر للولايات المتحدة عام ١٩٨٤ حيث نال درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف في علوم الكومبيوتر من [جامعة كارنيجي ميلون - Carnegie Mellon University]، أثناء ذلك كان (شو) جزءًا من فريق تصنيع الحاسوب المتخصص والمعروف باسم [التفكير العميق، ديب ثووت – Deep Thought] بالجامعة، ونال عن تطوير الجهاز الجائزة الوسطى من ما يعرف باسم [جوائز فريدكين - Fredkin Prize]، (ديب ثووت) كان عبارة عن حاسوب خاص تمَّ تصنيعه لتقديم أداء احترافي في لعبة الشطرنج، وكان الحاسوب مبني على برنامج يدعى [شيب تست – ChipTest] قام بتصميمه (شو) عام ١٩٨٥ مع زميله الطالب [توماس أنانثرامان - Thomas Anantharaman] ذو الأصول الهندية، وسرعان ما لحق بهما بعد عدة أشهر الكندي [موراي كامبل - Murray Campbell]، واكتمل الفريق بانضمام الألماني [أندرياس نوفاتسيك - Andreas Nowatzyk]، والأمريكي [مايك براون - Mike Browne]، يقوم البرنامج بتوليد نقلات متعددة لقطعة الشطرنج بسرعة كبيرة بناء على معتقدين أساسيين، أولهما: يهتم بالحركة طبقا للقواعد الطبيعية لقطع الشطرنج، والثاني: قائم على التهديد المتوقع حدوثه لقطعة [الملك -The King]، في حال تنفيذ تلك الحركة.

قامت المجموعة بتطوير البرنامج إلى حاسوب متكامل، وقامت بتسميته (ديب ثووت) نسبة إلى اسم الآلة المستخدمة في سلسلة الخيال العلمي الكوميدية: [دليل المسافر إلي المجرة - The Hitchhiker’s Guide to the Galaxy]، كان (ديب ثووت) في هذا المسلسل الإذاعي هو ذلك الجهاز الذي يقوم بالرد على جميع الأسئلة المتعلقة بالحياة، والكون وكل شيء تقريبًا، في خريف عام ١٩٨٩ التحق (شو) الذي لُقّب باسم [الطائر المجنون – Crazy Bird] بقسم الأبحاث في عملاق صناعة الحواسيب شركة [أي بي إم – IBM]، والتحق معه (كامبل) من فريق (ديب ثووت)، ولحق بهما (أنانثرامان) في بداية العام التالي، ليستكملوا في الشركة تطوير الحاسوب بشكل أكثر طموحًا ليجعله قادرًا على التفوق على [سادة الشطرنج – Grandmasters]، أو أبطال العالم في الشطرنج، سرعان ما غادر (أنانثرامان) الشركة، وفي نوفمبر ١٩٩٠ التحق بالفريق الأمريكي [جو هوان - Joe Hoane] الحاصل على

بكالوريوس في علوم الحاسب من [جامعة ألينوي - University of Illinois]، و أيضا [جيري برودي - Jerry Brody] أحد باحثي الشركة القدامى المتخصص في [أجهزة محاكاة المنطق - Logic Simulation Machine]، واكتمل الفريق بالعضو الخامس من خارج الدائرة التقنية وهو [جويل بنجامين - Joel Benjamin] الحاصل على بكالوريوس التاريخ عام ١٩٨٥ من [جامعة ييل - Yale University]، وهي نفس السنة التي فاز فيها ببطولة الولايات المتحدة المفتوحة للشطرنج، وفي عام ١٩٨٨ نال لقب [جراندماستر – Grandmaster] بعد اختياره من قبل اتحاد الشطرنج الأمريكي كلاعب العام: «Grandmaster of the year».

قبل أكثر من عام من تلك المواجهة التي تمت بين (جاري كاسباروف)، والحاسوب (ديب بلو) في مايو ١٩٩٧، تلك المباراة التي حظيت بأكبر اهتمام إعلامي ونقاشات جدلية في تاريخ عالم الشطرنج، كانت هناك مواجهة سابقة بين كليهما في [فيلادلفيا – Philadelphia] مكونة من ستة جولات وأقيمت في الفترة من ١٠ فبراير إلى ١٧ فبراير ١٩٩٦، ولم تُحدِث تلك المواجهة نفس الصدى التي حققته المباراة التي تلتها بعام، وذلك لأن النتيجة النهائية شهدت تفوق لبطل العالم الأسطوري (كاسباروف) مِمَّا اعتبر أنَّه متوقعًا.

فاز (ديب بلو) بالمباراة الأولى يوم ١٠ فبراير في ٤٠ حركة استغرقت ساعتين، بينما فاز (كاسباروف) بالمباراة الثانية في اليوم التالي بعد صراع طويل تضمن ٧٣ حركة، وأقيمت المباراة الثالثة يوم ١٣ فبراير وانتهت بالتعادل، وتقاسم كليهما نقطة المُباراة، ليصبح إجمالي نتائج المباريات الثلاث الأولى ١½–١½، وكان التعادل هو نتيجة المباراة الرابعة في اليوم التالي، وشهدت المباراة الخامسة أحداثًا مختلفة حيث طلب (كاسباروف) التوافق على التعادل بعد الخطوة ٢٣ ولكن قوبل طلبه بالرفض من جانب (ديب بلو) الذي خسر في النهاية وانتهت المباراة لصالح (كسباروف) ليصبح إجمالي نتائج المباريات الخمس ٣-٢ لصالح (كاسباروف)، وفي يوم ١٧ فبراير أقيمت المباراة النهائية التي خسرها (ديب بلو) لتصبح نتيجة مجموع المباريات الست ٤-٢ لصالح (كاسباروف)، بعدها وافق (كاسباروف) على إقامة مواجهة جديدة أخرى في العام التالي.

شركة [أي بي إم – IBM] التي أنشأت عام ١٩١١ تدخل ضمن فئة الشركات الكبرى في العالم فطبقا لإحصاء ٢٠١٧ بلغ عدد العاملين فيها ٣٨٠ ألف موظف موزعين في أكثر من ١٧٠ دولة، ٧٠ ٪ على الأقل منهم يعملون خارج الولايات المتحدة، بينما أكبر عدد من العاملين لديها في الهند، وفاز خمسة من موظفيها بجائزة نوبل في الفيزياء، وتعتبر (أي بي إم) واحدة من الثلاثين شركة التي يضمها [مؤشر داو جونز الصناعي - Dow Jones Industrial

Average]، اشتهرت الشركة إعلاميًّا واستثماريًّا في بداية الثمانينات بتعبير [بيج بلو – Big Blue]، وترجع تلك التسمية نتيجة للأداء العالي لأسهم الشركة حيث يطلق على أسهم الشركات الكبيرة، والراسخة ذات الأداء المالي المتميز لسنوات عديدة [أسهم بلو شيب – Blue-Chip Stocks]، ومنها اشتقت تسمية (بيج بلو).

أرادت الشركة عام ١٩٨٩ انتقاء اسم للحاسوب العملاق الذي يطوره فريق العمل بالشركة، والقائم على تطوير الحاسوب [ديب ثووت – Deep Thought]، لمْ يكنْ هناك أفضل من أن يُطلق عليه [ديب بلو – Deep Blue]، وكان ذلك هو [الحاسوب العملاق – Supercomputer] الذي ابتكرته شركة (أي بي إم) لينافس بطل العالم في الشطرنج (جاري كاسباروف) في تحدي جديد بين الإنسان، والآلة، حيث باءت كل المحاولات السابقة التي قام بها المطورين، والمبرمجين بفشل آلاتهم في التغلب على سادة الشطرنج، لم يكن (ديب بلو) مشابهًا لأي جهاز آخر فقد كان حاسوبًا عملاقًا ومبتكرًا، اجتمعت فيه خبرة علماء البرمجيات، والذكاء الاصطناعي بالإضافة لأبطال اللعبة لعدة سنوات لإنتاج حاسوب يكون قادرًا للمرة الأولى في التغلب على بطل العالم الأسطوري، وصل (ديب بلو) إلى ذروة تطوره عام ١٩٩٧ حيث يستطيع القيام بتقدير ٢٠٠ مليون حركة في الثانية الواحدة، فضلًا على أنَّه يستطيع أن يبحث عمق نتائج حركات متتابعة، ومرتبطة تصل من ستة حركات إلى عشرين حركة، يعمل الحاسب على معالج ٣٢ تبلغ قيمته نصف مليون دولار ويحتضن ٥١٢ معالج مختص بالشطرنج، وتمت برمجته بلغة البرمجة الشهيرة [السي – C].

عقب نهاية المباراة الثانية في جولة المواجهة الثانية عام ١٩٩٧ والتي فاز فيها (ديب بلو)، شكك (كاسباروف) في تدخل العنصر البشري باللعب بدلًا من اللعبة المقترحة من الجهاز وهو ما يعطي أفضلية استراتيجية للحاسوب، يرى (كاسباروف) أنَّه قام بخدعة غالبًا ما تخطئها أجهزة الحاسوب، وهو ما لم يحدث مع (ديب بلو) واكتشفها، ولكن فريق العمل نفى ذلك موضحًا أنَّه قام بتعديلات على الجهاز بعد نهاية المُباراة الأولى وقبل بداية المباراة الثانية بعد اكتشاف خطأ صغير (Bug) في برمجة الحاسوب، ورفضت (أي بي إم) طلب (كاسباروف) بالكشف عن تقرير تحديثات الحاسوب في تلك الفترة، بالرغم من أن (أي بي إم) نشرت لاحقًا هذا التقرير، في ٥ سبتمبر عام ٢٠٠٣ قدم مخرج الأفلام الوثائقية [فيكرام جايانتي - Vikram Jayanti] الفيلم الوثائقي: [انتهت اللعبة كاسباروف، والآلة: Game Over Kasparov and the Machine] وهو إنتاج كندي بريطاني مشترك يوثق في ٩٠ دقيقة مواجهات (كاسباروف) مع الحاسوب (ديب بلو).

هاجمت بعض التقارير الفيلم متهمة إيَّاه بالانحياز نحو وجهة نظر (كاسباروف)، ورشح الفيلم لنيل جائزة (الرابطة الدولية للأفلام الوثائقية) عام ٢٠٠٣ في مدينة (لوس أنجلوس)، وقبل ذلك بعام نشر قائد فريق تصميم (ديب بلو) كتابه: «ما وراء ديب بلو - Behind Deep Blue» يحكي فيه المراحل المختلفة في تصنيع، وتطوير (ديب بلو)، يقول (شو) في كتابه: «عندما استسلم (كاسباروف) في نهاية المباراة الأخيرة، شعرت فجأة بالتعب، لقد انتهى جهد ١٢ عامًا، كان مفترضًا أن أكون أكثرهم ابتهاجًا، ولكني شعرت بالفراغ من الداخل، بدت اللعبة سهلة، ولكنَّها لم تكن كذلك، من دون جهدنا الشاق المتواصل خلال العام السابق ربما كان سيفوز (كاسباروف) في المواجهة مرة أخرى، لقد شعرت أيضًا بأن جزء مني قد سُرق، أنا لست لاعب شطرنج، ولكن لاعب الشطرنج بداخلي كان محبطًا بالتأكيد، لقد أردت أن تكون المباراة الأخيرة نضال حقيقي، إمَّا أن أفوز مثلما كان الموقف في المباراة الثانية دون الخطأ الأخير، وإذا كان محتمًا عليَّ أن أخسر، فلتكن خسارة غير سهلة مثلما خسرت المباراة الأولى».

يرى (برودي) أحد أعضاء فريق العمل أنَّه بالرغم من جميع الاختبارات التي يتعرض لها الحاسوب أثناء التجارب، إلا أن التجربة الحقيقة النهائية كانت تلك التي أقيمت في مواجهة (كاسباروف)، وأذاعها على الهواء مباشرة موقع شركة (أي بي إم)، ويعتقد (برودي) أنَّه لا يوجد من يستطيع أن يؤدي بمهارة أفضل من البطل الخارق (كاسباروف)، وبالرغم من استجابة (كاسباروف) المنتصر في مواجهة ١٩٩٦ على إقامة مباراة تالية في العام التالي، إلا أن فريق (أي بي إم) رفض طلب (كاسباروف) بإقامة مواجهة ثالثة حيث أن الهدف من تصنيع الآلة قد تحقق بالفعل، يرى (كامبل) أحد أعضاء الفريق في حوار مع مجلة (Scientific American) عام ٢٠١٧ بأن رفض إقامة مواجهة جديدة كان نابعًا من أن فريق العمل قد قام بعمل كل التحديثات، والتحسينات الممكنة، وقد تمَّ تحقيق الهدف المنشود بإثبات قدرة جهاز الكمبيوتر على هزيمة بطل العالم الشطرنج، وأن الوقت بذلك قد حان للانتقال إلى مجالات بحث مهمة أخرى، ولا جدوى من إقامة مواجهة ثالثة.

لعبة الشطرنج هي لعبة معقدة جدًا وتحتاج إلى كثير من التحليلات، والاحتمالات الخاصة بتنفيذ خططك وكشف خطط المنافس، وكيفية التعامل مع كلا التفكيرين في ذات الوقت، وبالتالي التعديل المتكرر للتكتيك المتبع بما يتلاءم مع تحركات المنافس، وهذا يتم تقريبًا عقب كل حركة يتم القيام بها، لذلك فالأمر يستلزم دراسة ذهنية لكثير من الخطوات الرياضية المنطقية، والمتسلسلة اللازمة للفوز، وتلك الخوارزميات تتشابه كثيرًا مع سلوكيات وخصائص [الذكاء الاصطناعي - Artificial intelligence] الذي تتسم به البرامج

الحاسوبية التي تجعلها تحاكي القدرات الذهنية البشرية، وأنماط عملها حيث التعلم والاستنتاج ورد الفعل.

لذلك لمْ يكنْ هناك أفضل من لعبة الشطرنج التي تستطيع أن تقيس من خلالها قدرة الذكاء الاصطناعي وتطوره في مجال برمجيات الحاسوب، ولهذا السبب حصدت تلك المنافسة الحامية بين (ديب بلو)، وبطل العالم (كاسباروف) على أكبر اهتمام عالمي في عالم الشطرنج، وأحدثت جدلًا فلسفيًّا كبيرًا في العلاقة بين الإنسان والآلة، وقدرة أي منهما في السيطرة على الآخر، وقد شهدت العقود الأخيرة تطورات ضخمة في مجال الذكاء الاصطناعي ساعدت البشرية، وطورتها في مجالات متعددة منها الصناعة والفضاء والطب والطاقة والاتصالات والنقل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ووترجيت.. شريط لاصق، ودفتر هاتف، ونهاية رئيس

كان المانشيت الرئيسي لصحيفتي (الواشنطن بوست)، و (نيويورك تايمز) الأمريكيتين الصادرتين صباح الجمعة ٩ أغسطس ١٩٧٤ مُكوّن من كلمتين فقط [نيكسون يستقيل – Nixon Resigns]، وبذلك أصبح الرئيس الأمريكي السابع والثلاثون (ريتشارد نيكسون) أول رئيس أمريكي في تاريخ الولايات المتحدة يقدم على تقديم استقالته من منصب الرئيس.

«أتعهد لكم الليلة، كما سأتعهد لكم غدًا وفي المستقبل، بأن أبذل أقصى جهودي في التعاون والقيادة والتفاني فيما هو جيد لأمريكا، وخير للعالم».

هذا هو أول ما صرح به [جيرالد فورد - Gerald Ford] نائب الرئيس مساء الخميس ٨ أغسطس ١٩٧٤ عقب إعلان الرئيس (نيكسون) استقالته وتعينه خلفًا له، لمْ يكنْ (جيرالد فورد) يسع أبدًا إلى الحصول على أعلى منصب في الولايات المتحدة، بل وأعلن مسبقًا عن عدم نيته للترشح للمنصب عقب انتهاء ولاية (نيكسون)، ولكن من خلال حفل خاص في البيت الأبيض مساء يوم ٩ أغسطس سيؤدي نائب الرئيس القسم الدستوري ليصبح الرئيس الثامن والثلاثون للولايات المتحدة، والرئيس الأول في تاريخ أمريكا الذي لمْ يتمْ انتخابه من قِبل الشعب الأمريكي.

لمْ يكنْ (فورد) مرشحًا يومًا ما كنائب للرئيس مع(نيكسون) لا في الانتخابات الرئاسية الأولى للرئيس (نيكسون) التي جرت عام ١٩٦٨، ولا في الانتخابات الرئاسية الثانية التي جرت عام ١٩٧٢، حيث ترشح نيكسون في كليهما، وفاز بهما هو كرئيس للبلاد ومعه ترشح السيناتور [سبيرو أجنيو- Spiro Agnew] حاكم ولاية [ميريلاند – Maryland] كنائب للرئيس، ولكن أُجبر (أجنيو) على الاستقالة في ١٠ أكتوبر ١٩٧٣ نتيجة اتهامات بالفساد والرشوة والتهرب الضريبي، عُيّن على أثرها في ٦ ديسمبر ١٩٧٣ زعيم الجمهوريين في مجلس النواب (جيرالد فورد) نائبًا للرئيس، في ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣ وقتما كان اسم (فورد) لا يزال قيد النظر أمام الكونجرس كمرشح محتمل للمنصب، سأله أحد المراسلين العائدين معه من ولاية [أوهايو – Ohio] بالطائرة عمَّا إذا كان يريد أن يكون الرئيس القادم للولايات المتحدة، فأجابه (فورد) بأنَّه بالفعل لا يفضل ذلك، بل وليست لديه أي لهفة حتى ليكون نائبًا للرئيس، مؤكدًا أنَّه أوضح للبيت الأبيض أنَّه إذا كانت تلك إرادة الرئيس بأن يصبح نائبًا له فإنَّه سوف يقبل هذا التكليف مباشرة، وسيبذل قصارى جهده لأداء المهام المطلوبة منه.

وبالفعل عُيّن رسميًا نائبًا للرئيس (نيكسون) في ٦ ديسمبر ١٩٧٣ وحتى ٩ أغسطس ١٩٧٤، حيث أصبح في ذلك اليوم الرئيس الثامن والثلاثون للولايات

المتحدة، مساء الخميس ٨ أغسطس ١٩٧٤ عقب استقالة (نيكسون) أثنى (فورد) في نفس خطابه المتلفز وغير المكتوب على الرئيس المستقيل مؤكدًا أنَّه رجل عظيم قدم واحدة من أعظم التضحيات الشخصية للبلاد، وأحد أفضل القرارات الشخصية نيابة عن الجميع، كما أكد على استمراره في نفس السياسية الخارجية التي كان يتبعها (نيكسون)، كما أنه سيبقى على وزير الخارجية [هنري كيسنجر - Henry Kissinger] في منصبه.

على مساحة ١٠ فدادين يقع مجمع [ووترجيت – Watergate] في حي [فوجي بوتوم - Foggy Bottom] بالعاصمة الأمريكية [واشنطن دي سي –Washington D.C.]، المجمع يجاور مركز (جون كينيدي) للفنون المسرحية، ويتكون من ستة مباني منهم ثلاثة مباني سكنية، ومبنيين عبارة عن مكاتب إداريَّة، ومبنى مخصص كفندق خمس نجوم يحمل نفس اسم المجمع، أنشأ المجمع في الفترة من ١٩٦٣ وحتى ١٩٧١، منذ افتتاحه والمجمع يعتبر قبلة للراغبين في سكن ذو مستوى متميز، كما أصبح واحدًا من أكثر المناطق المعيشية المرغوبة في واشنطن، وأكثرها شعبية لدى أعضاء الكونجرس والسياسيين.

بدا مساء يوم ١٧ يونيو ١٩٧٢ بالنسبة للحارس [فرانك ويلز- Frank Wills] موظف الأمن المعني بالمبنى الإداري لمجمع (ووترجيت) مساءً عاديًّا يشبه ليالي عمله السابقة حيث كان (ويلز – ٢٤ عاما) مكلفًا بمتابعة الحالة الأمنية لبعض الشقق والمكاتب الراقية لمبنى (ووترجيت)، بما في ذلك المقر الرئيسي للجنة الوطنية الديمقراطية (- Democratic National Committee DNC): وهي الهيئة الرسمية الحاكمة للحزب الديمقراطي الأمريكي، لاحظ (ويلز) قرابة الثانية صباحًا أثناء دوريته على المكاتب وجود شريط لاصق على مزلاج أحد الأبواب الواصلة بين موقف سيارات الفندق، ودَرَجْ المبنى بحيث يمنع إغلاق الباب كليًّا، وهو أمر قد يلجأ إليه عمال النظافة لتسهيل حركة مرورهم أثناء عملية التنظيف، نزع (ويلز) الشريط اللاصق حيث انتهى عمال النظافة من أداء عملهم قبل عدة ساعات، وأحكم إغلاق الباب، ليذهب بعدها لأحد المطاعم القريبة ليتناول وجبة سريعة، وبعد نصف ساعة عاد مرة أخرى لاستئناف عمله، فوجئ (ويلز) بوجود شريط لاصق جديد على مزلاج نفس الباب، أصيب بالذعر حيث شعر أن هناك أحدًا قريبًا منه في هذا المبنى الخالي من الناس، فانطلق سريعًا إلى بهو المبنى ليتصل بشرطة المدينة، فقد كانت تلك هي التعليمات في حالة الشعور بأي محاولة للسطو، خلال دقائق حضرت قوة من الشرطة قوامها ثلاثة أفراد بقيادة الرقيب [بول ليبر - Paul Leper] حيث اصطحبهم (ويلز) إلى الباب ذو الشريط اللاصق، قام أفراد الشرطة فور وصولهم بتعطيل المصاعد وغلق الأبواب، حيث شرعوا في فحص مكاتب المبنى واحدًا تلو الآخر، وطابقًا تلو الآخر، ولاحظت قوة

الشرطة أن أمر الشريط اللاصق قد تكرر في كل طابق بحيث يمنع إغلاق الباب بين مكاتب الطابق والدرج، حتي وصلت القوة إلى مقر اللجنة الوطنية الديمقراطية الذي يحتل كامل الطابق السادس ويضم ٢٩ مكتبًا ويعمل فيه قرابة ٧٠ شخصًا.

لاحظت القوة أن باب المقر غير محكم الإغلاق، دخل أحد أفراد الشرطة موجهًا سلاحه لأحد المكاتب صائحًا: «ارفع يدك» توقع الشرطي أن يجد فقط يدين مرفوعتين، ولكنه فوجئ بعشرة أيدي لخمس أشخاص ترتفع من خلف المكتب، بهدوء خرج الخمسة أشخاص من خلف المكتب رافعين أيديهم حيث كانوا يرتدون ملابس أنيقة غير معتادة على محترفي السطو، كان الخمسة المقبوض عليهم يحملون أدوات سطو وكاميرات وأجهزة تنصت إلكترونية، وجهاز اتصال واستقبال [ووكي توكي - Walkie-Talkie]، وبتفتيشهم عثر معهم على مبالغ تصل إلى ستة آلاف دولار، أكثر من نصفهم تحمل أرقام متسلسلة من فئة المائة دولار، بهدوء طلب أحدهم من (ويلز) كوب من الماء، ثمَّ قام أفراد الشرطة باقتيادهم للخارج بينما عاد الشاب الأسمر لمباشرة عمله غير مدرك أنهَّ اكتشف أكبر فضيحة سياسية في تاريخ أمريكا، فضيحة مدوية ستطيح بأكبر رأس في البلاد.. برئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

شغل [روبرت ماكنمارا - Robert McNamara] منصب وزير الدفاع الأمريكي في الفترة من ١٩٦١ إلى ١٩٦٨ في عهد الرئيسين (جون كينيدي) و (ليندون جونسون)، شكَّل (ماكنمارا) في ١٧ يونيو ١٩٧٦ فرقة عمل خاصة من القادة العسكريين والمدنيين والمحللين العسكريين، تعمل على دراسة وتوثيق حرب (فيتنام)، وكان الغرض هو كتابة ما يعرف باسم: «التاريخ الموسوعي لحرب فيتنام»، حيث ادعى (ماكنمارا) أنَّه يريد ترك سجل مكتوب للمحللين تتفادى فيه الإدارات المستقبلية الوقوع في أخطاء سياسية أثناء الحروب على غرار حرب فيتنام، ولكن الدراسة كانت تختص أكثر بعملية صناعة القرار من جانب الحكومة الأمريكية بما يخص ما حدث في حرب فيتنام تحديدًا التي تعامل معها ثلاثة رؤساء، تمَّ الانتهاء من إعداد تلك الدراسة في ١٥ يناير ١٩٦٩، بعد عام من ترك (ماكنمارا) مسؤولية وزارة الدفاع وتولي [كلارك كليفورد - Clark Clifford] إدارتها كوزير للدفاع في إدارة (نيكسون)، صُنفت الدراسة الذي لم يَطلع عليها (كليفورد) ب «سري للغاية» وكانت تتكون من ٤٧ جزء عبارة عن ثلاثة آلاف صفحة من التحليل التاريخي وأربعة آلاف صفحة من الوثائق الداعمة، اشترك المحلل العسكري [دانييل إليسبيرج - Daniel Ellsberg] في العمل على جزء من هذه الدراسة لعدة أشهر عام ١٩٦٧.

حصل (إليسبيرج) على تصريح بالاطلاع على الدراسة لاحقًا بعد الانتهاء منها مستغلًا عمله في مؤسسة الأبحاث والتطوير المعروفة باسم: «مؤسسة راند

– RAND Corporation»، حيث نجح في أكتوبر ١٩٦٩ في تصوير أوراق الدراسة بغرض فضح التورط السياسي والعسكري الأمريكي وتزييف الوقائع والأحداث التي اقترفتها الإدارة الأمريكية خلال الحروب في الفترة من ١٩٥٤ وحتى ١٩٦٧، حيث لمْ يكنْ يُدرك الشعب الأمريكي حتى ذلك الوقت حقيقة ما كان يجري في فيتنام، نجح (إليسبيرج) في إقناع [نيل شيهان - Neil Sheehan] الصحفي بجريدة [النيويورك تايمز - The New York Times] بنشر الدراسة بعدما أمده ب ٤٣ جزء منها، بدأت الجريدة في نشر مقتطفات من الدراسة اعتبارًا من ١٣ يونيو ١٩٧١ تحت عنوان: «أرشيف فيتنام: دراسة البنتاجون لآثار ثلاثة عقود من التورط المتنامي للولايات المتحدة»، وعرفت هذه العملية إعلاميًّا باسم: «وثائق البنتاجون – Pentagon Papers».

لم ينوي الرئيس (نيكسون) فعل شيء حيال نشر الوثائق السرية باعتبارها إرث يخص رئيسين سابقين هما (كينيدي)، و (جونسون)، ولكن مستشار الأمن القومي حينها الداهية (هنري كيسنجر) نصحه أن المخاطرة بعدم انتقاد، ومواجهة تلك التسريبات سوف تكون سابقة من الممكن أن تليها تسريبات لاحقة تخص آخرين وقد يكون هو أحدهم، عندما رفضت صحيفة (نيويورك تايمز) وقف النشر طواعية، نجحت حكومة نيكسون بالتعاون مع المدعي العام (جون ميتشل) الذي عين لاحقًا رئيس لجنة إعادة انتخاب الرئيس بالحصول على أمر قضائي بوقف النشر، ولكن بعدما نجحت الصحيفة في نشر ثلاث حلقات من الدراسة، ونتيجة لذلك بدأت صحيفة أخرى وهي (واشنطن بوست) في استكمال نشر الوثائق في ١٨ يونيو ١٩٧١ بعدما مد (إليسبرج) مراسلها [بن باجديكيان - Ben Bagdikian] بعدة أجزاء منها، وعندما تقدمت الحكومة بدعوى جديدة لوقف النشر في صحيفة (واشنطن بوست)، بدأت قرابة ١٥ صحيفة أخرى في النشر وأصبح الأمر خارج السيطرة، احتلت (وثائق البنتاجون) التي نشرتها صحيفة (نيويورك تايمز) المركز الثالث عشر في قائمة أفضل ١٠٠ عمل صحفي أمريكي في القرن العشرين، والذي أعلن في مارس ١٩٩٩، والتي قام بإعدادها العديد من اباطرة الصحافة بالتعاون مع كلية الصحافة بجامعة نيويورك.

في ٢٤ يوليو عام ١٩٧١ أنشأ البيت الأبيض وحدة تحقيق خاصة، وسريَّة عرفت لاحقًا باسم: «سباكي البيت الأبيض - White House Plumbers» كانت مهمتها تجنب تسريب أي معلومات مصنفة بالسرية بعد ما حدث في (وثائق البنتاجون)، وكانت أول مهامها اقتحام مكتب الطبيب النفسي الخاص بالمحلل العسكري (دانييل إليسبيرج) الذي قام بتسريب وثائق البنتاجون للصحافة، كانت تتكون الوحدة من أشخاص عدة منهم موظف وكالة المخابرات المركزية السابق [هوارد هنت - Howard Hunt]، و عميل مكتب التحقيقات الفيدرالي السابق [جوردون ليدي - Gordon Liddy]، وعميل الجيش الأمريكي

في كوبا [فرانك ستورجيس - Frank Sturgis]، بهدف الحصول على أدلة تدين (إليسبرج).

صرح المتحدث باسم اللجنة الوطنية الديمقراطية بعد حادث السطو على المقر في (ووترجيت) بأن السجلات التي يتم الاحتفاظ بها في المقر ليست على درجة كبيرة من السرية على الرغم من وجود سجلات مالية، ومعلومات أخرى من هذا القبيل قد تحمل بعض الأهمية، كان الخمسة المقبوض عليهم بتهمة السطو على مقر اللجنة الوطنية الديمقراطية هم [بيرنارد باركر - Bernard Barker]، و[فيرجيلو جونزاليز - Virgilio Gonzalez]، و[ايوجينو مارتينز - Eugenio Martinez] و[جيمس ماكورد - James W. McCord]، و(فرانك ستوريجس)، في البداية بدت عملية السطو، وكأنَّها عملية سرقة، وليست عملية تنصت على القيادات في الحزب الديمقراطي وتجسس على الهواتف، ومنها هاتف رئيس الحزب من خلال ميكرفونات يتمْ زرعها في الهواتف، وفي أماكن مختلفة داخل المقر، كان هناك أمر واحد في البداية أثار انتباه المحققين، حيث لاحظ أحدهم، وهو يقوم بتفتيش متعلقات المشتبه به (باركر) بوجود اسم (هـ هـ - HH) يعلوه حرفي (WH) وبجواره رقم هاتف، ووجد نفس رقم الهاتف في دفتر هواتف (مارتينز) وبجواره «(Howard Hunt W-House)».

وبمتابعة سريعة تبين أن رقم الهاتف يخص بالفعل البيت الأبيض، لمْ يكنْ لدى الرأي العام أي رابط بين عملية السطو والتنصت واحتمالية تورط البيت الأبيض، حتى أشارت وكالة (الأسوشيتد برس) في تقرير لها صباح اليوم التالي للقبض على المتهمين الخمسة وتحديدًا يوم ١٨ يونيو ١٩٧٢ بأنَّ أحد المتهمين الخمسة وهو (ماكورد) يعمل في [لجنة إعادة انتخاب الرئيس - Committee to Re-elect the President (CRP)] كمنسق أمني، وهو ما نشرته صحيفة (الواشنطن بوست) في صفحتها الأولى في اليوم التالي، سرعان ما نفى رئيس اللجنة، والمدعي العام السابق (جون ميتشيل) تلك الادعاءات، مصرحًا بأنَّه لا يوجد مكان في حملته أو في العملية الانتخابية لمثل هذه النوعية من الأنشطة، وكانت تلك أول كذبة من سلسلة من الأكاذيب التي سيرتكبها رجال (نيكسون) داخل البيت الأبيض.

في اليوم التالي لحادث السطو على مقر اللجنة الوطنية الديمقراطية بمجمع (ووترجيت) الأحد ١٨ يونيو ١٩٧٢، نشر الصحفي [ألفريد لويس - Alfred E. Lewis] أول خبر عن واقعة السطو على المقر في أسفل الصفحة الأولى لجريدة (واشنطن بوست)، شارك (لويس) في إعداد الخبر ثمانية صحفيين شبان كان بينهم الصحفيين المبتدئين [بوب وودوارد - Bob Woodward]، و [كارل بيرنستين - Carl Bernstein] الذين جذب الموضوع اهتمامهما، وفي

اليوم التالي كشفا عن أول خيط في القضية، وهو علاقة (جيمس ماكورد) أحد المقبوض عليهم بلجنة إعادة انتخاب الرئيس، ووجود اسمه في كشوف المصروفات باعتباره المنسق الأمني لها، في غضون بضعة أسابيع نشر (وودوارد)، و(بيرنستين) خبرا عن سعي هيئة المحلفين الكبرى في القضية لشهادة رجلين كانا يعملان في البيت الأبيض مع الرئيس (نيكسون) هما (ليدي) و(هانت)، ولاحقا سيُوجه الاتهام إلى كلا الرجلين لتوجيههم المتلبسين الخمسة عبر أجهزة اللاسلكي من داخل إحدى غرف الفندق.

علم (بيرنستين) أنَّه تمَّ إيداع شيك بقيمة ٢٥,٠٠٠ دولار من حملة إعادة انتخاب نيكسون في الحساب المصرفي لأحد المقبوض عليهم، ومنها كتبا الصحفيين تحقيقًا في ١ أغسطس ١٩٧٢ بعنوان: «مشتبه به رئيسي يحصل على أموال من حملة الرئيس - Bug Suspect Got Campaign Funds»، منذ بدأ التحقيقات نجح (وودوارد) في الحصول على مصدر هام وسري له إطلاع على ملفات مكتب التحقيق الفيدرالي: «FBI» في هذه القضية، ويستطيع هذا المصدر أيضًا أن يؤكد، أو ينفي له صحة ما تقوله المصادر الأخرى، وماهية الأمور التي يحب تتبعها والتحرك خلفها، وافق (وودوارد) على أن تكون هويَّة المصدر سرية، وبدأ في الإشارة له فقط باسم [صديقي – My Friend] ثمَّ استخدم الاسم الحركي [الحنجرة العميقة – Deep Throat] لاحقًا.

بدأ الصحفيان في الكشف عن الأدوار السرية التي كان يقوم بها (جون ميتشيل) المدعي العام السابق، ورئيس لجنة إعادة انتخاب الرئيس في دعم عمليات التجسس على الحزب الديمقراطي، وفي ١٠ أكتوبر ٢٠١٧ نشر الصحفيين تحقيقًا في صدر الصفحة الأولى لجريدة (واشنطن بوست) حول اكتشاف المباحث الفيدرالية تورط مساعدي (نيكسون) في السطو على الحزب الديمقراطي: «FBI Finds Nixon Aides Sabotaged Democrats»، كانت المتابعة الصحفية الجادة التي قدمتها صحيفة (واشنطن بوست) من خلال التقارير التي كان يعدها كل من (بوب وودوارد) و(كارل بيرنستين) ودعم رئيس التحرير [بن برادلي - Ben Bradlee] لها أكبر الأثر في عدم اندثار القضية. حيث تابعت الصحيفة النشر في الوقت الذي تجاهلت فيه الصحف الأخرى القضية، واهتمت بفوز (نيكسون) بفترة رئاسية ثانية، وبأغلبية ساحقة في نوفمبر ١٩٧٢، استمر البيت الأبيض في إدانة تغطية الجريدة باعتبارها منحازة، ومضللة الأمر الذي جعل ناشرة الصحيفة [كاثرين جراهام - Katharine Graham] تشعر بالقلق، والخوف من تهديدات، ومضايقات الرئاسة، كانت دقة المعلومات المنشورة في تقارير الصحيفة، والتي تبدو وكأنَّها نقلت حرفيًّا من ملفات التحقيقات مثار اندهاش، وتساؤل محققي مكتب التحقيقات الفيدرالي، وعندما صدر كتاب: «وودوارد» و «بيرنستين» الذي حمل عنوان: «كل رجال الرئيس -All the President’s Men » في يونيو

١٩٧٤، كانت التساؤلات والاجتهادات تدور حول شخصية (الحنجرة العميقة) التي ظلت مجهولة لمدة ٣٣ سنة حتى قرر صاحبها الكشف عن شخصيته عام ٢٠٠٥، إنَّه [مارك فيلت – Mark Felt] المدير المساعد لمكتب التحقيقات الفيدرالي، والرجل رقم اثنين بالمكتب، كان المحقق الرئيسي في القضية [تشارلز نوزوم- Charles Nuzum] يرفع نتائج التحقيقات لرئيس قسم التحقيقات، والذي بدوره يرفعها إلى المدير المساعد للمكتب (فيلت)، لذلك كان (فيلت) منذ اليوم الأول على علم بسير التحقيقات وهو الذي أطلع (وودوارد) بعد يومين من بداية الواقعة عن ارتباط (هانت) بالقضية بعدما اكتشفت حروف اسمه الأولى ورقم تليفون البيت الأبيض بجواره في دفتر هاتف اثنين من المقبوض عليهم.

كان (وودوارد) يحرك مكان وعاء الزرع وبه علم أحمر في شرفة منزله عندما كان يريد مقابلة (فيلت)، بينما في أحوال نادرة عندما كان (فيلت) يريد مقابلته، كان يضع دائرة على رقم ٢٠ في الصفحة العشرون من صحيفة (نيويورك تايمز) التي كانت تسلم يوميًا خارج منزل (وودوارد)، وعلى الدائرة يرسم عقرب يشير لتوقيت المقابلة، كانت الشكوك حول تسريب التحقيقات إلى صحفيي (واشنطن بوست) تنتقل من شخص لآخر، حتى الرئيس (نيكسون) علم أن الشكوك تدور حول أن (فيلت) هو الذي يسرب تفاصيل تحقيقات القضية للصحفيين، فبعد مرور أربعة شهور على حادثة السطو، وفي ١٩ أكتوبر ١٩٧٢ أخبر كبير موظفي البيت الأبيض [هاري هالدمان - Harry R. Haldeman] الرئيس (نيكسون) في حوار مسجل أن مصدر سري علم أن (فيلت) هو مصدر التسريبات، ولكنَّه لمْ يستطعْ أن يفعل شيئًا حيال ذلك حيث أفاد (دين) المستشار القانوني للرئيس بأنَّه لا تجوز مقاضاته!

تحت شعار [نيكسون الوحيد – Nixon’s the One] خاض (نيكسون) الانتخابات الرئاسية التي جرت في ٧ نوفمبر ١٩٧٢ لفترة رئاسة ثانية، وفاز بأغلبية ساحقة هي الأعلى في تاريخ الانتخابات الرئاسية الأمريكية، حيث فاز بالأغلبية في ٤٩ ولاية وبعدد ٥١٠ نقطة في المجمع الانتخابي، وبنسبة ٦٠.٧ ٪ من إجمالي الأصوات الانتخابية، في حين حصل منافسه الديمقراطي السيناتور [جورج ماكجفرن - George McGovern] على عدد ١٧ نقطة فقط من أصوات المجمع الانتخابي جمعهم من ولاية (ماساتشوستس) ومدينة (واشنطن) العاصمة وبنسبة ٣٧.٥ ٪ من إجمالي الأصوات الانتخابية، في تلك الأثناء لمْ يكنْ قد مر أكثر من ٥ شهور على واقعة القبض على الأفراد الخمسة المتهمين باقتحام مقر اللجنة الوطنية الديمقراطية في (ووترجيت)، حيث لمْ يكنْ لها تأثير يذكر في حملة الرئيس الأمريكي الانتخابية لعدم التيقن من وجود رابط مباشر بين الرئيس، وكبار مساعديه والتخطيط للعملية، فقد التزم المقبوض عليهم الصمت لفترة طويلة من الوقت أجلت الكشف عن

علاقة البيت الأبيض بالجريمة، وكذلك لم يبد البيت الأبيض أي اهتمام بالحادثة حيث صنفها [رونالد زيجلر - Ronald L. Ziegler] السكرتير الصحفي للبيت الأبيض في اليوم التالي لارتكابها بأنَّها «عملية سطو من الدرجة الثالثة - A Third-Rate Burglary» لا تستحق التعليق، وذلك للتقليل من شأنها، نافيًا أي علاقة للبيت الأبيض بها.

وهو نفس الأمر الذي أكده الرئيس الأمريكي في مؤتمر صحفي بعد ذلك بخمسة أيام، على أرض الواقع لم يكن هذا الشأن حقيقيًا حيث كشفت التحقيقات أنه في يوم ٢٠ يونيو ١٩٧٢ بعد ثلاثة أيام من الحادثة تحدث رئيس لجنة إعادة انتخاب الرئيس (ميتشيل) مع الرئيس معتذرًا عن هذا الأمر الذي يعتبره خطأ كان يحتاج ممارسة سيطرة أكثر صرامة على أعمال اللجنة، وبعد مرور ستة أيام على الواقعة علم الرئيس من كبير موظفي البيت الأبيض [هالدمان – Haldeman] أن مكتب التحقيق الفيدرالي يتعقب مصدر الأموال التي وجدت مع المتهمين الخمسة، طلب (نيكسون) من (هالدمان) وقف تحقيقات المباحث الفيدرالية من خلال تدخل وكالة المخابرات الأمريكية، وبالفعل طُلب من نائب رئيس وكالة المخابرات الأمريكية [فيرنون والترز - Vernon Walters] أن يطلب من رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي [باتريك جراي - Patrick Gray] التوقف عن المضي قدمًا في القضية حيث أن تعقب غسيل الأموال في القضية قد يعرض أصول وكالة المخابرات المركزية في المكسيك للخطر، لم يكن (والترز) مقتنعًا بهذا الخطر، ولكنَّه تحدث مع (جراي) بهذا الشأن وبقناعته أيضًا، كانت الأمور في التحقيقات تسير بهدوء حيث قررت هيئة المحلفين الفيدرالية في منتصف سبتمبر ١٩٧٢ توجيه الاتهام ل ٧ أشخاص رئيسيين هم الخمسة المقبوض عليه بالإضافة إلى كل من (هوارد هانت) عضو لجنة إعادة انتخاب الرئيس، و المستشار المالي للجنة، والعقل المدبر للعملية [جوردون ليدي - Gordon Liddy] الذي كان يشرف مع (هانت) على عملية السطو من أحد الغرف المجاورة بفندق (ووترجيت)، وهي نتيجة كانت مريحة للرئيس الأمريكي حيث أثنى تلك الليلة في اجتماع خاص على مهارة المحامي الشاب [جون دين - John W. Dean] المستشار القانوني للبيت الأبيض، حيث تفادت مهارته تعكير صفو حملته الانتخابية التي باتت على وشك الانتهاء، لذلك بدأت الانتخابات في ٧ نوفمبر ١٩٧٢ ولم يكن فيها لقضية (ووترجيت) أي تأثير يذكر.

لمْ يكنْ فوز (نيكسون) الساحق في تلك الانتخابات الرئاسية يعود إلى الحزب الجمهوري الذي ينتمي إليه الرئيس بقدر ما كان يعود لشخص (نيكسون) نفسه نتيجة سياسته المتشددة في حرب فيتنام قبيل انتهاء فترة ولايته الأولى، حيث استطاع أن يجبر الحكومة الشيوعية في فيتنام الشمالية بعد قصف جوي عنيف على قبول اتفاق لإنهاء الحرب في فيتنام، وانسحاب

القوات الأمريكية، وعودة الأسري الأمريكيين، الأمر الذي تم في نهاية المطاف في (باريس) فيما عرف باسم: «اتفاقية باريس للسلام - Paris Peace Accords» في ٢٧ يناير ١٩٧٣، ولكن في ١١ يناير ١٩٧٣ وقبل أيام من حفل إعادة تصيب (نيكسون) لفترة رئاسة ثانية، أقر (هانت) أمام المحكمة الفيدرالية بتهم التنصت غير القانوني والسطو والتآمر، وبعد أربعة أيام اعترف كل من (باركر)، و(مارتينيز)، و(ستورجيس)، و(جونزاليس) بنفس التهم الموجهة لهم.

في حين تمت إدانة كل من (ماكورد) و (ليدي) مع نهاية شهر يناير ١٩٧٣، انطلقت أول قنبلة مؤثرة في قضية (ووترجيت) في ٢٣ مارس ١٩٧٣ عندما استلم قاضي المحكمة المحلية في واشنطن، وهو قاضي التحقيق في القضية [جون سيركا - John J. Sirica] رسالة من المتهم (ماكورد) يفيد فيها بأن الاعترافات التي أقرها المتهمون كانت نتيجة ضغط سياسي تمَّ ممارسته عليهم للإقرار بالذنب، والالتزام بالصمت، وهو ما يعتبر حنثًا باليمين، وبذلك بدأت القضية تأخذ منحنى جديد، كان التخوف الأكثر لدى البيت الأبيض من (هانت) نظرًا لحجم المعلومات التي يعرفها عن عمليات وحدة التحقيق السرية المعروفة باسم سباكي البيت الأبيض، وأهمها مهاجمة مكتب [د. لويس فيلدنج – Dr. Lewis Fielding] الطبيب النفسي للمحلل العسكري (إليزبيرج) صاحب تسريبات (وثائق البنتاجون)، تلك العملية السرية غير القانونية التي قامت بها الوحدة في ٣ سبتمبر ١٩٧١ بغرض الحصول على وثائق سرية من مكتب الطبيب النفسي قد تدين (إليزبرج) وهو الأمر الذي فشلت فيه الوحدة نتيجة عدم العثور على ملف «إليزبيرج»، بدأ «هانت» بالمطالبة بمزيد من الأموال مقابل صمته وهو الأمر الذي أجبر البيت الأبيض على دفع مبلغ ٧٥ ألف دولار إلى «هانت» عن طريق محاميه مقابل صمته.

كانت القنبلة الثانية في ٦ أبريل ١٩٧٣ عندما بدأ مستشار البيت الأبيض القانوني (دين) بالإدلاء بأقواله أمام النيابة العامة حول مدى علاقته بعملية التستر على واقعة (ووترجيت)، وقتها طلب (نيكسون) من (دين) تقديم استقالته ولكنَّه رفض حتى يقدمها كل من كبير موظفي البيت الأبيض (هالدمان)، ومستشار الشؤون الداخلية بالبيت الأبيض [جون ارليتشمان - John Ehrlichman]، وفي ٣٠ أبريل أعلن (نيكسون) استقالة (هالدمان) و(ارليتشمان)، وحيثيات إقالة (دين).

في فبراير ١٩٧٣ وافق مجلس الشيوخ بالأغلبية المطلقة ٧٧ صوتًا مقابل لا شيء على تشكيل لجنة تقصي حقائق للتحقيق بشأن حادثة (ووترجيت)، وكذلك كل السلوكيات غير القانونية، أو غير السليمة، أو غير الأخلاقية التي حدثت أثناء الانتخابات الرئاسية عام ١٩٧٢، بما في ذلك التجسس السياسي،

وممارسات تمويل الحملات، وترأس هذه اللجنة السيناتور الديمقراطي [سام إيرفين -Sam Ervin]، وقد أعطيت لها كل الصلاحيات لاستدعاء أي شخص تعتقد أن لديه معلومات، أو معرفة تساعد على كشف الحقيقة.

بدأ مجلس الشيوخ يوم ١٧ مايو ١٩٧٣ جلسات الاستماع المتلفزة حيث شهد (جون دين) بتفاصيل كاملة حول تورط البيت الأبيض، والرئيس في محاولة التستر على قضية (ووترجيت) بطريقة غير مشروعة، وقد تمَّ الطعن على شهادته من قبل أسماء تم ذكرها في عملية التستر مثل (ميتشل) و(هالدمان) و(إيرليشمان)، وشهود آخرين، في اليوم التالي قام (نيكسون) بتعيين وزير دفاعه، والنجم اللامع في إدارته [إليوت ريتشاردسون - Elliot Richardson] نائبًا عامًا، الذي قام بدوره بتعيين المحامي السابق، والأستاذ بجامعة هارفارد [أرشيبالد كوكس - Archibald Cox] مدعي خاص في قضية (ووترجيت)، لم يكن اختيار (كوكس) مدروسًا بشكل جيد من قبل (ريتشاردسون) طبقًا لما كان يبتغيه (نيكسون)، أو أن (ريتشاردسون) لم يدرك جيدًا غرض (نيكسون) من تعيينه، كان (ريتشاردسون) يعتقد أنَّه عين أفضل رجل في هذا المنصب حيث يقوم (كوكس) بإبعاد الرئيس عن دائرة الاتهام، وتبرئته تمامًا من علاقته بعملية (ووترجيت)، وبذلك لن يكون هناك أي تلميح تجاه (ريتشاردسون) بأنَّه تواطأ مع (نيكسون)، أو كان متعاطفًا معه.

كانت القنبلة الثالثة هي صاحبة التأثير الأكبر في تطور القضية، حيث كشف [ألكسندر باترفيلد - Alexander Butterfield] رئيس إدارة الطيران الفيدرالي السابق، ونائب مساعد الرئيس في شهادته أمام مجلس الشيوخ في ١٦ يوليو ١٩٧٣ عقب شهادة (جون دين) عن وجود نظام تسجيل داخل المكتب البيضاوي يعمل بمجرد صدور أي أصوات داخل المكتب، كانت تلك المعلومة هامة؛ لأنَّها تستطيع أن تدحض، أو تؤكد شهادة (دين) حول تورط الرئيس في التستر على عملية (ووترجيت) عند تمَّ الاستماع لتلك التسجيلات، تمَّ تركيب هذا النظام في فبراير عام ١٩٧١ بطلب من الرئيس (نيكسون) حيث رأى أن التسجيلات الصوتية هي الطريقة الوحيدة لضمان سرد كامل، وصادق للمحادثات، والقرارات الرئاسية، وكانت عملية تثبيت، ومتابعة تلك التسجيلات تتم عن طريق وكالة الخدمة السرية التابعة لوزارة الأمن الداخلي وبإشراف من (باترفيلد) حيث تمَّ وضع خمسة ميكروفونات سرية بالمكتب البيضاوي، اثنين منهما في المصباحين أعلى سطح المدفأة، واثنين في غرفة الاجتماعات، وكذلك ميكرفون في خط الهاتف.

لمْ يكنْ يعلم بأمر أنظمة التسجيل السرية بالمكتب البيضاوي إلا أشخاص محدودين جدًا وهم (باترفيلد) و(هالدمان) كبير موظفي البيت الأبيض ومساعده [لورانس هيجبي - Lawrence Higby] وثلاثة من موظفي الأمن

السري الذين قاموا بالتركيب، كانت تنتقل المحادثات إلى المسجلات لتسجيلها على أشرطة التسجيل في إحدى غرف الطابق السفلي للبيت الأبيض، احتوت الشرائط منذ تاريخ تثبيت نظام التسجيلات حتى توقف العمل به في ٩ أغسطس ١٩٧٤ على أكثر من ثلاثة آلاف ساعة، كان ما يخص قضية (ووترجيت) منها قرابة مائتي ساعة، وتم إذاعة ما نسبته ٥ ٪ فقط من تلك التسجيلات، على الفور طلب المدعي الخاص (كوكس) من قاضي التحقيق (سيريكا) الاستماع إلى تسعة أشرطة لتقييم شهادة مستشار البيت الأبيض السابق (جون دين) الذي يتهم فيها الرئيس، وأعوانه بالتستر على القضية.

رفض (نيكسون) الإفراج عن الشرائط متحصنًا بما يُسمى [الامتياز التنفيذي - Executive Privilege] الذي كفله له الدستور، هذا الامتياز يمنح الرئيس صلاحيات رفض طلبات الاستدعاء، أو المثول للتحقيق أمام الجهات القضائية، وذلك للحفاظ على سرية الاتصالات في ظل ظروف معينة داخل السلطة التنفيذية، ولحماية سرية المعلومات الحربية، والديبلوماسية التي تقتضيها المصلحة القومية، اعتبر (نيسكون) هذا الامتياز يمتد أيضًا للاستماع إلى أشرطه تسجيلاته، كما أن الرفض ينبع دستوريًّا أيضًا من نظام التوازنات بين السلطات، والفصل بينها الذي كفله الدستور، ونتيجة لذلك عرضت لجنة تقصي الحقائق الأمر على المحكمة المحلية في واشنطن.

حيث أصدر القاضي (سيريكا) حكمًا بأنَّ يقوم الرئيس بتسليمه تلك الأشرطة لدراستها بنفسه لتقييمها، الأمر الذي قوبل باحتجاج من الرئيس حيث قدمَّ البيت الأبيض نقضًا في محكمة الاستئناف التي بدورها رفضت النقض وقررت في ١٢ أكتوبر ١٩٧٣ تأييد حكم القاضي (سيريكا) بالاطلاع على الأشرطة، يوم الجمعة ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ قدم الرئيس حل وسط بأن يقوم السيناتور الديمقراطي [جون ستينيس - John. C. Stennis] بمراجعة الأشرطة، وتلخيصها من أجل الدقة ورفع النتائج التي توصل إليها مباشرة إلى مكتب المدعي الخاص، في مقابل ذلك يتعهد المدعي الخاص (كوكس) كجزء من الصفقة المقترحة عدم قيامه بالبحث عن أي شرائط، أو وثائق رئاسية أخرى، العرض الذي أعلن (كوكس) عن رفضه له بشكل قاطع، وقد مهد ذلك الطريق لما عرف باسم: [مذبحة يوم السبت - Saturday Night Massacre].

تطورت القضية سريعًا، وأصبحت مثل كرة الثلج حيث لم يعد أحد قادرًا على إيقافها، وتقترب أكثر يومًا بعد يوم من الرئيس، ومن أحد تلك الأسباب هو التزام وجدية كل من القاضي (سيريكا)، والمدعي الخاص (كوكس)، في اليوم التالي السبت ٢٠ أكتوبر ١٩٧٣ أمر (نيكسون) المدعي العام (ريتشاردسون) إعفاء المدعي الخاص (كوكس) من منصبه، الأمر الذي رفضه (ريتشاردسون)، وتقدم باستقالته، فطُلب من نائبه [ويليام روكيلسهاوس -

[William Ruckelshaus أن يقيل (كوكس) فرفض هو الآخر هذا الأمر، وقدم استقالته، حيث تمَّ تعيين المحامي العام [روبرت بورك - Robert H. Bork] قائمًا بأعمال النائب العام الذي قام على الفور بإقالة المدعي الخاص (جون كوكس) من منصبه.

ردًا على الإقالة عقد نائب المدعي (كوكس) في المساء مؤتمرًا صحفيًّا حماسيًّا طالب فيه تقرير ما إذا كانت الدولة دولة قوانين، أم دولة أشخاص، وأوضح أن القرار الآن بيد (الكونجرس)، وفي نهاية المطاف الشعب الأمريكي، كان رد الفعل السياسي، والعلني على تصرفات (نيكسون) سلبيًا ومدمرًا له للغاية فيما سُمي بمذبحة يوم السبت، التي شهدت إقالات واستقالات مُسببة حيث تولدت ضده عاصفة نارية من الاحتجاج والاستنكار.

في بداية نوفمبر عيّن نيكسون السيناتور [وليام ساكسبي - William Saxbe] مدعي عام جديد خلفًا للقائم بأعمال المدعي العام (روبرت بورك) بعدما أدى دوره المطلوب منه بإقالة (كوكس)، وبدوره قام (ساكسبي) بتعيين أستاذ القانون [ليون جاورسكي – Leon Jaworski] مدعي خاص خلفًا للمدعي المُقال (كوكس)، ومع تصاعد الغضب وافق الرئيس على تقديم شرائط ووثائق محددة للقاضي (سيريكا)، لكن البيت الأبيض أخبر المحكمة بأنَّ اثنين من الأشرطة التسعة المستهدفة لمْ تكنْ موجودة وأن هناك فجوة غير معلومة تبلغ ١٨ دقيقة ونصف في واحدة من تلك التسجيلات التي تعود ليوم ٢٠ يونيو ١٩٧٢، بعد ثلاثة أيام من القبض على المتهمين الخمسة، كانت المدة الممسوحة تخص حوار بين (نيكسون)، وكبير موظفي البيت الأبيض وقتها (هالدمان)، أعلن البيت الأبيض أن مسح تلك المدة تمَّ عن طريق الخطأ بواسطة سكرتيرة الرئيس [روزماري وودز - Rose Mary Woods] حيث كانت تقوم بتفريغ محتوى الأشرطة يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٧٣ عندما وصلتها مكالمة هاتفية، وبدلًا من الضغط على زر الإيقاف المؤقت قامت بالضغط على زر التسجيل حيث تمَّ محو الحوار الذي تم خلال تلك الفترة، ولكن (وودز) أكدت أن تلك المدة لمْ تزيدْ عن خمسة دقائق هي مدة المكالمة الهاتفية ولا تدري شيئًا عن الثلاثة عشر دقيقة ونصف الأخرى، ويظل الحوار أثناء تلك الفترة مثار اهتمام حتى اليوم ولكنه مازال مجهولًا رغم محاولات متعددة لاستعادة التسجيلات الممسوحة باستخدام أحدث الوسائل التكنولوجية، يعتقد [ألكسندر هيج - Alexander Haig] كبير موظفي البيت الأبيض الذي خلف (هالدمان) باحتمال أن يكون (نيكسون) نفسه هو من قام بعملية المسح إمَّا متعمدًا، وإمَّا عن دون قصد حيث كان يجهل التعامل مع تلك النوعية من الأجهزة، بينما يعتقد آخرون بأن (هيج) الذي أصبح وزير خارجية الولايات المتحدة لاحقًا في عهد الرئيس (رونالد ريجان) محتمل أنَّه هو

الشخص الذي قام عن عمد بعملية مسح تلك الدقائق تحت إشراف (نيكسون).

في أعقاب مجزرة ليلة السبت بدأت اللجنة القضائية بمجلس النواب «الكونجرس» في ٣٠ أكتوبر النظر في إجراءات العزل المحتملة للرئيس، وبعد ثلاثة أيام أخذت القضية منحنى متسارع حيث أقر الكونجرس في ٦ فبراير ١٩٧٤ بأغلبية ساحقة بلغت ٤١٠ مقابل اعتراض ٤ أصوات على البدء في تحقيقات عزل الرئيس، وذلك من خلال اللجنة القضائية للمجلس التي مُنحت سلطة واسعة للتحقيق لتحديد ما إذا كان يجب إقالة الرئيس من منصبه، تكونت اللجنة من ٣٨ عضوا يترأسهم عضو الكونجرس الديمقراطي [بيتر رودينو Peter W. Rodino] عن ولاية [نيو جيرسي - New Jersey].

في أبريل ١٩٧٤ طلبت اللجنة تسجيلات لعدد ٤٢ شريط، ومع نهاية الشهر أصدر (نيكسون) نسخًا منقحة من تلك التسجيلات مستشهدًا مرة أخرى بالامتياز التنفيذي، والأمن القومي، وهو ما رفضته لجنة الكونجرس القضائية، من جهة أخرى بدأ القاضي (سيريكا) في ٣ فبراير ١٩٧٣ في الضغط على البيت الأبيض من خلال المدعي الخاص (جاورسكي) للحصول على شرائط ٦٤ محادثة لاستخدامها كأدلة جنائية تدين المسؤولين السابقين بإدارة (نيكسون)، لمْ يكنْ المدعي الخاص الجديد (جاورسكي) أفضل حالًا بالنسبة للرئيس (نيكسون) من (كوكس) فاستمر في الضغط من أجل الحصول على تلك التسجيلات والاستماع إليها، ومع رفض (نيكسون) الإفراج عن باقي التسجيلات المطلوبة رفع (جاورسكي) الحالة برمتها للمحكمة العليا التي حكمت في ٢٤ يوليو ١٩٧٤ بتسليم الأشرطة المطلوبة كاملة.

شخصية المحقق الخاص (شارلوك هولمز) في سلسلة الروايات البوليسية الشهيرة، ابتكرها الطبيب والكاتب الأسكتلندي سير (آرثر كونان)، صدرت إحدى قصصه القصيرة في أبريل ١٨٩٣ بعنوان: «سفينة جلوريا سكوت - The Adventure of the Gloria Scott» تحكي القصة عن تجربة (هولمز) الأولى في التحقيق البوليسي عندما كان طالبًا في الجامعة، حيث طلب منه زميله فك شفرة الوفاة الغامضة لوالده، وتبين أنَّه نتيجة ابتزاز تعرض له الوالد قبيل وفاته بسبب تمرد اشترك فيه الأب منذ فترة طويلة على ظهر سفينة تحمل مساجين إلى أستراليا، حيث لا يعلم بهذا الماضي أحد، ويسترجع أن المساجين المتمردين، ومن بينهم الأب كانوا قد اضطروا لعمل مذبحة على السفينة عقب افتضاح أمر الأسلحة المخبأة لدى المساجين من قبل طبيب السفينة، فتمَّ إطلاق النار على الحراس ثمَّ انطلقوا بعد ذلك لطاقم قيادة السفينة، وعندما اقتربوا من الغرفة سمعوا صوت إطلاق نار من الداخل، وعندما فُتح الباب وُجد قائد السفينة ملقى على الطاولة حيث تفجرت دماغه،

ويستطرد الكاتب في قصته القصيرة وصف المشهد فيكتب: «بينما يقف القس وفي يده مسدس تنطلق من مقدمته أثار دخان.

while the chaplain stood with a smoking pistol in his hand»

ليصبح دخان المسدس أمام الجميع هو الدليل القطعي الذي لا يمكن دحضه بأنَّ القس هو من قام أطلق النار على قائد السفينة وقتله، حيث أن أثر الدخان من فوهة المسدس دليل على آنية استخدام المسدس، ومنها أصبح تعبير [المسدس ذو الدخان – Smoking Gun] هو المرادف عن الدليل الثابت والدامغ، ولكن التعبير لمْ يصبحْ أكلشيه مستخدم، وواضح المعنى إلَّا في سبعينات القرن الماضي، عندما علقت صحيفة (نيويورك تايمز) في ١٤ يوليو ١٩٧٤ أثناء ذروة أزمة (ووترجيت) بأنَّ الأمر الأساسي، والسؤال الذي يؤرق لجنة مجلس النواب في مسألة عزل الرئيس هو أين «دخان المسدس»؟ أين الدليل القاطع والحازم الذي يؤكد تورط الرئيس نفسه في هذا الأمر؟

عندما أذيعت التسجيلات الخاصة للرئيس التي دارت داخل المكتب البيضاوي، فوجئ الشعب باللغة السوقية، والمبتذلة التي يستخدمها (نيكسون) عندما يتحدث عن آخرين في محاوراته مع موظفي البيت الأبيض والمسؤولين، من بين الشرائط التي قررت المحكمة العليا وجوب الاستماع لها تسجيلات تخص ثلاثة حوارات جرت يوم ٢٣ يونيو ١٩٧٢ من الساعة ١٠:٠٤ صباحًا حتى الساعة ١١:٣٩ صباحًا، أجريت تلك الحوارات بعد ستة أيام فقط من حادثة السطو على مكتب الحزب الديمقراطي، وقد اضطر البيت الأبيض لتسليم تلك التسجيلات في ٥ أغسطس ١٩٧٤ تنفيذًا لقرار المحكمة العليا، في تلك الحوارات الثلاثة طلب (نيكسون) من كبير موظفي البيت الأبيض (هالدمان) القيام بمخاطبة كل من رئيس وكالة المخابرات المركزية (ريتشارد هيلمز)، ونائبه (فيرنون والترز)، من أجل التواصل مع (باتريك جراي) القائم بأعمال مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي لوقف تحقيقات المكتب في حادث اقتحام مكتب ووترجيت، على أساس أن ذلك يدخل في نطاق الأمن القومي، سرعان ما أطلق على هذا التسجيل [شريط دخان المسدس – Smoking-Gun Tape]؛ لأنه اعتبر بمثابة الدليل الذي رأته اللجنة دامغًا على محاولة تستر الرئيس على القضية وعرقلتها منذ البداية، وهو ما رآه المدعي الخاص (جاروسكي) عملية تستر على الحادث ومؤامرة إجرامية من الرئيس كان هدفها هو إعاقة العدالة، بمجرد إذاعة الشريط تلاشى الدعم السياسي للرئيس (نيكسون) عمليًا، حيث أعلن أعضاء الكونجرس الجمهوريون العشرة «من نفس حزب الرئيس» في اللجنة القضائية في مجلس النواب الذين صوتوا من قبل ضد العزل في اللجنة، أنَّهم سيصوتون الآن لمساءلة الرئيس بمجرد وصولهم لمرحلة التصويت، لذلك وافقت اللجنة على توجيه اتهام

للرئيس بإساءة استخدام سلطاته في عدة حالات، أولها كان الموافقة على تشكيل لجنة تحقيق سرية داخل البيت الأبيض بالمخالفة للقانون تلك التي عرفت بوحدة السباكين، أما الحالة الثانية فكانت عدم الالتزام باتباع القوانين، وإساءة استخدام السلطة التنفيذية عن علم، وعمد بالتدخل في أعمال وكالة المخابرات المركزية، ومكتب التحقيق الفيدرالي، والثالثة كانت بسبب عدم استجابة الرئيس لمطالب الادعاء للإدلاء بالشهادة، وتقديم المعلومات.

في مؤتمر صحفي عُقد على عجل عند الساعة الثانية والنصف ظهر يوم الخميس ٨ أغسطس ١٩٧٤، أعلن (رون زيجلر) المتحدث الرسمي للبيت الأبيض في بيان صحفي بأنَّ الرئيس سيلقي خطابًا إلى الأمة عبر موجات الإذاعة، وشاشات التليفزيون، وذلك من مكتبه البيضاوي في التاسعة مساء، وبدرجة كبيرة من القدرة على ضبط النفس، والتحكم في الانفعالات، والتمكن من استخدام لغة قوية واضحة وحاسمة ظهر (نيكسون) للشعب على شاشة التليفزيون في التاسعة ودقيقة واحدة ليلقي خطابه الأخير، لم تتجاوز مدة الخطاب ١٦ دقيقة استطاع خلالها أن يوضح الظروف التي أدت لقراره دون استخدام أي خطاب ديماغوجي ترهيبي، ودون اللجوء لأي هجوم، أو تجريح، أو نقد لأي طرف من الأطراف، أيضًا لم يكن في خطابه أي تنازلات سوى إقراره ببعض ما وصفه بالأخطاء التي شابت تعامله مع قضية (ووترجيت)، وكذلك لمْ تكنْ هناك أي إشارة مباشرة للندم، أو الاعتذار إلا في الجملة التي تناولت أسفه على أي جرح قد يكون سببه لأي أحد أثناء سلسلة الأحداث المتعلقة بالقضية، والتي أدت لقرار تقديم استقالته، في الخطاب قدم (نيكسون) استقالته معللًا ذلك بأنَّه نتيجة تآكل قاعدته السياسية داخل الكونجرس باعتباره أمر يماثل خسارة معركته السياسية داخل مجلس النواب: «مساء الخير... هذه هي المرة السابعة والثلاثين التي أتحدث فيها إليكم من خلال هذا المكتب حيث تمَّ اتخاذ العديد من القرارات التي شكلت تاريخ هذه الأمة، في كل حديث منهم قمت بمناقشة بعض الأمور التي أعتقد أنَّها تؤثر في المصلحة الوطنية، لقد حاولت دائمًا أن أفعل ما هو الأفضل للأمة، طوال فترة (ووترجيت) الطويلة، والصعبة شعرت أنَّه يجب علّي المثابرة على بذل كل الجهد لإكمال مدتي الرئاسية التي انتخبتموني لها، أصبح من الواضح لي في الأيام القليلة الماضية أنَّه لمْ يعدْ لديّ في الكونجرس قاعدة سياسية قوية بما فيه الكفاية لتبرير الاستمرار في هذا الجهد، فهذه القاعدة هي المؤشر الأساسي على استمرار عملي طوال المدة الرئاسية، ولكن مع اختفاء تلك القاعدة فأنا أعتقد أن الغرض الدستوري قد استُخدم، ولم تعد هناك حاجة إلى إطالة أمد العمل.

لمْ أكنْ يومًا شخصًا انهزامي، وترك كرسي الرئاسة قبل انتهاء فترتي الرئاسية هو أمر يرفضه كل جزء من جسدي، ولكني كرئيس للولايات

المتحدة يجب أن أضع مصالح الولايات المتحدة أولًا.

لذلك... فإنني أتقدم باستقالتي من الرئاسة اعتبارًا من ظهر يوم غد، نائب الرئيس (فورد) سيؤدي اليمين كرئيس في تلك الساعة في هذا المكتب.

باتخاذ هذا القرار، آمل أن أكون قد سارعت في بدأ عملية المعافاة التي تعتبر أمريكا في أمس الحاجة إليها.

أغادر منصبي دون أي شعور بالمرارة تجاه أولئك الذين عارضوني، لأننا جميعا في النهاية نعمل من أجل صالح أمريكا».

كان (هنري كيسينجر) وزير الخارجية هو أول من دخل الغرفة بعد انتهاء الرئيس من تقديم خطاب استقالته، حيث صافحه، واصطحبه خلال الجناح الغربي حتى مقره السكني، في صباح اليوم التالي للخطاب قام (نيكسون)، وأسرته بتوديع موظفي البيت الأبيض، ثمَّ غادر البيت الأبيض على متن مروحية متوجها إلى قاعدة (أندروز) الجوية بولاية (ماريلاند)، ومنها إلى ولاية (كاليفورنيا) حيث منزله في مدينة [سان كليمينتي - San Clemente]، ليكون بذلك قد أمضى ٢٠٢٦ يومًا في البيت الأبيض كرئيس للولايات المتحدة تشمل الفترة الرئاسية الأولى كاملة وعام ونصف العام من الفترة الرئاسية الثانية غير المكتملة وقبل عامين ونصف من نهايتها.

في نفس ذات اليوم أصدر الرئيس الجديد (فورد) طبقًا لسلطة العفو الممنوحة له بموجب المادة الثانية من القسم الثاني من الدستور عفوًا عامًا شاملًا، ومطلقًا للرئيس السابق (نيكسون) عن أي مخالفة قد ارتكبها، أو يُعتقد أنَّه ارتكبها، أو شارك فيها خلال فترة توليه الرئاسة، برر (فورد) قرار العفو في خطاب متلفز بأنَّه من أجل مصلحة البلاد، لاحقًا قال (فورد) بعد انتهاء مدة ولايته أن قبول العفو في حد ذاته يحمل ضمنيًّا إقرارا بارتكاب الخطأ، أرسل (نيكسون) خطابًا إلى (فورد) يوافق على العفو مصرحًا فيه بأنَّه أخطأ في عدم التصرف بشكل أكثر حزمًا، وبصراحة أكثر مع قضية (ووترجيت)، خاصة عندما وصلت إلى مرحلة الإجراءات القضائية، وتطورت من فضيحة سياسية إلى مأساة وطنية، ورغم أن عفو (فورد) مطابق للدستور إلَّا أن قرار العفو أوجد جدلًا واسعًا، فهناك من رأى أن القرار لم يكن عادلًا وضرب مصداقية وجدارة الرئيس الجديد كرجل حكم في مقتل، والادعاءات بوجود صفقة سرية مع فورد بوعد بالعفو عن (نيكسون) مقابل تقديم استقالته دفعت (فورد) للمثول في ١٧ أكتوبر ١٩٧٤ أمام اللجنة القضائية للكونجرس، ولا شك أن قرار العفو عن (نيكسون) قد أثر كثيرًا في عدم نجاح (فورد) في الانتخابات الرئاسية عام ١٩٧٦ أمام المرشح الديمقراطي (جيمي كارتر).

انتهت التحقيقات في القضية بالحكم على ٦٩ مسؤول حكومي منهم ٤٨ شخص تمت إدانتهم، وأصبحت (ووترجيت) هو الاسم الدال على واحدة من أكثر الفضائح السياسية في تاريخ الولايات المتحدة التي أدت في نهاية المطاف إلى دفع الرئيس الأمريكي لتقديم استقالته، وأصبحت كلمة [جيت – Gate] النصف الثاني من [ووترجيت – Watergate] مرادفا للفضائح السياسية الكبرى بإلحاق الكلمة باسم الأزمة، وتمَّ اعتماد هذا التعبير في المعجم الأمريكي [مريام ويبستر - Merriam-Webster] عام ١٩٩٣ كمرادف عن فضيحة سياسية غالبًا ما تنطوي على إخفاء، أو تستر للحقيقة، من ضمن القضايا الشهيرة التي ألحقت بكلمة (جيت) فضيحة [إيران–كونترا - Iran–Contra] التي اشتهرت باسم [إيران جيت – Irangate] في ثمانينات القرن الماضي أثناء حرب الخليج الأولى، عندما سرب رجل الدين الشيعي الإيراني (مهدي هاشمي) معلومات لصحيفة (الشراع) اللبنانية عن قيام الرئيس الأمريكي (رونالد ريجان) بإمداد إيران التي تعتبر في حالة عداء مع الولايات المتحدة سرًا بالأسلحة في حربها مع العراق، وذلك مقابل أن تتدخل إيران للإفراج عن الرهائن السبعة الأمريكيين المحتجزين في لبنان بواسطة حزب الله، وتقوم الولايات المتحدة باستخدام أموال تلك الصفقة سرًا لتمويل حركات (الكونترا) المناوئة للنظام الشيوعي في نيكاراغوا، كذلك فضيحة [مونيكا جيت – Monicagate] عن تورط الرئيس الأمريكي (بيل كلينتون) – ٤٩ عاما، في علاقة جنسية مع متدربة البيت الأبيض (مونيكا لوينسكي) – ٢٢ عاما، وهي الفضيحة التي كانت على وشك أن تؤدي إلى عزله من منصبه بعد قيام الكونجرس بإجراءات تمهيدية لمحاكمته وعزله، وأمثلة أخرى عديدة تخطت حدود الولايات المتحدة، وتعدت السياسة إلى الرياضة والفن والأعمال.

لعب الأعلام دورًا كبيرًا، ومؤثرًا في فضيحة (ووترجيت) بتسليطه الضوء عليها، ولم تكن القضية لتأخذ هذا المنحنى إلا بسبب الدور الصحفي الذي لعبه كل من الصحفيين (وودوارد)، و(بيرنستين) وتحقيقاتهما الصحفية في جريدة (واشنطن بوست)، لذلك قادت القضية الإعلام في الولايات المتحدة لعصر أكثر حرية وجرأة ومغامرة في تتبع الأنشطة السلبية للسياسيين، كذلك كان لها تأثير في التعديلات التي تمت عام ١٩٨٦ على قانون حرية المعلومات، كما كان من توابع الفضيحة، ونتيجة سوء استخدام أموال الحملة الانتخابية الرئاسية، بأنَّه تمَّ تشريع قوانين تحكم، وتحد أوجه تمويل الحملات، والكشف عن مصادرها وكيفية إنفاقها.

«كل رجال الرئيس» كان الكتاب الأول الذي أصدره الصحفيين (بوب وودوارد)، و(كارل بيرنستين) في ١٥ يونيو ١٩٧٤ عن فضيحة (ووترجيت) في ٣٤٩ صفحة، وفي ٩ أبريل ١٩٧٦ جسّد المخرج الأمريكي [آلان باكولا - Alan

Pakula] موضوع الكتاب دراميًا في فيلم مدته ١٣٩ دقيقة يحمل نفس الاسم، ورشح من خلاله لنيل جائزة الأوسكار كأفضل فيلم بالإضافة لسبعة ترشيحات أخرى لنيل الأوسكار، قام الممثل (داستن هوفمان) بأداء دور الصحفي (بيرنستين)، والممثل الأمريكي (روبرت ريدفورد) بأداء دور الصحفي (وودوارد)، ونال الفيلم ٤ جوائز أوسكار لأفضل كتابة سيناريو مقتبس، وأفضل تصميم إنتاج، وأفضل صوت، وأفضل ممثل مساعد، والتي منحت إلى الممثل الراحل [جيسون روباردس - Jason Robards] عن قيامه بدور (بين برادلي) رئيس تحرير صحيفة (واشنطن بوست)، وقام فرد الأمن (فرانك ويلز) صاحب أول خيط على الإطلاق في القضية، والذي قام بالاتصال بالشرطة عقب اكتشاف الشريط اللاصق بأداء نفس دوره الحقيقي في الفيلم، اختارت مجلة (التايم) كل من (نيكسون)، ومستشار الأمن القومي (هنري كيسنجر) كشخصية العام ١٩٧٢ بسبب النجاح الساحق الذي حققه (نيكسون) في الانتخابات الرئاسية؛ وبسبب الزيارة التاريخية التي قام بها الرئيس إلى الصين بصحبة (كيسنجر) كأول زيارة يقوم بها رئيس أمريكي للصين، بالإضافة إلى توقيع معاهدة الحد من الأسلحة الاستراتيجية مع الاتحاد السوفيتي: «سولت ١ - SALT I» في ٢٦ مايو ١٩٧٢، ولكن في العام التالي وبعد اتساع دائرة قضية (ووترجيت)، ووصولها للمكتب البيضاوي، اختارت المجلة في نهاية عام ١٩٧٣ القاضي (جون سيريكا) رئيس القضاة في العاصمة، والذي أمر الرئيس (نيكسون) بتسليم تسجيلات البيت الأبيض ذات الصلة بقضية (ووترجيت) كشخصية العام ١٩٧٣.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1984 – حقائق بديلة

يوم ٢١ يناير ٢٠١٧ وعقب يوم واحد فقط من تنصيب الرئيس الأمريكي (دونالد ترامب) أكد [شون سبايسر - Sean Spicer] السكرتير الصحفي الجديد للبيت الأبيض في أول مؤتمر صحفي له على أن أعداد الجماهير التي شاهدت حفل تنصيب (ترامب) كانت غير مسبوقة سواء كانت بالحضور، أو بالمشاهدة عبر البث الفضائي، وأن وسائل الإعلام الأمريكية قامت بشكل متعمد بالتقليل من الأعداد الحاضرة، حاول (سبايسر) التدليل على صحة تصريحه بأنَّ المعلومات لديه تثبت أن ٤٢٠ ألف شخص استخدموا المترو في اليوم السابق حيث مراسم تنصيب (ترامب) في حين أن ٣١٧ ألف استخدموا المترو يوم تنصيب (أوباما) عام ٢٠١٣، وذلك ردًا على التقارير الصحفية التي أشارت إلى تراجع كبير في أعداد الحضور يوم تنصيب (ترامب) بالمقارنة بنظرائه السابقين، وهو أمر يعمل على التقليل من أهمية، وشعبية الرئيس الجديد القادم للبيت الأبيض، لم يحدد (سبايسر) مصدر هذه المعلومة، أو المدة الزمنية التي تمت خلالها عملية حصر الأعداد، قامت الشبكات الإعلامية بتفنيد صحة ادعاءات السكرتير الصحفي للبيت الأبيض فأعلنت أن أرقام (مترو واشنطن) تشير إلى أرقام مخالفة لما أعلنه (سبايسر) حيث أعلنت هيئة مترو واشنطن العاصمة [WMATA- Washington Metropolitan Area Transit Authority] بأنَّ فقط ١٩٣ ألف استخدموا المترو يوم تنصيب (ترامب) في الفترة بين منتصف الليل إلى الحادية عشر صباحا في حين أن ٣١٧ ألف استخدموا خطوط المترو في نفس المدة الزمنية عام ٢٠١٣ يوم تنصيب (أوباما) لفترته الرئاسية الثانية، و ٥١٣ ألف في نفس ذات اليوم والمدة الزمنية عام ٢٠٠٩ يوم تنصيب (أوباما) لفترته الرئاسية الأولى، والإحصائية تقول أن جميع من استخدموا المترو خلال كامل يوم تنصيب (ترامب) كان ٥٧١ ألف مستخدم، في حين أن من أستخدم المترو كامل يوم تنصيب (أوباما) عام ٢٠١٣ قد بلغ ٧٨٢ ألفا، بل أن أيضًا أعداد المشاهدين عبر التلفزيون قد شهد إحجامًا من الجمهور طبقًا لتقرير شركة [نيلسون للأبحاث الإعلامية - Nielsen Media Research] المتخصصة في قياس جمهور وسائل الإعلام، حيث أشار التقرير إلى أن نحو ٣٠.٦ مليون مواطن أمريكي قد شاهدوا حقل تنصيب (ترامب) في حين أن حفل تنصيب (أوباما) عام ٢٠٠٩ قد جذب نحو ٣٨ مليون مشاهد، وتابع حفل تنصيب الرئيس الأمريكي (رونالد ريجان) عام ١٩٨١ قرابة ٤٢ مليون مشاهد.

لمْ يكنْ هناك ارتياح لدى الرأي العام بأن يبدأ البيت الأبيض أول أعماله بمثل تلك الأكاذيب المفضوحة وخصوصًا أن الكاميرات الجوية، والصور الفوتوغرافية لنفس المساحات تستطيع بوضوح أن تبرز الفارق الكبير بين

الحضور الجماهيري المحدود في حفل تنصيب (ترامب) مقارنة بآخر حفل تنصيب تم قبل أربع سنوات للرئيس (أوباما) عام ٢٠١٣ والذي شهد حضورًا مكثفًا، وبالرغم من عدم الأهمية الكبرى لمثل هذا الأمر وتلك الأرقام، لكن مبدأ الكذب ومحاولة طمس الحقيقة من قبل إدارة الرئيس كان هو سبب الانزعاج الأساسي، في اليوم التالي مباشرة كانت [كيليان كونواي - Kellyanne Conway] مستشارة الرئيس (ترامب)، ومن قبل مديرة حملته الانتخابية، ضيفة على البرنامج السياسي الشهير [واجه الصحافة - Meet the Press] الذي يقدمه المذيع اللامع (تشاك تود - Chuck Todd) على شبكة [إن بي سي - NBC]، سألها (تود) عن السبب وراء خروج السكرتير الصحفي للرئيس متحدثًا بتلك التصريحات التي تحمل مثل تلك الأكاذيب الواضحة التي يمكن دحضها بكل سهولة، ويستكمل سؤاله معلنًا أنَّه يدرك أن الأمر بسيط، ولكنَّه يستنكر خروج السكرتير الصحفي للمرة الأولى للصحافة متحدثًا بالأكاذيب، وبعد فترة قصيرة من الشد والجذب والمقاطعة في الحديث أجابت (كونواي) قائلة:

- «لا تكن مأساويًا جدًا حيال ذلك، تشاك. أنت تقول إنَّه يكذب، ولكن السكرتير الصحفي (شون سبايسر) يقول وقائع بديلة لذلك، لكن النقطة هي حقا.....»

قاطعها (تود) سريعًا متسائلًا:

- «انتظري لحظة... حقائق بديلة...!! حقائق بديلة!!، أربعة من الحقائق الخمسة التي صرح بها لمْ تكنْ صحيحة، حقائق بديلة ليست حقائق، إنَّها أكاذيب».

كانت تلك الجملة كفيلة بإثارة الصحافة، والرأي العام الأمريكي وتشككهم نحو منهاجية، وطريقة عمل الرئيس الجديد في البيت الأبيض، فالأخبار الكاذبة بالأمس أصبح يطلق عليها من قبل فريقه اليوم: «حقائق بديلة».

خلال أربعة أيام فقط من تلك المقابلة تصدرت رواية الكاتب الإنجليزي: «جورج أورويل - George Orwell» الكلاسيكية، والتي تحمل عنوان [١٩٨٤] قائمة أمازون للكتب الأكثر مبيعًا في الولايات المتحدة، الأمر الذي دفع الناشر لطباعة عشرات الآلاف من النسخ خلال أسبوع واحد نتيجة الطلب المتزايد عليها بعدما حققت زيادة في المبيعات وصلت إلى نسبة ٩٥٠٠ في المائة وفقا لجريدة (النيويورك تايمز)، كان السر في ذلك هو تعبير (كونواي) التي استخدمته في البرنامج [حقائق بديلة – Alternative Facts]... ولكن ما العلاقة؟

قبل عام من انتهاء الحرب العالمية الثانية، وعند قرابة الساعة العاشرة من صباح يوم الخميس ١٨ مايو ١٩٤٤ في ١٠ شارع (مورتيمر كريسنت) شمال شرق لندن كتب الروائي (جورج أورويل) خطابًا يرد فيه على رسالة لمواطن بريطاني يُدعى (نويل ويلمت Noel Willmett) الذي كان مهتمًا بمعرفة رؤية (أورويل) عن احتمالية ازدهار النظام الشمولي:

«عزيزي السيد (ويلمت):

شكرا جزيلًا لرسالتك. أنت تسأل عمَّا إذا كانت الشمولية، عبادة القائد... إلخ تزدهر حقًا على مستوى كبير على الرغم من أنَّها لا تنمو على ما يبدو في هذا البلد، والولايات المتحدة. يجب عليَّ أن أقول إنني أعتقد، أو أخشى نمو هذا النظام عالميًّا، لا شك أن (هتلر) سيختفي قريبًا، ولكن ذلك سيكون على حساب (أ) ستالين، (ب) المليونيرات الأنجلو-أمريكيين، (ج) جميع أشكال الفوهرر المصغرة على شاكلة (ديجول)، يبدو أن جميع الحركات الوطنية في كل مكان، حتى تلك التي تنشأ في مقاومة الهيمنة الألمانية تتخذ أشكالًا غير ديمقراطية لتجميع نفسها حول فوهرر فوق طاقة البشر (هتلر، ستالين، سالازار، فرانكو، غاندي، دي فاليرا، كلها أمثلة مختلفة) لتبني النظرية القائلة بأن الغاية تبرر الوسيلة.

الحركة العالمية تتجه في كل مكان نحو الاقتصادات المركزية، التي يمكن جعلها تعمل كشأن اقتصادي، ولكنها غير منظمة ديموقراطيًّا وتميل إلى تأسيس النظام الطبقي، ومع هذا التوجه تظهر أهوال القومية العاطفية وإنكار الحقيقة الموضوعية، لأنَّ كل الحقائق يجب أن تتلاءم مع كلمات ونبوءات القائد الزعيم الملهم، وبالفعل سيتم تزييف التاريخ تبعًا لأهوائهم، والعلوم ستصبح معرضة للخطر بمجرد أن تتوقف الضرورة العسكرية لإبقاء الناس على مستوى الحاجة، يمكن أن يقول (هتلر) أن اليهود هم من بدأوا الحرب، وإذا انتصر سيصبح ذلك هو التاريخ الرسمي والحقيقي، ولكن لا يستطيع أن يقول أن اثنين زائد اثنين يساوي خمسة لأسباب ستفشل حسابات منتجه العسكري، ولكن في عالم أنا أخشى من قيامه حيث ستكون هناك قوتين أو ثلاث قوى عظمى تسيطر عليه ولا تستطيع أي قوة منهم التغلب على الأخرى، هنا يمكن أن يكون مجموع اثنين زائد اثنين يساوي خمسة إذا أراد الزعيم ذلك(١)، وهذ هو الاتجاه الذي أرى أننا نتحرك فيه بالفعل، وبالرغم من ذلك فإن الأمر يمكن أن ينعكس.

فيما يتعلق بالحصانة النسبية لبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، أيا كان ما قد يقوله الداعون إلى السلام فإننا لم نذهب إلى ما بعد الاستبداد، وهذا هو أحد الأمور المطمئنة، فأنا أؤمن بشدة كما شرحت في مقالات كتابي: «الأسد ووحيد القرن - The Lion and the Unicorn»، عن الشعب الإنجليزي وقدرته

على التكييف الاقتصادي دون تدمير للحرية، ولكن يجب على المرء أن يتذكر أن بريطانيا والولايات المتحدة لم يتم تجربتهما فعلًا، ولم يعرفا الهزيمة، أو يمروا بمعاناة شديدة، ولكن هناك أيضًا مساوئ تعادل هذه النقاط الجيدة، بادئ ذي بدء هناك حالة من اللامبالاة العامة تجاه انحسار الديمقراطية. هل تدرك على سبيل المثال أنَّه لا يوجد أحد في إنجلترا تحت سن السادسة والعشرين الآن لديه حق التصويت، وبقدر ما يستطيع المرء أن يرى فإن تلك الكتلة العظيمة من الناس من هذه الفئة العمرية لا تبالي بذلك؟ ثانيًا، هناك حقيقة مفادها أن المثقفين رؤيتهم أكثر استبدادية من عامة الناس، وفي المطلق فقد عارض المفكرون الإنجليز (هتلر) ولكن كان ذلك على حساب الترحيب بالزعيم (ستالين)، فمعظم هؤلاء على استعداد تام للترحيب بالطرق الديكتاتورية، والشرطة السرية، والتزوير المنظم للتاريخ (٢) طالما كان ذلك يصب في مصلحتهم.

وبالفعل فإن مقولة أننا لا نملك حركة فاشية في إنجلترا تعني إلى حد كبير أن الشباب في هذه اللحظة يبحثون عن الفوهرر في مكان آخر، ولا يستطيع المرء التأكد من أن هذا الأمر لن يتغير، ولا يمكن التأكد من أن الناس العاديين لن يفكروا بتلك الطريقة بعد عشر سنوات كما يفعل المفكرون الآن. أتمنى ألا يفكروا بتلك الطريقة، وأنا أؤمن إلى حد كبير بأنَّهم لن يفعلوا ذلك، ولكن إذا تم هذا الأمر فلن يكون دون صراع. فإذا أعلن المرء ببساطة أن ذلك من أجل الأفضل دون الإشارة إلى المساوئ المتوقع حدوثها فإن ذلك ببساطة سيساعد على تقريب الشمولية.

صديقك المخلص:

جيو. أورويل

كتب على الآلة الكاتبة».

نشر هذا الخطاب للمرة الأولى في كتاب «جورج أورويل: حياة في خطابات - George Orwell: A Life in Letters» الذي أعده للنشر البروفسير (بيتر دافيسون) عن [دار نشر بنجوين - Penguin Books] في ٢٧ يناير ٢٠١١، والفقرة (١)، (٢) تنبيهات ستظهر لاحقًا في رواية: «ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون - Nineteen Eighty Four»، الخطاب بشكل عام يشير إلى فكر (أورويل) الذي بالرغم من ميوله الاشتراكية إلَّا أنَّه يعارض الحكم الشمولي وهو ما بدا جليًّا في روايته [١٩٨٤].

ظهر التعبير الشهير: «الحرب الباردة – Cold War» لأول مرة كمصطلح يستخدم لوصف حالة الصراع، والتنافس التي كانت بين القوتين العظميين، وحلفائهم، من خلال تطوير الأسلحة والتحالفات العسكرية والدعاية عقب

نهاية الحرب العالمية الثانية، بواسطة (جورج أورويل) في ١٩ أكتوبر ١٩٤٥ في مقالته بصحيفة [التريبيون -The Tribune] بعنوان: «أنتِ والقنبلة النووية - You and the Atomic Bomb» حيث كتب (أورويل) مستدلًا بتوقعات المنظر السياسي الأمريكي [جيمس بورنهام - James Burnham] عن عالم مُستقطب:

«وبالنظر إلى العالم ككل، لمْ يكنْ الانجراف لعقود عديدة يتجه نحو الأناركية (الفوضى السياسية) بل نحو إعادة استرجاع العبودية... لقد نوقشت نظرية: «جيمس بورنهام» كثيرًا، لكن القليل فقط هم من انتبهوا لآثاره الإيديولوجية، عن كيف سيكون شكل العالم، وشكل المعتقدات، والتركيبة الاجتماعية التي من المحتمل أن تسود، تلك التركيبة التي كانت في وقت من الأوقات غير قابلة للتحقيق، وفي حالة دائمة من [الحرب الباردة – Cold War] مع جيرانها.»

لمْ يكنْ هذا التعبير فقط من (أورويل) الذي شاع استخدامه لاحقًا، فقد حفلت رواية: [١٩٨٤] بالعديد من التعبيرات التي يُعاد استخدامها للتعبير عن حالة معينة ولعل أشهر تلك المصطلحات التي دخلت ثقافتنا الشعبية والسياسية تعبير [الأخ الأكبر – Big Brother]، والتي تستخدم كمرادف لتعسف السلطة في استخدام أدوات التنصت، والمراقبة اللصيقة، واختراق الحقوق الشخصية، وفي الرواية كان (الأخ الأكبر) هو زعيم [أوقيانيا – Oceania] تلك الدولة الاستبدادية حيث يمتلك الحزب الحاكم السلطة كاملة لذاته، ويخضع كل المواطنين للمراقبة المستمرة من قبل السلطات عبر شاشات تتواجد في جميع الأماكن وداخل المنازل تراقب ما يحدث بالصوت والصورة تحت الشعار المعلن: «الأخر الكبير يراقبك – Big Brother Is Watching You» والمنتشر في كل مكان، كذلك مصطلح «التفكير المزدوج – Double Thinking» الذي يعبر عن قبولك لفكرتين متناقضتين في ذات الوقت، وهو أمر قد يرتبط بالحياد، أو النفاق ولكن يختلف عنهما، وهي إحدى طرق غسل الأدمغة التي تستخدمها السلطة في الرواية؛ لكي تسوق لأي فكر، أو موقف أو قرار تريده دون أن يتعارض ذلك مع فكر من يستقبل الأمر، فيكون ولائه الأول للسلطة، وما تقوله، ولا تتناقض الأكاذيب التي يسمعها مع ما تراه عينه، أو ما تسمعه أذنه، فإيمانه فقط بما يقال له ويستطيع أن يبدل هذا الإيمان لاحقًا إلى النقيض إذا طلب منه ذلك دون أن يتسبب ذلك له في أي صراع ذهني.

وتعبير (التفكير المزدوج) أصبح يستخدم بعد الرواية كمصطلح في علم النفس وعلم الاجتماع، ويأتي تعبير (التفكير المزدوج) كأحد مفردات ما يُسمى في داخل الرواية: [اللغة الجديدة – Newspeak] وهي لغة سيطرة ابتكرتها سلطة (أوقيانيا) حيث تقوم من خلالها بتقليص اللغة وإلغاء الكثير من

المفردات بحيث تعمل على الحد من حرية الفكر، والمفاهيم التي تهدد النظام كحرية الإرادة وحرية التعبير عن الذات، أو أي شكل من أشكال التفكير المخالفة لفكر السلطة، بحيث يصعب على الشعب أن يجد مفردات يستطيع من خلالها التعبير الصحيح عن معاناته، في الرواية يقول: «سايم - Syme» وهو لغوي متخصص يعمل فيما يسمي بدائرة البحوث بوزارة الحقيقة، وأحد أفراد فريق ضخم من الخبراء المسؤولين عن وضع معجم اللغة الجديدة [Newspeak] لبطل الرواية: «ونستون سميث - Winston Smith»:

«لعلك تظن أن مهمتنا الرئيسية هي ابتكار كلمات جديدة، لكن لا ليس هذا ما نقوم به البتة، إننا نقوم بتدمير الكلمات، عشرات بل مئات الكلمات يتم تدميرها يوميًّا، إننا نسلخ اللغة حتى العظام».

«إن تدمير الكلمات شيء جميل، بالطبع فإن نسبة الفقد الأكبر تكون في الأفعال، والنعوت»

«أنت لا تدرك روعة تدمير الكلمات، هل تعرف أن اللغة الجديدة هي اللغة الوحيدة التي في العالم التي تتناقص مفرداتها عامًا بعد عام؟»

«ألا ترى ذلك رائعا يا (ونستون)؟ لقد كانت الفكرة من الأصل من بنات أفكار الأخ الكبير».

«ألا ترى أن الغاية النهائية للغة الجديدة هي التضييق من أفاق التفكير؟ بحيث تصبح جريمة الفكر في نهاية المطاف جُرمًا مستحيل الوقوع من الناحية النظرية، وذلك لأنَّه لن توجد كلمات يمكن للمرء من خلالها أن يرتكب هذه الجريمة، فكل مفهوم يحتاج إليه الناس سيتم التعبير عنه بكلمة واحدة محددة المعنى، وغير قابلة للتأويل..... فالكلمات تتضاءل عامًا بعد عام كما يتضاءل مدى الوعي، والإدراك شيئًا فشيئًا، بل وحتى في الوقت الراهن ليس هنالك سبب أو عذر يبرر اقتراف جريمة الفكر».

أدب (اليوتوبيا – Utopia)، أو أدب المدينة الفاضلة هو نوع من الأدب يرى فيه الكاتب مجتمع مثالي لا وجود فعلي له، يزخر بالمثاليات والأخلاق والفضيلة التي تفيض إلى حياة تعُمها السعادة والراحة والهناء والرخاء، وقد تمَّ استخدام هذا المعنى الذي ابتكره الفيلسوف والمفكر البريطاني: «توماس مور» في القرن السادس عشر في روايته: «يوتوبيا» التي تحكي عن التقاليد السياسية والأعراف الدينية والاجتماعية لجزيرة معزولة وغير معروفة ولا وجود لها تتنوع فيها أشكال الحياة المثالية، فالسعادة تأخذ فيها شكل الوفرة المادية، أو العمر المديد، أو التوزيع العادل للثروات، أو انعدام الحروب وهو ما طرحه من قبل الفيلسوف اليوناني (أفلاطون) في كتابه: «الجمهورية».

على نقيض (اليوتيوبيا) هناك أدب (الديستوبيا – Dystopia)، أو أدب المدينة الفاسدة، وهو نوع من الأدب يرى فيه الكاتب مجتمع خيالي فاسد ومخيف يسوده الفوضى ويحكمه الشر المطلق، وأبرز ملامحه الخراب والخوف والفقر والقهر والظلم والمرض، وعادة يستخدم هذا الأدب لتسليط الضوء على القضايا الموجودة في العالم الواقعي المتعلقة بالمجتمع والسياسية والدين والسلطة والاقتصاد، وتعتبر رواية [١٩٨٤] هي واحدة من تلك الروايات التي تنتمي لهذا الأدب.

كان (أورويل) من الكُتّاب الذين لا يفصحوا عن أحداث رواياتهم قبل الانتهاء منها، إلّا أنَّه كتب لصديقه (ديفيد أستور - David Astor) قبل الانتهاء منها يخبره بأنَّ تلك الرواية اللعينة تتناول الوضع الذي يحتمل أن يكون عليه العالم إذا لمْ يحسمْ أمره بالحرب الذرية، لاحقًا كشف (أورويل) عن جانب من موضوع روايته لصديقه (أنتوني باول - Anthony Powell) حين كتب له أن الكتاب عبارة عن (يوتوبيا) معكوسة في شكل رواية.

تُصور رواية [١٩٨٤] دولة شمولية سلطوية عظمى وهي دولة (أوقيانيا) ويسيطر على مقاليد الحكم فيها (الأخ الأكبر) الذي لا يتضح من خلال الرواية ماهية حقيقته، وهل هو شخص كائن، أم أنَّه فكرة وأن مقاليد السلطة الفعلية بيد ما يسمى بالحزب، تنتشر في (أوقيانيا) صور الأخ الكبير في كل الأرجاء لتجسد فكرة أنَّك لن تستطيع الإفلات من سيطرته، ويؤكد تلك الفكرة الشعار المذيل بأسفل الصور «الأخ الكبير يراقبك»، وعليك دائمًا أن تصدق الأخ الكبير في كل أكاذيبه، وتطيع ما يطلبه منك دون أي إعمال للعقل الذي أصبح بالفعل مسلوبًا منك، وعليك أن تظهر الحماس لما يقوله، ويجب أن تؤمن بأنَّه دائما على صواب، وأن منتقديه هم الفاسدين، والخونة، وأصحاب الخطر الأكبر على المجتمع.

في هذا المجتمع السوداوي تقوم السلطة بالسيطرة الكاملة على الشعب الذي يعاني أبشع درجات البؤس من خلال شاشات الرصد، تلك الشاشات المثبتة في كل مكان بل، وتدخل كل منزل، وتقوم برصد كل حركة وكلمة وفعل قد يأتي بها هذا الشعب المقهور، وترسل تلك الشاشات التعليمات، والأوامر والمحظورات فضلًا عن سلاسل متتالية من الأكاذيب، والأخبار غير الحقيقية التي لا تنتهي، يوجد لدى الحزب ثلاث شعارات مُربِكة يرفعها في كل مكان مبنية على اللغة الفاسدة التي ينشرها بين الشعب للعبث بفكر الشعب والتحكم به، ومستوحاة من أيدلوجية: [الفكر المزدوج] حيث الاقتناع التام بالفكرة ونقيضها في آن واحد، لكي تستدعي أحداهما في أي وقت يُطلب منك ذلك فينعدم لديك التفكير المنطقي، وتصبح آلة لدى السلطة توجهها أينما شاءت وقتما شاءت، وتلك الشعارات هي: «الحرب هي السلام، الحرية

هي العبودية، الجهل هو القوة»، كل شعار منهم يحمل فكرتين متضادتين تمامًا، و لكن الحزب، و الأخ الكبير ظلوا يعملون على تعزيز تلك الأفكار حتى صدق و آمن بها أغلب أفراد المجتمع، تتم السيطرة على الشعب من خلال أربعة وزارات سيادية أسماؤها هي الأخرى نابعة من أيدلوجية الفكر المزدوج وتزييف الحقيقة، الوزارة الأولى هي: [وزارة الحب – Ministry of Love] وفي اللغة الجيدة تسمى [Miniluv] وهي الوزارة المسؤولة عن بث الرعب والخوف والكراهية لدى الشعب من خلال نظام أمني قمعي يعتمد على غسيل الأدمغة ليظل تحت القهر والسيطرة والذل والخنوع، والوزارة لها مبنى عال له أقبية تحت الأرض وآلاف الغرف فوق الأرض، جميع غرف الوزارة بدون نوافذ والدخول للمبنى يكون عبر سياج من الأسلاك الشائكة والأبواب الحديدية وكلها تحت حراسة عدد هائل من الجنود المدججين بالمدافع والرشاشات المخيفة، ومن أهم أقسامها [شرطة الفكر – Thought Police]، وفي اللغة الجديدة يسمى [Thinkpol] الذي يعمل على اكتشاف [جريمة الفكر – Thought Crime] التي يرتكبها المواطنون في التفكير بما يخالف فكر الحزب والأخ الأكبر، وهي جريمة لا يمكن إخفاؤها للأبد فإن عاجلًا، أو آجلًا سيقع مرتكبها في أيدي شرطة الفكر ليتم اعتقاله، وفي الأغلب سيتم التخلص منه، ويتم محو كل سجلاته وكل شيء يتعلق به، أو له فيه ذِكر، ليتلاشى ذكره ويتبخر وتنعدم فكرة وجوده من الأساس.

يوجز (أورويل) وصفه بأن جريمة التفكير لا تعني الموت بل هي الموت ذاته، عندما تمَّ الإيقاع ببطل الرواية (وينستون سميث) قبيل نهاية الرواية هو وحبيبته (جوليا) بتهمة الحب حيث يُجرّم الحب بين الأفراد ليصبح الحب والوله كله للأخ الأكبر، وباتهامه بارتكاب جريمة التفكير دخل على إثرها الغرفة (١٠١) في وزارة الحب وهي الغرفة التي يرى فيها الإنسان أسوء كوابيسه، وقد أصبحت واقع ملموس، حيث يصبح الإذلال علنًا ويتم من خلالها عملية غسيل الدماغ عن طريق التعذيب ليخرج منها المتهم إنسانًا محطمًا تمامًا يعتنق فقط حب الأخ الأكبر، الوزارة الثانية كانت [وزارة الحقيقة - Ministry of Truth] وفي اللغة الجيدة تسمى [Minitru] وهي الوزارة المسئول عن بث الأخبار، والشائعات، والأكاذيب كما تلعب دورًا هامًا في هدم التاريخ، وتزييف الماضي، والعبث بسجلاته بحيث يتوافق الماضي دائمًا مع حاضر الحزب فيتم التعديل يوميًّا في أرشيف الماضي إما بحذف الأخبار، والبيانات السابقة، والتوقعات المستقبلية، والتي لا تتفق مع ما يعلنه الأخ الأكبر وحزبه في الحاضر، أو بتعديلها في جميع السجلات والمراجع القديمة لتؤيد الحقيقة الحاضرة، فشعار آخر للحزب كانت تتولاه وزارة الحقيقة هو أن «من يملك الماضي يملك المستقبل، ومن يملك الحاضر يملك الماضي»، مقر وزارة الحقيقة كان عبارة عن مبنى هرمي ضخم من الأسمنت الأبيض اللامع يناطح

السحاب بطول ثلاثمائة متر، ويتألف من ثلاثة آلاف غرفة فوق سطح الأرض فضلًا عما هو تحتها، كان (وينستون) الشخصية الرئيسية في الرواية يعمل في تلك الوزارة ويقوم بمهمة تزييف الأرقام والتواريخ والأحداث والتوقعات والوعود في السجلات والمطبوعات القديمة من خلال إعادة كتابة التاريخ الحديث للسجلات لتتوافق، وتتطابق مع ما يبثه الحزب من أكاذيب وانتصارات وهمية.

ثالث الوزارات السيادية كانت [وزارة الوفرة - Ministry of Plenty] وفي اللغة الجيدة تسمى [Miniplenty]، والتي كانت تعني بإدارة الفقر، وتجويع الشعب، وتطبيق الشُح بتقليل كميات الطعام، والمواد الاستهلاكية، وتحديدها لاستخدام موارد الدولة في حروب مزعومة طائلة ما أن تنتهي الأمة البائسة من إحداها حتى تدخل في أخرى من خلال [وزارة السلم - Ministry of Peace] وفي اللغة الجيدة تسمى [Minipax]، وهي الوزارة المسؤولة عن إشعال الحروب المستمرة، واستنزاف موارد الدولة ليعيش أبناء الدولة في حالة معاناة اقتصادية مستمرة، وبالتالي منعهم من التعلم بما يكفي لفهم طبيعة السلطة الحقيقية، فالجهل: هو سلاح السلطة لإدارة الشعب والحفاظ على ولائه المطلق مهما تغول الفساد والبؤس.

انشغلت دولة (أوقيانيا)، وهي تمثل مجازاً في رأي الكاتب بريطانيا والولايات المتحدة وتعتبر إحدى ثلاث قوى عظمى بمحاربة القوتين العظمتين الآخرتين وهما [أوراسيا – Eurasia] وهي تماثل بوصفها وطبيعتها الاتحاد السوفيتي السابق ودول أوروبا، ودولة [إيستاسيا – Eastasia] وهي تشابه دولتي الصين واليابان وبعض دول شرق آسيا، فيما تصبح بقية دول العالم من الشرق الأوسط والهند وأفريقيا ساحات لمعارك الديكتاتوريات العظمى الثلاث للسيطرة وإثبات النفوذ، وفضلًا عن إشعال الحروب فإن [وزارة السلم] هي المسؤولة عن التحالفات، فعدو الأمس صديق اليوم دون أي مرجعيات واضحة سوى هوى حزب السلطة الغاشم، الذي يلقي بالشعب في آتون حروب لا طائل منها، واستنزاف موارد لا يستطيع الشعب أن يسأل عنها أو يطالب بها أو حتى يفكر فيها، وتعلن وزارة السلم من خلال شاشات المراقبة بين كل فترة، وأخرى عن انتصارات وهمية متتالية في كل حرب تخوضها من سلسلة الحروب التي لا تنتهي.

يستهل الكاتب السطور الأولى لروايته بجملة مربكة تعرض لها الكثير من النقاد بالتحليل لتصبح واحدة من أشهر افتتاحيات الروايات كاتباً: «كان يومًا مشرقًا باردًا من أيام أبريل، وكانت الساعات تدق الثالثة عشر» حيث بالرغم من تحديد الزمن بالساعة، إلا أننا لا نعلم عن أي عام يحكي وعن أي يوم في شهر أبريل يتحدث الكاتب، وهو ما يوحي بعدم قدرته على التيقن والإدراك

الواعي، وهذا يعطي انطباع مبدئي عن العبث الذي يتم التعرض له بالتاريخ وكذلك عن تشابه الأيام المملة في قسوتها وعنفها، كما أنَّه معروف أن الساعات لا تدق ثلاثة عشر أبدًا فأقصى عدد تدقه هو اثْنَتَا عشر دقة لتعود، وتدق مرة واحدة في الساعة الثالثة عشر أو الواحدة ظهرًا، مما ينقل للقارئ الإحساس بسهولة تغيير الحقائق الثابتة، ثم بعد قليل يهيئنا (أورويل) لهذا العالم البشع غير التقليدي فيحدثنا عن فعالية «أسبوع الكراهية» وأحداث «دقيقتين الكراهية»: وهي فترة يومية إلزامية يجب فيها على أعضاء الحزب مشاهدة فيلم يصور أعداء الحزب، ويعبرون عن كراهيتهم لهم لمدة دقيقتين بالضبط، كانت الدقيقتين كافيتين ليفرغ فيها الحضور شحنة الغضب بداخلهم بحيث تكون موجهة لأعداء الحزب بالسخط عليهم وذلك بالاعتراض والصخب والضجيج والسباب والتلويح بقبضات اليد كوعيد بالانتقام، وفي نهاية الدقيقتين يتولد شعور بالارتياح والولاء والشكر والثناء مع ظهور صورة الأخ الأكبر الحامي الأكبر لهم.

يرى الكاتب أن انفعالات الكراهية الجماعية كانت مُعدية حيث تنتقل لا شعوريًا من شخص لشخص آخر مجاور له بالصياح والهجوم والسباب والوعيد لأعداء الأخ الأكبر، وإن كان يُعتقد ضمنيًّا أن هذه الشحنة من الغضب طائشة وغير محددة الوجهة، ومن الممكن تحويلها من وجهة إلى أخرى مثل لسان لهب متصاعد، لذلك فإن حالة الغضب والكراهية عندما تملكت (وينستون) خلال دقيقتي الكراهية لمْ تكنْ موجهة لعدو الأخ الأكبر، ولكن على النقيض كانت موجهة داخليًّا إلى الأخ الأكبر، والحزب وشرطة الفكر.

كان العدو الرئيسي للأخ الأكبر هو [إيمانيوال جولدشتاين - Emmanuel Goldstein] ذلك الخائن المرتد الذي كان في يوم ما من رموز الحزب القيادية، وكانت مكانته تكاد تضاهي مكانة الأخ الأكبر، ولكنه طبقاً لرواية السلطة تآمر على الحزب واشترك في نشاطات معادية للثورة من وجهة نظر الأخ الأكبر فحُكم علي (جولدشتاين) بالموت، ولكنَّه تمكن من الهرب، واختفى على الأنظار، كان (جولدشتاين) يستنكر ديكتاتورية الحزب، ويطالب بحرية الفكر وحرية الصحافة وكذلك بالسلام الفوري مع (أوراسيا)، كان الحزب يروج أن (جولدشتاين) قائد لجيش خفي كبير، وشبكة سرية من المتآمرين لا هدف لها إلَّا الإطاحة بالأخ الأكبر، وتسمى تلك الرابطة [الإخوان Brotherhood –]، ومنهجهم يقوم على كتاب سري يُتداول خلسة بين الناس بعنوان: «الأقلية الطاغية بين النظرية والتطبيق - The Theory and Practice of Oligarchical Collectivism»، وحقيقة لن يستطع القارئ خلال قراءته لأحداث الرواية التيقن من وجود تلك الرابطة بالفعل أم أن الأمر كالمعتاد وَهْم يعيش في فقط خيال الحزب والأخ الأكبر، بل شخصية (جولدشتاين) بالأساس يسودها الغموض، وقد يكون لا واقع حقيقي له في ظل عالم يسوده

الزيف، أو قد يكون عدوًا ابتكره الحزب ليكون (فزاعة) وذريعة للقبض على الأبرياء الذين قد يرتكبون جريمة الفكر، وبالتالي يظل الشعب تحت التهديد الدائم بجريمة محاولة التفكير في تأييد (جولدشتاين)، وجماعته، فعندما سأل (وينستون) بعد القبض عليه بجريمتي التفكير والحب عميل الحزب (أوبراين) الذي اكتشفه ووشى به وحقق معه عن حقيقة وجود منظمة (الإخوان)، أجابه (أوبراين) بأنَّ ذلك ما لن يستطيع معرفته أبدًا، فإذا أطلقوا سراحه بعد الانتهاء من تأهيله، وعاش حتى سن التسعين فلن يعلم إجابة لهذا السؤال، وطالما كان (وينستون) على قيد الحياة فسيبقى ذلك الأمر لغزًا في عقله لن يستطيع حله أبدًا.

يخبر «أوبراين» من خلال سطور الرواية بأنَّ الكِتاب المُعارض المُتداول سرًا بأنَّه قد تمت كتابته بمعرفة رجال الحزب بل، ولقد شارك (أوبراين) نفسه في كتابته، وقد شبه كثيرين بين (جولدشتاين)، والماركسي البارز، وأحد زعماء ثورة أكتوبر ١٩١٧ في روسيا [ليون تروتسكي - Leon Trotsky]، والذي احتدم الصراع بينه وبين القائد السوفيتي (جوزيف ستالين) حيث انتهى الصراع لصالح (ستالين)، وتمَّ عزل (تروتسكي) من الحزب، وتهجيره خارج البلاد بعد اتهامه بممارسة أنشطة معادية للحزب ومبادئه، ووُجهت له عام ١٩٣٧ تهمة الخيانة العظمى وحكم عليه غيابيًا بالإعدام، ومنظمة [الأممية الرابعة - Fourth International] الاشتراكية التي أسسها رفقاء (تروتسكي) أقرب ما تكون لمنظمة (الإخوان) في الرواية، في حين أن الأخ الأكبر هو أكثر تشابها مع الزعيم السوفيتي (ستالين) بنظامه السلطوي الشمولي الديكتاتوري وحزبه الشيوعي هو حزب الأخ الأكبر الذي يسيطر على مقادير الأمور ومقدرات الشعب.

في أغسطس ١٩٤١ اجتاحت القوات الروسية وقوات الكومونولث البريطانية إيران، وذلك لتأمين حقول النفط التي تمد دول الحلفاء وخاصة الاتحاد السوفيتي بالنفط، حيث كان النظام بزعامة شاه إيران (رضا شاه بهلوي) صديقًا لألمانيا، قامت القوات الروسية البريطانية بعد نجاح الغزو بعزل شاه إيران وتعيين ابنه (محمد رضا بهلوي) خلفًا له، ثم عُقدت أول قمة لزعماء الحلفاء في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩–١٩٤٥) في العاصمة الإيرانية (طهران) من ٢٨ نوفمبر إلى ١ ديسمبر ١٩٤٣ بحضور الزعيم السوفيتي (ستالين)، والرئيس الأمريكي (فرانكلين روزفلت)، ورئيس الوزراء البريطاني (وينستون تشرشل)، أطلق على اجتماع الدول الثلاثة المشاركة، وهم الاتحاد السوفيتي وبريطانيا والولايات المتحدة اجتماع [القوى العظمى الثلاثة – Big Three]، تم عقد هذا المؤتمر داخل السفارة السوفيتية في (طهران)، وكان الهدف الرئيسي هو التخطيط لمواجهة المد النازي خاصة في أوروبا الغربية، وللتنسيق على فتح جبهة جديدة في أوروبا الغربية لمواجهة القوات الألمانية،

وتحديدًا في شمال فرنسا لعرقلة انسحاب القوات الألمانية في الجبهة الشرقية، وكذلك كان المؤتمر يهدف إلى تقاسم السيطرة على الدول العالم المختلفة بين القوى الثلاثة، وتبادل وجهات النظر حول كيفية تقسيم ألمانيا، وفكرة إنشاء تكتل دولي الذي عُرف لاحقًا باسم الأمم المتحدة، استلهم (أورويل) جزءًا من أحداث روايته من لقاء الزعماء المتحالفين في «مؤتمر طهران - Tehran Conference»، حيث رأى (أورويل) على غرار تحليلات المنظر الأمريكي (بورنهام) أن هذا المؤتمر يمثل بدايات تشكيل القوى العظمى التي ستسيطر على العالم، وهو ما وضعه على طريق البداية لكتابة الرواية، حيث يزعم أحد زملاء (أورويل) بأنَّه كان يؤمن بأن الزعماء الثلاثة خططوا لتقسيم العالم في ذلك المؤتمر، ولكن فكرة الرواية الأساسية تولدت قبل ذلك عندما عمل كمُراسل حربي لنقل مجريات الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ – ١٩٣٩) التي كانت عبارة عن صراع بين الديمقراطية والفاشية، أو صراع بين الثورة اليسارية والثورة المضادة اليمينية، وانتهت بتوطيد حكم الديكتاتور الدموي العسكري [فرانشيسكو فرانكو - Francisco Franco] لإسبانيا لمدة ٣٦ عاما حتى وفاته في نوفمبر ١٩٧٥ عن عمر ٨٣ عاما.

وصل (أورويل) إسبانيا في ديسمبر ١٩٣٦ وانضم إلى أحد ميليشيات المقاومة اليسارية، وهم من الاشتراكيين المعارضين للزعيم السوفيتي (ستالين)، بالرغم من قسوة الحرب لاحظ (أورويل) المفتون بالاشتراكية أن العمال استمروا في إدارة المصانع، ووسائل الحياة في برشلونة كما وصف في كتابه (الحنين إلى كتالونيا - Homage to Catalonia)، حيث كانت المدينة نموذجًا حيًا للمساواة، وكانت البطالة شبه معدومة، واختفى المُتسولون من الشوارع، واندثرت الألقاب لتحل محلها كلمة «رفيق».

«هنا يرقد جسد (إريك آرثر بلير) ولد في ٢٥ يونيو ١٩٠٣ – توفي ٢١ يناير ١٩٥٠» هذا هو ما كُتب على شاهد مقبرة (جورج أورويل) داخل المقابر الأنجليكية في [أوكسفوردشاير – Oxfordshire] جنوب شرق إنجلترا، حيث دُفن فيها تنفيذًا لوصيته، اشتهر (إريك آرثر بلير) باسم (جورج أورويل)، وهو الاسم الذي كان يستخدمه في توقيع مقالاته وتقاريره الصحفية، في صباح يوم السبت ٢١ يناير ١٩٥٠ فارق (أورويل) الحياة وحيدًا بالغرفة رقم ٦٥ داخل [مستشفى لندن الجامعي - University College London Hospitals] بعد تعرضه لنزيف حاد، إثر إصابته بمرض السل الذي ظل يعاني منه خلال سنواته الثلاث الأخيرة، عندما توفي (أورويل) لمْ يكنْ قد مر أكثر من ستة أشهر على نشر رواية [١٩٨٤]، لذلك لم يشهد الكاتب مدى صدى وقوة تأثير روايته، وما أحدثته في الأدب العالمي والذي كان من نتائجها ظهور مصطلح (أورويلي – Orwellian) وهي صفة تصف وضعا أو حالة مجتمعية، أو فكرة مدمرة لرفاهية

مجتمع حر ومفتوح، حيث تعمل الأنظمة على السيطرة على عقول، وفكر الناس كما استطاع أن يصفها (أورويل) في روايته، ساعدت الظروف التي كتبت فيها رواية ١٩٨٤ على إبداع الكاتب في إضافة مزيدًا من السوداوية، والبؤس على الجو العام للرواية، حيث بدأ (أورويل) كتابتها في مايو ١٩٧٤ ولمْ يستطعْ أن ينجز مسودتها نتيجة تدهور صحته حتى استأنف كتابتها شتاء ١٩٤٧ – ١٩٤٨ داخل كوخ ريفي منعزل بجزيرة [جورا – Jura] بأقصى الشمال الأسكتلندي وسط أجواء من البرد القارس، حيث وُصف هذا الشتاء بأنَّه الأبرد في القرن العشرين، كان الكوخ متواضعًا بدون كهرباء، أو إنارة حيث تستخدم مصابيح البارافين للإضاءة، ويستخدم الفحم لتسخين المياه والتدفئة، وأسطوانات غاز الكالور للطهي وتسخين المياه، كان الكوخ ملكًا لصديقه [ديفيد أستور - David Astor] الناشر والمحرر الصحفي لصحيفة (الأوبزرفر) التي يمتلكها والده، وبحس (أستور) الصحفي شعر بأنَّ لدى (أورويل) رواية عظيمة فأعفاه من الصحافة، وأي أعمال صحفية ليتفرغ لكتابة الرواية، كان (أورويل) قد التحق للعمل في صحيفة (الأوبزرفر) عام ١٩٤٢ حيث عمل فيها مراجعًا للكتب ثمَّ مراسلًا، وعرض عليه (أستور) أن يقيم في الكوخ الإسكتلندي المنعزل الذي يملكه والمطل على البحر، فرحب (أورويل) بذلك الأمر كثيرًا، وكان سعيدًا بتلك العزلة حيث لمْ يكنْ يرافقه هناك سوى شقيقته (أفريل) التي كانت بمثابة مربية لابنه بالتبني (ريتشارد).

كان (أورويل) يعاني وقتها من مرض [السُلّ - Tuberculosis (TB)] حيث تدهورت حالته الصحية عدة مرات بشدة نتيجة مضاعفات المرض، بالإضافة إلى السعال والحمى والتعرق الليلي وفقد الوزن، أراد أورويل إنجاز الرواية فكان يتجاهل معاودة الطبيب عندما تشتد عليه نوبات مرض السل الذي لمْ يكنْ قد تمَّ اكتشاف علاج له بعد، لمْ يكنْ (أورويل) راضيًا عن النسخة الأولية للرواية، ورأي أنَّها سيئة للغاية، وغير مفهومة، وطويلة جدًا، ومع تردي حالته الصحية شعر بأنَّه في حالة سباق مع الزمن للانتهاء من النسخة النهائية للرواية حيث أصبح عاجزًا عن السير فعكف على استكمالها على سريره حتى أتمَّ كتابتها في ٣٠ نوفمبر ١٩٤٨، لمْ يكنْ (أورويل) قد حسم أمره نحو عنوان للرواية فقد كان مترددًا بين عنوان: «آخر رجل في أوروبا» وعنوان آخر وهو [١٩٨٤] وهو التاريخ المعكوس لسنة كتابة الرواية، حيث يعتبر الكاتب أن أحداث الرواية تعتبر استشرافًا لمستقبل العالم في تلك الفترة، وتدور أحداثها في هذا العام.

كتب (أورويل) إلى الناشر البريطاني [فريدريك واربورج - Fredric Warburg] يخبره بترددده، ويعلمه بأنَّه سيحاول التفكير في عنوان آخر خلال أسبوع أو أسبوعين، ولكن (ورابورج) حسم الأمر باختياره عنوان [١٩٨٤] لحسابات تجارية باعتباره أكثر جاذبية للقارئ، أرسل (أورويل) الكتاب للناشر في اليوم

الأخير من نوفمبر ١٩٤٨، ثمَّ ذهب مباشرة إلى المستشفى لتلقي العلاج حيث كتب إلى صديقه (أستور) يخبره بأنَّه كان ينبغي عليه أن يكون في المستشفى قبل شهرين، ولكنه أراد إنجاز الرواية أولًا، ما أن استلم (واربورج) الرواية حتى أدرك مباشرة أهميتها، حيث قال لزملائه في دور النشر أنَّها واحدة من أشد ما قرأت إثارة للرعب، ثمَّ أخبر العاملين بالدار عبر مذكرة داخلية بأننا ينبغي أن نطلق على أنفسنا الرصاص إذ لم نتمكن من بيع ما بين ١٥ ألف إلى ٢٠ ألف نسخة من تلك الرواية، بيعت ملايين النسخ من تلك الرواية منذ صدورها للمرة الأولى في ٨ يونيو ١٩٤٩ وتعد واحدة من أكثر كتب القرن العشرين طباعة وتوزيع، ومن وقت لآخر تحتل قائمة أكثر الكتب مبيعًا لدى كبرى دور النشر نتيجة لارتباط بعض الأحداث الجارية في دولة ما، أو منطقة ما، أو طاغية ما، أو نظام ما، بفقرات من الرواية.

عند حدوث أي بوادر لحكم ديكتاتوري سلطوي يتمَّ استدعاء تلك الرواية حيث تمثل حال النظم الشمولية، وكذلك التقنيات، والأساليب، والأفكار التي تستخدمها تلك الأنظمة للسيطرة على شعوبها لتكون مؤشرًا، أو جرس إنذار، فلا يكاد يخلو أي نظام ديكتاتوري من بعض الظواهر، والأساليب والسمات الذي تطرقت لها الرواية، لذلك انزعج الرأي العام الأمريكي بتعبير (كيليان كونواي) مستشارة الرئيس الأمريكي (دونالد ترامب) عندما قالت (حقائق بديلة)، وذلك لتبرير تصريحات كاذبة من قبل السكرتير الصحفي للبيت الأبيض، وبالرغم من أن تعبير (حقائق بديلة) ليس موجود بالرواية إلا أنا منصات التواصل الاجتماعي ربطت بين التعبير، والرواية في طرحها لفكرة (التفكير المزدوج)، وإشاراتها لسياسة (اللغة الجديدة) تلك اللغة التي تعبث بالمعنى الأصلي للكلمات وتُستخدم لقمع الفكر، وترويج الأكاذيب، والتلاعب بالحقائق وتضليل الشعوب.

لمْ تكنْ تلك هي المرة الوحيدة التي ارتفعت فيها مبيعات الرواية، فخلال الخمسون عاما الماضية، ما إن يخفت اسم (جورج أورويل) وروايته [١٩٨٤]حتى يعود بشكل أكثر بريقًا وتألقًا، فارتفعت مبيعات الرواية بشكل ملحوظ عام ١٩٨٠ نظرًا لاقتراب عام ١٩٨٤ التي تشير إليه الرواية، وكذلك عام ١٩٨١ عند بدايات حكم الرئيس الأربعون للولايات المتحدة الأمريكية (رونالد ريجان) حيث تمَّ تشبيهه بالأخ الأكبر، كذلك ارتفعت مبيعات الرواية مرة أخرى بشكل ملحوظ عام ٢٠١٣ عندما قام [إدوراد سنودن - Edward Snowden] الموظف السابق في وكالة الاستخبارات المركزية بنسخ، وتسريب معلومات سرية من وكالة الأمن القومي، وعمليات المراقبة التي تقوم بها وذلك في يونيو ٢٠١٣، حيث أعادت للأذهان المصطلحات الشهيرة بالرواية مثل الأخ الأكبر، شرطة الفكر، الغرفة (١٠١)، التفكير المزدوج، وفي ١٦ يناير ٢٠١٨ أعلنت [نينا جانيش - Nina Janich] أستاذ اللغويات في [جامعة

دارمشتات للتكنولوجيا- Technische Universität Darmstadt] والمتحدثة الرسمية لِلَجنة خبراء اللغة التي تنعقد سنويًّا كما هو متبع منذ عام ١٩٩١، عن اختيار تعبير [حقائق بديلة - Alternative Fakten] كأسوأ كلمة في ألمانيا لعام ٢٠١٧ من بين ٦٨٤ كلمة قامت لجنة التحكيم المكونة من ٦ لغويين بفحصها، وقالت اللجنة في تفسيرها للمصطلح بأنَّه تعبير غامض ومضلل لمحاولة تقديم تأكيدات زائفة بشكل مقبول اجتماعيًا، لمْ تكنْ فقط المصطلحات والكلمات الاستثنائية التي استخدمها (أورويل) في روايته هي التي أصبحت شائعة، ولكن كانت هناك مقولات من الرواية أصبحت اقتباسات شهيرة، وأقوال مأثورة تحمل في جنابتها معاني عميقة مثل:

إذا أردت أن تحتفظ بسر ما، عليك أن تخفيه عن نفسك أيضًا.

الولاء يعني انعدام التفكير، بل انعدام الحاجة للتفكير، الولاء هو عدم الوعي.

القوة تكمن في تدمير العقول، وتحويلها إلى أشلاء، ثمَّ إعادة بناءها مرة أخرى في شكل جديد حسب اختيارك.

لا أحد يخلق ديكتاتورية ليحمي بها ثورة.

لن يثوروا حتى يعوا، ولن يعوا إلا بعد أن يثوروا.

دائمًا ما ينحصر اختيار الإنسان بين السعادة، والحرية لكن معظم البشر ترى أن السعادة أفضل.

إن السلطة ليست وسيلة بل غاية.

كلما ازداد الحزب قوة، ومِنْعَة قلت درجة تسامحه، وكلما ضعف معارضو السلطة اشتدت قبضة الاستبداد، والطغيان.

الحزب يسعى وراء السلطة من أجل مصلحته فقط، لسنا معنيين بمصلحة الآخرين، نحن نسعى وراء السلطة، والسلطة المطلقة فقط.

الماضي أُمّحى من الوجود، وما تمَّ محوه بات طي النسيان فصارت الكذبة حقيقة.

إن الحزب لا يمانع في منحهم حرية فكرية طالما أنَّهم مجردون من القدرة على التفكير.

الجماهير لا تثور من تلقاء ذاتها مطلقًا، كما أنَّها لا تثور لمجرد تعرضها للاضطهاد، وما لم تتح لها إمكانية المقارنة بين أوضاعها الراهنة وبين أوضاع أخرى، فإنها لن تدرك أبدًا حقيقة كونها مضطهدة.

قبيل نهاية الرواية أسهب الكاتب في الوصف باعتبار أن الغرفة (١٠١) بوزارة الحب، والتي تقع على مسافة أمتار أسفل سطح الأرض هي الجحيم المطلق، وقد لفتت الرواية منذ صدورها نظر البعض بالنسبة لرقم الغرفة، حيث عمل (أورويل) في الخدمة العالمية لهيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي – BBC) منذ أغسطس ١٩٤١ وحتى نوفمبر ١٩٤٣ حيث كان يكتب للهيئة تقارير أسبوعية موجهة للهند بشكل رئيسي، وتقديم برامج إذاعية موجهة لآسيا، وكان يضطر أحيانًا إلى حضور اجتماعات مملة لا نهاية لها داخل مبنى الهيئة في حجرة بنفس الرقم وكأن (أورويل) يشير إلى تلك الغرفة، وفترة عمله بأنَّها الجحيم المطلق، في ٧ نوفمبر ٢٠١٧ أزيح الستار عن تمثال للروائي البريطاني في باحة مبنى هيئة الإذاعة البريطانية الجديد بالعاصمة البريطانية، وذلك على بعد دقائق قليلة من مكان عمل أورويل كصحفي إذاعي خلال الحرب العالمية الثانية، صمم التمثال النحات البريطاني [مارتن جينينجز – Martin Jennings] الذي رأى أن المكان الذي سينصب فيه التمثال عبارة عن منطقة غير رسمية للتدخين، ولذا فإنَّه من المناسب أن يظهر تمثال (أورويل)، وهو يمسك سيجارة بيد واحدة، وقد بدا (أورويل) في التمثال طويل القامة، ونحيفًا وغير مكترث بملابسه، وهي صفات يرى النحات أنَّها كانت تظهر بوضوح على (أورويل)، رأي (جينينجز) أن مكان وضع التمثال يحتاج إلى كلمات تكتب خلف التمثال حيث لن تكتمل تلك الصورة بدون تلك النقوش، فاستقر الرأي على هذا الاقتباس من روايته الشهيرة الصادرة عام ١٩٤٥ بعنوان: «مزرعة الحيوان – Animal Farm»

«إذا كان للحرية معنى على الإطلاق، فإنَّها تعني الحق في قول ما لا يريد البشر سماعه".

وكأن (أورويل) بهذه الكلمات يخاطب الصحفيين المعنيين بالقضايا السياسية في هيئة الإذاعة البريطانية أثناء استراحتهم القصيرة حيث يقومون فيها بالتدخين، وكأن الهيئة تعبر من خلالها عن القيم التي تنادي بها وتدافع عنها أمام عامة الجمهور.

في عام ١٩٨٤ أخرج [مايكل رادفورد - Michael Radford] فيلم [١٩٨٤] المقتبس عن الرواية وشارك في كتابته، وتمَّ ترشيحه للحصول على جائزة [الأكاديمية البريطانية لفنون السينما والتلفزيون – BAFTA] لأفضل عمل فني، كما حصل على جائزة أحسن فيلم [التيوليب الذهبية – Golden Tulip] من مهرجان إسطنبول السينمائي الدولي في دورته الرابعة عام ١٩٨٥، وكان حظ الفيلم مثل الرواية حيث يُعاد استدعائها من فترة إلى أخرى، ففي تقرير لوكالة (رويترز) في ٥ أبريل ٢٠١٧ أوضح فيه أن ٢٠٠ دار عرض مستقلة أعادت عرض الفيلم بعد الضجة التي أثيرت بسبب التعبير الذي استخدمته

(كيليان كونواي) عن [الحقائق البديلة]، ظهر (أورويل) على غلاف (مجلة التايم - Time Magazine) الأمريكية في عددها الصادر ٢٨ نوفمبر ١٩٨٣ وقبيل بداية عام ١٩٨٤، وقام بتصميم الغلاف الرسام الأمريكي [رونالد بروكس كيتاج - R.B. Kitaj] حيث تظهر لوحة زيتية لشخصية (أورويل) بملامحه الحادة، وأنفه الحاد المدبب، والطويل وشاربه الرفيع تترصده في الخلفية عين لا شك أنَّها عين (الأخ الأكبر)، وكتب على الغلاف (١٩٨٤ «والد الأخ الأكبر» – «Big Brother’s Father ١٩٨٤»)، وكان عنوان التقرير الداخلي الذي كتبه المحرر (بول جراي - Paul Gray) هو: «تلك السنة... أوشكت على القدوم - That Year Is Almost Here».

لم تجد شركة (أبل) عندما قررت طرح الكومبيوتر الشخصي [أبل ماكنتوش - Apple Macintosh] في يناير ١٩٨٤ أفضل من فكرة رواية ١٩٨٤، حيث أرادت (آبل) أن يثور المستخدمون في تلك الفترة على محتكر سوق الحواسيب الشخصية العملاق (أي بي إم – IBM)، حيث ترى أنَّه يفرض تكنولوجيا فقيرة وعقيمة على عملاؤه باعتبار منتجاتها الأحدث، والأكثر تقدما وفعالية، كلفت (أبل) المخرج السينمائي الشهير [ريدلي سكوت - Ridley Scott] بإخراج الإعلان الذي تكلف وقتها ميزانية خيالية وصلت إلى ٩٠٠ ألف دولار، في الإعلان يظهر أناس في مجمع صناعي قاتم بألوان باهتة، وموحدة بين الأزرق والرمادي يمشون بخطوات عسكرية داخل نفق دائري تؤدي نهايته إلى قاعة محصنة بها شاشة عملاقة يملأ سطحها وجه (الأخ الأكبر) بنفس المواصفات التي ذكرها (أورويل)، كان (الأخ الأكبر)، والذي قام بأداء دوره الممثل الإنجليزي [ديفيد جراهام - David Graham] يلقي بإحدى خطاباته المملة ذات الكلمات المتتابعة والمتلاحقة والسريعة، كلمات تشعرك أنَّها أكاذيب يسوقها لك وكأنَّها حقائق، بينما يجلس الحضور على مقاعد خشبية، أو حديدية تشبه مقاعد المساجين مسلوبي الإرادة مستمعين دون أي تعابير على وجوههم التي تطلعت إلى وجه الرجل الأكبر في الشاشة الكبيرة، يقول الأخ الأكبر الذي تردد صوته في خلفية الإعلان قبل ظهور صورته:

«اليوم، نحتفل بالذكرى الأولى المجيدة لتوجيهات تنقية المعلومات. لقد أنشأنا لأول مرة في التاريخ حديقة من الأيديولوجية الخالصة حيث يزدهر فيها كل عامل آمنًا من الآفات التي تنقل له الحقائق المتناقضة. توحيد أفكارنا هو سلاح أكثر قوة من أي أسطول، أو جيش على الأرض، نحن شعب واحد بإرادة واحدة وعزيمة واحدة وقضية واحدة، سيتحدث أعداؤنا إلى أنفسهم حتى الموت... وسندفنهم بحيرتهم. سننتصر!»

تلك الكلمات التي تعطي انطباعًا بصيغة وأسلوب خطب زعماء الدول الشمولية والسلطوية، تظهر على الشاشة فتاة شابة بالألوان الكاملة

الطبيعية وتبدو هيئتها مختلفة وترتدي ملابس رياضية وتركض نحو الشاشة الكبيرة، وتحمل في يدها مطرقة كبيرة، ويطاردها أربعة من الحراس يرتدون ثياب شرطة مكافحة الشغب وكأنَّهم من (شرطة الفكر) محاولين اللحاق بها. تنجح الفتاة التي قامت بأداء دورها الرياضية الإنجليزية [أنيا ماجور - Anya Major] في الوصول قرب الشاشة قبل اللحاق بها، حيث تفلح في أن تقذف بالمطرقة في الهواء لتسقط على الشاشة العملاقة التي تحمل صورة الرجل الأكبر وهو يقول: «سننتصر»، لتنفجر الشاشة ويسطع منها ضوء الحرية على المتفرجين، ثم ينزل نص يقول: «في يوم ٢٤ يناير سوف تقدم (أبل) جهاز (ماكنتوش) وسوف تعرف لماذا لن تكون ١٩٨٤ مثل [١٩٨٤]».

بالطبع كانت الفتاة ترمز لشركة (آبل) التي تتمرد على سيطرة (الأخ الأكبر)، والذي يرمز لشركة (أي بي إم)، وتحطيم الشاشة يرمز إلى أن حواسيب (أبل) الشخصية أداة للتمكين والتحرر من سيطرة الرقيب، الغريب أن الإعلان على غير العادة لمْ يظهرْ فيه أي صورة للجهاز الجديد المعلن عنه، أو أي تفاصيل، أو مميزات عنه، أعجب رئيس الشركة [جون سكولي - John Sculley]، والمؤسس [ستيف جوبز - Steve Jobs] بالإعلان، على عكس بقية أعضاء مجلس إدارة الشركة الذين لم يستسيغوا الإعلان، ولا الفكرة لدرجة أن أحد أعضاء مجلس الإدارة بادر بالتعليق بأنَّه من أسوء الإعلانات التي شاهدها، بينما طالب عضو مجلس الإدارة [مايك ماركيولا - Mike Markkula] بضرورة البحث عن وكالة دعاية جديدة، عُرض الإعلان للمرة الأولى في ٢٢ يناير ١٩٨٤ أثناء المباراة النهائية الثامنة عشرة في دوري كرة القدم الأمريكية التي يطلق عليها [سوبر بول -Super Bowl]، وعقب النجاح الذي حققه الإعلان اجتمع مجلس إدارة أبل في نهاية شهر يناير حيث استقبل أعضاء مجلس الإدارة فريق إعلان (ماكنتوش) بالتصفيق الحار، والوقوف تحية لنجاح الإعلان وتعبيرًا عن سوء تقديرهم السابق لقيمته، لاحقًا اُعتبر الإعلان نقطة تحول كبيرة في عالم الإعلانات التليفزيونية، وفي مارس ١٩٩٥ اختارته وكالة «Ad Age» المتخصصة في التحليل المعلوماتي للتسويق والإعلان ليتصدر قائمة أفضل ٥٠ إعلان تليفزيوني منذ اختراع التليفزيون، وهو نفس الترتيب الذي احتله في صدارة قائمة مجلة [دليل التليفزيون – TV Guide] التي أصدرتها عام ١٩٩٩ لأفضل عشرة إعلانات تليفزيونية على مدار التاريخ.

فارق (أورويل) الحياة صغيرًا عن عمر ٤٦ سنة، وذلك بعد ستة أشهر من نشر الرواية، لذلك لمْ تكنْ هناك نسخ تحمل توقيعه من الطبعة الأولى التي بلغت ٢٦,٥٧٥ نسخة باستثناء عدد محدود جدًا، وصلت قيمة النسخة الموقعة بيده بعد التحقق من أصل توقيعه إلى ١٠ آلاف دولار أمريكي، بينما وصلت قيمة نسخة الطبعة الأولى غير الموقعة ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف دولار حسب

تقرير مكتبة [بيبلو – Biblo] الإنجليزية المتخصصة في الكتب النادرة، والكلاسيكية.

لمْ يلتقْ كل من رئيس الوزراء البريطاني (وينستون تشرشل) و(أورويل) في الواقع، ولكن يبدو أن كل منهما كان معجب بالآخر، حيث قرأ (تشرشل) رواية [١٩٨٤] مرتين وأشاد بها، وكانت الشخصية الرئيسية والمحورية للرواية تحمل اسم (وينستون)، وكان آخر ما كتبه (أورويل) قبل وفاته هو مراجعة لمذكرات (تشرشل) عن الحرب العالمية الثانية، وبالرغم من أن (تشرشل) يُصنف كإمبريالي محافظ في حين أن (أورويل) كان اشتراكيًّا إلّا أن كليهما يشترك في الإيمان بأهمية كشف الحقائق قبل الأيدولوجيات، وكلاهما لديه القدرة على النقد الذاتي، تمَّ حجب الرواية، وحرق نسخها عام ١٩٥٠ في الاتحاد السوفيتي، حيث كان امتلاك نسخة منها يعني الاعتقال بسبب الآراء الواردة فيها، والمعادية للشيوعية، ولكن عادت الرواية للتداول عام ١٩٩٠ بعد مراجعتها، وتعديل بعض فقراتها قبيل سقوط الاتحاد السوفيتي في ديسمبر ١٩٩١، وفي عام ١٩٨١ تعرضت للحجب في مقاطعة (جاكسون) بولاية (فلوريدا) كون الرواية تعادي الشيوعية، وهو سبب أثار كثير من علامات الاستفهام، وتعرضت الرواية للتدقيق في ولاية [إيداهو – Idaho] شمال غرب الولايات المتحدة عام ٢٠١٧ بسبب انتقاد رجال الدين للرواية لاحتوائها على لقطات جنسية صريحة، وعلاقة جنسية تتم خارج نطاق الزواج الشرعي.

كذلك مُنعت الرواية ضمنيًّا من التداول في الصين، وبعض الدول العربية في بعض الأزمنة السابقة دون أن يكون هناك إعلان رسمي بذلك، وفي ٩ نوفمبر ٢٠١٤ نشرت بعض المواقع الصحفية المصرية خبرًا بقيام الخدمات الأمنية المعينة بمحيط جامعة القاهرة بإلقاء القبض على طالب جامعي، وعَزت السبب إلى حيازته نسخة من كتاب [١٩٨٤]، وبعد ثلاثة أيام من الواقعة قرر قطاع الأمن الوطني بوزارة الداخلية المصرية إطلاق سراح الطالب، ودفعت تلك الواقعة إلى زيادة الطلب على الرواية بشكل كبير، وارتفعت مبيعاتها بشكل واضح رغم تضاعف سعرها، حيث تمت طباعة ١٠ آلاف نسخة جديدة خلال أيام قليلة من إعلان الخبر حسب تقرير جريدة (المصري اليوم) المصرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إدسا... شارع الثورة

عند الساعة الواحدة بعد ظهر يوم الأحد ٢١ أغسطس ١٩٨٣ هبطت طائرة الرحلة رقم CI-٨١١ التابعة للخطوط الجوية الصينية على أحد مدارج مطار (مانيلا) الدولي قادمة من العاصمة التايوانية [تايبيه – Taipei]، كانت أهمية الرحلة تكمن في وجود المعارض الفلبيني الأبرز السيناتور [بينجنو أكينو - Benigno Aquino] (٥٠ عاما) وكُنيّته [نينوي أكينو – Ninoy Aquino]، كان (نينوي) معارضًا سياسيًّا قويًّا للرئيس الفلبيني الديكتاتور [فرديناند ماركوس - Ferdinand Marcos] الذي تولى الحكم عام ١٩٦٥ وقبض على أواصر الدولة بيد من حديد، سريعًا تحول حكم (ماركوس) بعد انتخابه رئيسًا إلى حكم سلطوي شمولي فتم قمع المعارضة، وتكميم الإعلام الحر، وترهيب المواطنين، واستخدام العنف ضد الشيوعيين والمسلمين.

استغل (ماركوس) نمو الحركات الشيوعية وسلسلة من التفجيرات لعل أشهرها ذلك التفجير الذي وقع يوم ٢١ أغسطس ١٩٧١ في تجمع القوى الليبرالية في ميدان [ميراندا بلازا - Plaza Miranda] إلى إعلان الأحكام العرفية في سبتمبر ١٩٧٢، تلك الأحكام العرفية التي عطلت دستور البلاد لكي يضمن استمراره في مقعد الرئاسة حيث لمْ يكنْ يتبقى على بقائه في الحكم أكثر من عام، فقد كان الدستور يحدد فترة الرئاسة ب ٤ سنوات وبحد أقصى فترتين للرئيس الواحد، قام (ماركوس) عقب إعلان الأحكام العرفية، وتعطيل الدستور، بحل مجلس الشيوخ، والقبض على الناشطين السياسيين، وزعماء المعارضة، وأعضاء من مجلس الشيوخ المنحل ومنهم السيناتور (نينوي أكينو)، يعتبر (نينوي أكينو) أصغر سيناتور في الجمهورية حيث تمَّ انتخابه عام ١٩٦٦ سيناتور في مجلس الشيوخ الفلبيني عن عمر ٣٤ عامًا، كان (نينوي أكينو) من أوائل من تمَّ اعتقالهم عقب تطبيق الأحكام العرفية مع قادة المعارضة الشيوعية ووجهت له تهم عدة منها القتل، والتخريب وحيازة الأسلحة بشكل غير قانوني، بعد ثلاث سنوات من اعتقاله في حجز انفرادي وفي يوم ٤ أبريل ١٩٧٥ دخل (نينوي أكينو) في إضراب شامل عن الطعام احتجاجًا على الظلم الذي أحاط بمحاكمته العسكرية، وطلب سحب جميع الالتماسات التي قدمها للمحكمة العليا، ولم يتم النظر فيها، بعد أسابيع من الإضراب تدهورت حالته الصحية بشكل كبير، وانخفض وزنه ١٦بمقدار كجم ليصبح ٣٦ كجم، بينما أستمرت عائلته ومحبيه من المواطنين في الدعاء له بالنجاة، وبعد استعطافهم له مرات عديدة أنهى (نينوي أكينو) يوم الثلاثاء ١٣ مايو ١٩٧٥ إضرابه عن الطعام بعد مرور ٤٠ يومًا، استطاع خلالها لفت الأنظار لقضيته، وإن كانت لم تسفر حينها عن أي نتيجة إيجابية.

تقدم عدد من الجنود داخل الطائرة القادمة من العاصمة التايوانية التي تقل (نينوي أكينو) لاصطحابه من داخل الطائرة إلى السيارة التي سوف تقله إلى مقر الاعتقال، في الساعة الواحدة وأربع دقائق ظهرًا خرج (نينوي أكينو) من باب الطائرة بصحبة الرقيب [كلارو لات - Claro L. Lat] الذي تأبط ذراعه الأيمن متقدمًا إيَّاه قليلًا، بينما تأبط الرقيب [أرنولفو دي ميسا - Arnulfo de Mesa] الذراع اليسرى للسيناتور ومتأخرًا قليلًا عنه، وكان خلفهم بخطوتين أو ثلاثة بالمنتصف وخلف السيناتور مباشرة رقيب الشرطة العسكرية [روجيليو مورينو - Rogelio Moreno]، وكان خلفه الرقيب [فيلومينو ميراندا - Filomeno Miranda]، ويأتي خلفه الرقيب [ماريو لازاجا - Mario Lazaga]، وخلفهم بمسافة كل من الرقيب [أرماندو ديلا كروز - Armando Dela Cruz]، والملازم [جيسوس كاسترو - Jesús Castro]، بعد عشرة ثوان من خروج السيناتور من باب الطائرة وتحديدًا عند درجة السلم الحادية عشر من الأعلى بدأ سماع دوي أول طلقة نارية، وبعد برهة انطلقت ثلاث طلقات أخرى، تصاعدت بعدها أصوات هرج ومرج عقب طلقات نار متتالية، حيث تلقت رأس السيناتور (نينوي أكينو) الرصاصة القاتلة من الخلف ومن الأعلى وفي المنتصف، لمْ يستطعْ الصحفيون المرافقون للسيناتور متابعة الحادث فبعد ما هبطت الطائرة مطار مانيلا الدولي عند البوابة رقم ٨، صعد أفراد الجيش لاصطحاب السيناتور للخارج، وعندما تعقبهم الصحفيون أثناء مرورهم بمنطقة الدرجة الأولى منعوهم من الاقتراب نحو سلم الخروج، كانت تتواجد سيارتين أسفل الطائرة أثناء نزول السيناتور أحدهما سيارة فان عسكرية، والأخرى سيارة [ايسوزو –Isuzu] كانت تحمل أفراد الجيش المكلفين بالقبض على السيناتور، وبعضهم كان مُكلّف بتأمين محيط الطائرة، بينما السيارة الفان كانت مخصصة لنقل (نينوي أكينو) لمقر الاعتقال، وُجدت جثة السيناتور على أرض المطار ممددة بعد سقوطها مرورًا بآخر أربع درجات من على سلم الطائرة، وكان وجهه مواجه لأرض المطار وبجواره جثة أخرى لشخص بالزي المدني يرتدي سترة زرقاء يدعى [رونالدو جالمان - Rolando Galman]، يبدو أن (جالمان) ظهر من أسفل سلم الطائرة أثناء دوي إطلاق النار عندما سقطت جثة السيناتور على أرض المطار، وعندما أحاط به ثلاثة أو أربعة من أفراد الشرطة المتمركزين على أرض المطار رفع يده مبتسمًا كأنَّه يعرفهم، ويعرفونه، ولكن سرعان ما أطلقوا سيل من الطلقات أصابت ١٦ طلقة منه جسده أردته قتيلًا في الحال.

أربعة أيام فقط (٢٢ - ٢٥ فبراير ١٩٨٦) كانت كفيلة بإنهاء كابوس حكم قمعي سلطوي شمولي استمر لمدة ٢١ عامًا بدأ مع تولي (فرديناد ماركوس) رئاسة الفلبين كآخر رؤساء ما يعرف بالجمهورية الثالثة يوم الخميس ٣٠ ديسمبر ١٩٦٥، حيث تولى الحكم بعد معركة انتخابية دموية حملت في طياتها شكوك

كبيرة واتهامات بالتزوير والغش، وهو نفس النهج الذي استخدمه خلال الانتخابات الرئاسية المبكرة التي أجريت في فبراير ١٩٨٦ وكانت أحد أسباب اندلاع الثورة عليه، قام (ماركوس) في بداية حكمه بنقل معظم السلطات الإدارية إلى العسكريين ليحكم سيطرته على البلاد رغم أن خلفيته ليست عسكرية بحكم دراسته للحقوق، كما سارع (ماركوس) بتكميم الصحافة، وعلق نشاط المؤسسات الدستورية، وقام باعتقال المعارضين من كافة الطوائف تحت مسمى التطهير السياسي.

كانت هناك أحداث سابقة للثورة الفلبينية ١٩٨٦ ساعدت في التمهيد للثورة حتى وصلت ذروتها بالإطاحة بالديكتاتور (ماركوس) وفراره خارج البلاد للولايات المتحدة الأمريكية، ولعل أهم تلك الأحداث والتي حملت معها شرارة البداية ومهدت للثورة على (ماركوس) ورحيله كانت قبلها بثلاث سنوات، عندما اُغتيل (نينوي أكينو) ذلك المعارض البارز والمنافس الحقيقي القوي لمقعد الرئاسة أمام (ماركوس) في ٢١ أغسطس ١٩٨٣، كانت صدمة الشعب قويَّة، وعنيفة باغتيال السيناتور المعارض خصوصًا، وأن الغالبية لمْ يكنْ لديها أدنى شك بتورط كل من الرئيس (ماركوس)، ورئيس أركان الجيش الجنرال [فابيان فير - Fabian Ver] في اغتياله عن طريق بعض أفراد الجيش، ومن ضمن تلك العوامل أيضًا، ما فعله أنصار السيناتور (نينوي أكينو) عقب شهر من اغتياله وتحديداً يوم ٢١ سبتمبر ١٩٨٣ أثناء قيام الحكومة بإحياء ذكرى إعلان الأحكام العرفية التي طُبقت قبل إحدى عشر عامًا فيما يُعرف باسم [يوم بارانجاي - Barangay Day]، حيث قرر عشرات الآلاف من أنصار (أكينو) القيام بعمل مسيرات ضخمة في العاصمة مانيلا وعقد ما أطلق عليه [يوم الحزن الوطني - National Day of Sorrow]، في تحد واضح واستثنائي لطغيان (ماركوس)، داعين إلى إزاحته من سدة الحكم، وفي ذات اليوم في (مانهاتن – Manhattan) بالولايات المتحدة الأمريكية قُرأ خطاب للرئيس الأمريكي السابق (جيمي كارتر) في تأبين (أكينو) وصفه فيه قائلًا: «سوف يُخلّد التاريخ «أكينو» كبطل قومي للفلبين، وسيصبح مصدر إلهام لنا جميعًا لمواصلة الكفاح، من أجل ضمان حقوق الإنسان للبشرية جميعًا حول العالم»

في العام التالي أُجريت الانتخابات البرلمانية يوم ١٤ مايو حيث نجحت المعارضة الموحدة من كل من المنظمة الديمقراطية القومية المتحدة [يونيدو – UNIDO] والائتلاف الديمقراطي في الفوز بعدد ٥٦ مقعد من إجمالي ١٨٣ مقعد، وكان ذلك بدعم كبير من [كورازون أكينو - Corazon Aquino] أرملة السيناتور (نينوي أكينو).

كان هناك أيضًا تقرير [لجنة أجرافا – The Agrava Board]، وهي لجنة تقصي الحقائق المكلفة بالتحقيق في اغتيال (نينوي أكينو) برئاسة القاضية [كورازون

أجرافا - Corazon Agrava] رئيسة محكمة الاستئناف السابقة، تمَّ تشكيل تلك اللجنة المستقلة بموجب المرسوم الرئاسي رقم ١٨٨٦ في ١٤ أكتوبر ١٩٨٣، وبعد مرور عام من التحقيقات صدر تقرير اللجنة في ٢٤ أكتوبر ١٩٨٤ والذي خلص إلى وجود مؤامرة عسكرية لاغتيال السيناتور، وفيه أدان التقرير رئيس الأركان الجنرال (فابيان فير) الرجل الأكثر ثقة وقوة لدى الرئيس (ماركوس)، من العوامل التي مهدت أيضًا في اندلاع الثورة في الفلبين التي عُرِفَت باِسم: [ثورة إدسا - EDSA Revolution] وأحيانا باسم: [ثورة قوة الشعب - People Power Revolution]، قيام المعارضة البرلمانية في أغسطس ١٩٨٤ بتقديم اقتراح باتخاذ إجراءات قضائية ضد (ماركوس) نتيجة انتهاكاته الصارخة للدستور، أخمدت الأغلبية هذا الاقتراح ولكن التأثير الأكبر كان في تجاوز تلك الحالة التي تتجنب انتقاد الرئيس، أو مسائلته، ازداد الحنق الشعبي بعد إعلان محكمة القضاء الإداري [ساندیجان بایان – Sandiganbayan] في ٢ ديسمبر من نفس العام تبرئتها للجنرال (فابيان فير)، وكل مساعديه من التهم الموجهة لهم باغتيال السيناتور (نينوي أكينو)، وقيام (ماركوس) بإعادته لرئاسة أركان الجيش وسط عديد من الاحتجاجات الساخطة، في اليوم التالي أعلنت (كورازون أكينو) أرملة السيناتور (نينوي أكينو) ترشحها لانتخابات الرئاسة ووافق المرشح الرئاسي المحامي [سلفادور لوريل - Salvador Laurel] على أن يترشح لمنصب نائب الرئيس بدلًا من نيته المسبقة والتي أعلنها قبل ذلك بترشحه على مقعد الرئيس؛ ليترك المجال لها لخوض الانتخابات على هذا المقعد.

في عام الثورة وشهر الثورة فبراير ١٩٨٦ اقتربت الانتخابات الرئاسية المبكرة، واقترب معها لهيب الثورة، شابت عملية الانتخابات التي أجريت في ٧ فبراير كثير من المخالفات، مثل: شراء الأصوات، والعنف، والترهيب، والعبث بالنتائج، حيث أشارت النتائج الأولية للجنة الانتخابات الرئاسية المُسيسة إلى تقدم الرئيس (ماركوس)، بينما أشارت حركة الانتخابات الحرة المراقبة للانتخابات إلى تقدم (كورازون أكينو) بنسبة جيدة، وبعد يومين، وأثناء استمرار عملية الفرز ترك قرابة ٣٥ موظف يعملون بالحاسب الآلي للجان فرز الأصوات مقرهم، محتمين داخل [كنيسة باكلاران - Baclaran Shrine] احتجاجًا على التلاعب بالنتائج حيث كانت المرة الأولى التي تجرى فيها عمليات الفرز إلكترونيًّا، كان أيضًا لحادث اغتيال المحافظ السابق لمقاطعة [أنتيق – Antique] المعارض الشاب، ومسئول حملة أكينو [إيفيلو خافيير - Evelio Javier] في المقاطعة يوم ١١ فبراير أثر كبير في زيادة احتقان الشعب ضد حكم ماركوس وتأجيج نار الثورة، ورغم تشكك الكثيرين من التلاعب الصارخ في النتائج وإعلان [رابطة الأساقفة الكاثوليك الفلبيني (Catholic Bishops’ Conference of the Philippines (CBCP] في ١٥

فبراير بتزوير نتائج الانتخابات، إلّا أن الأنظار كانت متجهة يوم ١٧ فبراير إلى قاعة البرلمان [باتاسانج بامبانسا - Batasang Pambansa] لإعلان النتائج النهائية، ورغم افتراض كثيرين بوقوع غش، وتزوير، إلّا أن أحدًا لمْ يكنْ يتوقع أنَّه سيكون تزويرًا انتخابيًا على نطاق هائل بهذا الشكل ولمْ يسبقْ له مثيل في التاريخ السياسي للبلاد، حيث أعلن فوز (ماركوس) رئيسًا لفترة رئاسية جديدة متقدمًا على (كورازون أكينو) بفارق مليون ونصف مليون صوت وفوز [أرتورو تولينتينو - Arturo Tolentino] بمنصب نائب الرئيس، وحينها غادر ٢٦ نائبًا معارضًا من القاعة قبل إعلان النتيجة احتجاجًا على تزوير النتيجة.

عام ١٩٧٧ وبعد مرور عامين على إضراب السيناتور (نينوي أكينو) عن الطعام داخل السجن، وقرابة خمس سنوات رهن الاعتقال، استخدم خلالها السيناتور قاعة المحكمة كمحفل لمهاجمة الديكتاتور رافضًا الدفاع عن نفسه مصرحًا أنَّه يُفضل أن يتبع ضميره، وألّا يخونه حتى لو كان الثمن انتقام الطاغية، حكمت المحكمة العسكرية على السيناتور، وآخرين من الجناح العسكري للحزب الشيوعي بالإعدام رميًا بالرصاص في ٢٥ نوفمبر ١٩٧٧، ولمْ يتمْ تنفيذ الحكم تخوفًا من ردود الفعل الغاضبة باعتبار أنَّه انتقام سياسي من زعيم معارض، في عام ١٩٧٨ ومع اجراء أول انتخابات تحت الأحكام العرفية سُمح له بخطاب تليفزيوني قصير من محبسه، خسر (نينوي) الانتخابات وكذلك كل المرشحين المعارضين الذين بلغ عددهم ٢١، تعرض (نينوي أكينو) لأزمة قلبية في منتصف مارس ١٩٨٠ في محبسه الانفرادي فتمَّ نقله إلى مركز القلب الفلبيني للعلاج، وسرعان ما تعرض مرة أخرى لأزمة قلبية جديدة حيث تبين إصابته بانسداد في الشريان التاجي، رفض الجراحون على إثر ذلك القيام بإجراء أي عمليات خوفًا من أي نتائج غير متوقعة، قد تضعهم في اتهامات بالقتل المتعمد وبإيعاز من السلطة، كذلك رفض السيناتور القيام بالعملية الجراحية قلقًا من أن يوفر للرئيس وسيلة آمنة لقتله.

قرر (ماركوس) تخفيف الحكم، والسماح له بالسفر إلى أمريكا لإجراء العملية الجراحية بعد تدخل قرينة (ماركوس) السيدة الأولى [إيملدا ماركوس - Imelda Marcos]، قامت السيدة الأولى بزيارته سرًا في المستشفى لإخباره بإمكانية سفره مع أسرته إلى الولايات المتحدة لإجراء العملية الجراحية ولكن بشرطين أو وعدين، أولهما عودته مرة أخرى للبلاد عقب شفائه، والشرط الثاني بألّا يتكلم، أو ينتقد نظام حكم (ماركوس) خلال مدة إقامته في الولايات المتحدة، وافق السيناتور وصرح وقتها بأنَّ رحلته لن تستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع هي مدة العملية، وفترة النقاهة، ولكن الثلاثة أسابيع استمرت لأكثر من ثلاثة سنوات، تمَّ إجراء العملية الناجحة للسيناتور على يد طبيب فلبيني أمريكي بمدينة [دالاس – Dallas] بولاية تكساس، وبعد نجاح العملية تحلل السِيناتور (نينوي أكينو) من وعده للسيدة الأولى بعدم انتقاد نظام (ماركوس)

قائلًا إن الاتفاق مع الشيطان لمْ يكنْ يومًا اتفاقًا على الإطلاق، انتقل (نينوي أكينو) بصحبة زوجته (كورازون) وأولاده للحياة في [بوسطن – Boston] عاصمة ولاية [ماساتشوستس – Massachusetts]، وانتقل منها على مدار تلك السنوات لعدة ولايات لإلقاء خطابات كانت كلها تهاجم نظام (ماركوس)، وكان أشهر تلك الخطابات ذلك الذي ألقاه على مسرح [ويلشاير إبيل - Wilshire Ebell] في (لوس أنجلوس – كاليفورنيا) في ١٥ فبراير ١٩٨١، في هذا العام انتهى كابوس الأحكام العرفية عندما أجبرت الزيارة الأولى للبابا [يوحنا بولس الثاني -Pope John Paul II] بابا الفاتيكان إلى الفلبين الرئيس(ماركوس) على إلغاء الأحكام العرفية، وخصوصًا أن نفوذ (ماركوس) وسيطرته كانت كاملة على كل مفاصل الدولة، ومقاليد الحكم، تدهورت الحالة المادية للسيناتور في الشهور الأخيرة قبل عودته نتيجة كثرة سفره وعدم وجود مصدر دخل ثابت، في تلك الأثناء كانت التقارير السرية التي تأتي للسيناتور تشير لتدهور الحالة الصحية للرئيس (ماركوس)، وكان لدى السيناتور قناعة داخلية بأن هذا التوقيت مناسب للعودة والحديث مع الرئيس عن الانفتاح الديمقراطي، حتى لا يستغل بعض الخصوم فترة مرضه، أو حدوث أي فراغ سياسي لتنتقل الرئاسة في أيدي المتطرفين.

لذلك قرر السيناتور (نينوي أكينو) العودة مرة أخرى للفلبين مدركاً كم الخطر على حياته من هذه العودة، في ٢١ مايو عام ١٩٨٣ التقت السيدة الأولى (إيملدا) بالسيناتور داخل المركز الفلبيني في نيويورك وطلبت منه عدم العودة للبلاد، أو على الأقل أن يُرجئ عودته مؤقتًا بسبب الإشاعات المتداولة عن محاولة لاغتياله عقب عودته، وهو ما رفضه السيناتور بعبارات أكثر حزمًا بأنَّه على الرغم من معرفة أن حكم الإعدام الذي أصدرته المحكمة العسكرية ما زال في انتظاره، إلَّا أنَّه يفضل أن يكون موته ذا مغزى بدلًا من العيش في حياة لا معنى لها، أعلن (نينوي أكينو) للصحفيين المرافقين له في رحلة عودته على الطائرة المتجهة إلى (مانيلا) من (تايبيه) عن تخوفه من محاولة لاغتياله حيث قال في معرض اجابته عن سؤال حول احتمالية اعتقاله داخل أسوار السجون، أو حتى اغتياله، بأنَّه يعتقد في إمكانية أن يُؤذى جسديًّا فالاغتيال قد يكون ضريبة أداء الواجب، مصرحًا أن شعوره تجاه ذلك الأمر بأنَّ كل شخص سوف يموت في وقت ما وإذا كان مصيره الموت برصاصة قاتلة... فلتكن.

أقلعت الطائرة التي تقل (نينوي أكينو) في رحلة عودته لبلاده من [مطار لوجان الدولي - Logan International Airport] بمدينة (بوسطن) بالولايات المتحدة في ١٣ أغسطس ١٩٨٣ متجهًا إلى سنغافورة بعدما استطاع تدبير جواز سفر بمعرفة أحد المتعاطفين معه في القنصلية الفلبينية، حيث رفضت السلطات تجديد جواز سفره مسبقًا في محاولة من جانب النظام لمنعه من العودة، التقي(نينوي) في سنغافورة ببعض الشخصيات السياسية، ومنهم

السلطان (إبراهيم إسماعيل) سلطان إقليم [جوهور –Johor]، ثمَّ استكمل رحلته إلى (هونج كونج)، حتى وصل محطته قبل الأخيرة في دولة تايوان التابعة رسميًّا للإدارة الصينية قبل يومين من سفره للعاصمة الفلبينية، في مقابلة معه بجناحه بفندق (تايبيه جراند هوتيل) كشف (نينوي أكينو) عن مخاوفه من الاغتيال فور عودته مصرحًا بأنَّه سوف يرتدي سترة واقية ضد الرصاص، ولكنَّه أضاف بأنَّ ذلك ممكن أن يكون مفيدًا للجسد أمَّا بالنسبة للرأس فلا يمكن فعل أي شيء حيال ذلك، ومن داخل الطائرة في رحلة العودة الأخيرة قال (نينوي أكينو) للصحفيين المرافقين: «يجب أن تكونوا جاهزون تمامًا مع عدساتكم لأن هذا الإجراء يمكن أن يكون سريعًا جدًا، في غضون ثلاث أو أربع دقائق يمكن أن ينتهي كل شيء».

ثمَّ قال مبتسمًا: - «هل تعلمون... قد لا أتمكن من التحدث إليكم مرة أخرى بعد الآن»، الصحفي الأمريكي [جيم لوري - Jim Laurie] مراسل قناة (إي بي سي – ABC)، والمتخصص في الشؤون الأسيوية كان صاحب آخر تقرير متلفز عن رحلة (نينوي أكينو) حيث قال له السيناتور: "لقد عدت بإرادتي الحرة للانضمام إلى صفوف أولئك الذين يناضلون لاستعادة حقوقنا، وحرياتنا من خلال اللاعنف فأنا لا أسعى إلى المواجهة أو الصدام».

في نوفمبر ١٩٨٥ حل (ماركوس) ضيفًا على المذيع التليفزيوني الأمريكي [ديفيد برينكلي - David Brinkley] في برنامج «هذا الأسبوع مع ديفيد برينكلي» على شبكة (إي بي سي - ABC) التليفزيونية، ونجح (برينكلي) في تحدي (ماركوس) على الهواء حتى أعلن الأخير خلال البرنامج عن قراره بإقامة انتخابات رئاسية مبكرة التي حدد البرلمان الفلبيني (باتاسانج بامبانسا) لاحقًا إجرائها في ٧ فبراير ١٩٨٦.

كان الحنق، والاستفزاز الشعبي قد وصل إلى أعلى درجاته عقب إعلان البرلمان فوز (ماركوس) بفترة رئاسية جديدة، واحتشد حوالي مليون مواطن من الداعمين للمرشحة «كورازون أكينو» يوم الأحد ١٦ فبراير في ساحة [لونيتا – Luneta] الشهيرة أو [ساحة ريزال الوطنية - Rizal National Park] وهي الساحة التي أعدم فيها البطل القومي الفلبيني [خوسيه ريزال - José Rizal] على يد الاحتلال الإسباني في نهاية القرن التاسع عشر، وهناك أعلنت (كورازون) أو (كوري) كما يطلق عليها أفراد الشعب أنَّها الفائزة بنتائج الانتخابات، وطالبت ببدء حملة للعصيان المدني حتى يتم تنحية (ماركوس)، نادت (كوري) بالامتناع عن دفع الضرائب وفواتير الكهرباء ومقاطعة الإعلام الحكومي، والبنوك ومنتجات الشركات الخاصة التي تدعم السلطة مثل مجموعة شركات [سان ميجل - San Miguel] الكبرى، وكذلك سلسلة متاجر [روستانس - Rustan's] الشهيرة، في تلك الأثناء وكنوع من التهدئة أعلن

(ماركوس) عن تعيين الجنرال [فيديل راموس - Fidel Ramos] رئيسًا لأركان الجيش بدلًا من الجنرال (فابيان فير)، وأخذت الأمور منحنى دولي عندما أعلن الرئيس الأمريكي [ريجان – Reagan] إيفاد مبعوثه السابق للشرق الأوسط [فيليب حبيب - Philip Habib] إلى الفلبين للتحاور مع (كوري)، ومن ناحية أخرى محاولة إقناع الرئيس (ماركوس)، والحليف الأمريكي بالتخلي عن السلطة نتيجة التقارير التي تفيد بزيادة الحنق والغضب الشعبي.

لاقت دعوة (كوري) بالعصيان المدني، ومقاطعة المؤسسات الحكومية قبولًا كبيرًا وتجاوبًا شعبيًا هائلًا ظهرت أثاره في اليوم التالي مباشرة ليست فقط على البنوك السبعة التي ضمتها قائمة (كوري)، ولكن أيضًا البنوك الخاصة المقربة للحكومة حيث توافد المودعون بأعداد هائلة لسحب مدخراتهم النقدية، وسحبت بعض الشركات العالمية مثل [نستلة – Nestlé] إعلاناتها من الصحف ووسائل الإعلام التابعة للسلطة، كما أن العديد من المطاعم امتنعت عن استلام منتجات تدعم السلطة مثل بيرة (سان ميجل)، و(كوكاكولا) وغيرها، وخسرت الشركات العالمية الكبرى التي تدعم (ماركوس) في ذلك اليوم ملايين الدولارات، كل تلك الأمور ساعدت (كوري) على تأكيد قوتها، وتأثيرها، ومدى دعم الشعب لها، حيث قابلت المبعوث الأمريكي، وأكدت له بأنَّه لا طريق للحل إلا برحيل (ماركوس)، وإذ لم يحدث فإنَّها سوق تطوف أرجاء البلاد لحث الشعب على العصيان المدني.

انخفضت العملة الفلبينية بشكل عنيف فأصبح الدولار الواحد يساوي أكثر من ٢٢ (بيسوس)، وأضرب عن العمل سائقو [الجيبني – Jeepney] تلك السيارة الفلبينية الخاصة والمطورة من السيارة [الجيب – Jeep] لتصبح أوتوبيس متوسط الحجم يُستخدم لنقل الركاب، في حين انقطع الطلاب والمدرسين والموظفين عن الذهاب لأعمالهم، في تلك الأثناء لم يجد (ماركوس) بُد مِن مَد مُدة حليفه الجنرال المقال (فابيان فير) كرئيس للأركان حتى نهاية الشهر نتيجة تدهور الأوضاع، وتمَّ إعلان حالة الطوارئ لدى الحرس الرئاسي ورُفعت لحالة التأهب القصوى يوم ١٩ فبراير رابع أيام العصيان المدني، في اليوم التالي ونتيجة للاحتجاجات الفلبينية أصدر الكونجرس الأمريكي قرارًا بتعليق جميع المساعدات الاقتصادية للفلبين طالما ظل (ماركوس) مستمرًا بالحكم، وأعلن ١٤ سفيرًا أوروبيًّا من النمسا وفنلندا والسويد و سويسرا والنرويج وبريطانيا وأيرلندا وهولندا وفرنسا وإسبانيا وبلجيكا والدانمارك وألمانيا الغربية وإيطاليا، ومعهم السفير الياباني دعمهم الكامل لصالح (كورازون أكينو)، كان يوم الجمعة ٢١ فبراير واليوم السابق لأيام الثورة الأربعة يُعتبر اليوم السادس للمقاطعة والعصيان المدني، وفيه بلغت قيمة المسحوبات النقدية من البنوك الحكومية مثل البنك الوطني الفلبيني والبنوك التي تنتمي للنظام مليار وسبعمائة وثمانون مليون [بيسوس – Pesos].

صباح يوم السبت ٢٢ فبراير تجمهر بعض المواطنين في مجموعات صغيرة في مناطق متفرقة من البلاد للتخطيط لما يمكن القيام به من تحركات خلال الأسبوع التالي، كانت (كوري) في هذا اليوم في مقاطعة [سيبو – Cebu] ثاني أكبر مدينة في الفلبين من ناحية عدد السكان، وذلك للدعوة إلى العصيان المدني وقد باتت ليلتها في [دير الرهبنة الكرملية - Carmelite Monastery] متخفية عن أعين جنود (ماركوس) مع أصغر بناتها [كريس – Kris]، وفي المساء أعلن وزير الدفاع [خوان بونس إنريلي - Juan Ponce Enrile] والجنرال (فيدل راموس) نائب رئيس الأركان سحب دعمهما للرئيس ماركوس ودعيًا إلى استقالته وقاموا بواسطة ٣٠٠جندي من إحكام السيطرة على مقر وزارة الدفاع في «كامب أجوينالدو - Camp Aguinaldo» ومقر الشرطة الوطنية الفلبينية في «كامب كرامي - Camp Crame» المواجه له في منتصف شارع [إدسا – EDSA].

اشتهر الأكاديمي [ايبفانيو ديلوس سانتوس - Epifanio de los Santos] (١٨٧١ – ١٩٢٨) بتنوع مواهبه وقدراته مِمَّا يصعب تصنيفه في مجال محدد فهو ناقد أدبي، وفني، وشاعر، وأثري، ومؤرخ، وصحفي، ومترجم، وفيلسوف، ومحام، ورسام، وموسيقي، تولى منصب مدير «مكتبة ومتحف الفلبين - Philippine Library and Museum» عام ١٩٢٥، ويُعتبر من الشخصيات الفذة التي يفتخر بها تاريخ الفلبين في العصر الحديث، تمَّ تكريمه بإطلاق اسمه على قاعة المحاضرات الرئيسية بالمكتبة الوطنية للفلبين، وكذلك على العديد من المدارس والمستشفيات والطرق ولعل أهمها على الإطلاق الذي خلد اسمه هو [طريق ايبفانيو ديلوس سانتوس - Epifanio de los Santos Avenue] الذي عرف بالاسم المختصر (إدسا – EDSA)، شارع (إدسا) هو أطول الطرق في (مانيلا)، وأكثرها ازدحامًا وحركة ويبلغ طوله ٢٤ كم، وهو شريان الحركة الرئيسي في منطقة [مترو مانيلا- Metro Manila]، أو [مانيلا الكبرى - Greater Manila]، ويمر بأهم الأحياء مثل [كويزون سيتي - Quezon City]، [سان خوان -San Juan]، [ماندالويونج– Mandaluyong]، [ماكاتى – Makati]، [باساي – Pasay]، وفيه تتجمع المراكز المالية الكبرى، والمراكز التجارية وشبكات التلفزة العالمية والمحلية ومنها مجموعة (أي بي إس-سي بي إن، ABS-CBN) الإعلامية التي تعتبر أكبر تكتل للترفيه والإعلام في الفلبين، و(مجمع ملاعب أرانيتا - Smart Araneta Coliseum) الرياضي الضخم المعروف باسم [القبة الكبيرة - The Big Dome]، حيث تعتبر قبته واحدة من أكبر القباب الممتدة في العالم، ويعتبر المجمع واحدًا من أكبر الساحات الرياضية في قارة آسيا، بالإضافة لمعسكر (أجوينالدو) مقر قيادة الجيش، ومعسكر (كرامي) المقابل له حيث المقر الرئيسي لقيادة الشرطة الفلبينية،

كما يعبر طريق (إدسا) [نهر الباسيج - Pasig River] من خلال [جسر جوادالوبي - Guadalupe Bridge] عند نهاية حي (ماندالويونغ) الراقي.

كان من الصعب على (كوري) العودة من (سيبو) إلى (مانيلا) ليلًا عقب إعلان استقالة وزير الدفاع (إنريلي)، وسيطرته مع الجنرال (فيدل راموس) على معسكري (أجوينالدو وكرامي) في شارع (إدسا) نظرًا لخطورة عودتها ليلًا على حياتها، فباتت ليلتها في «كنيسة الرهبنة الكرملية» في حماية الراهبات حتى صباح اليوم التالي، اليوم الأول للثورة الفلبينية المعروفة بإسم ثورة (سلطة الشعب – People Power Revolution)، أو إعلاميًّا باسم [ثورة إدسا – EDSA Revolution] يوم الأحد ٢٢ فبراير ١٩٨٦، استقبلت (كوري) في هذا الصباح عدد من الشخصيات داخل الدير ومنها القنصل الأمريكي [بلير بورتر - Blaire Porter] الذي أكد عليها ضمان الولايات المتحدة لعودتها سالمة إلى مانيلا، وبالفعل عند الساعة الحادية عشر صباحًا غادرت (كوري أكينو) الدير، واتجهت لمطار (سيبو) للعودة إلى العاصمة (مانيلا)، كانت الأمور في المعسكرين تدور حول انقلاب عسكري من وزير الدفاع (إنريلي)، وحركة إصلاح الجيش «Reform the Armed Forces Movement -RAM» بقيادة الكولونيل [جريجوريو هوناسان - Gregorio Honasan] للإطاحة بالرئيس (ماركوس).

لذلك قام رئيس أركان الجيش الجنرال (فابيان فير) الموالي للرئيس بتحصين القصر الرئاسي [قصر مالاكانانج - Malacañang Palace] حيث يقيم الرئيس (ماركوس)، في ظهيرة ذلك اليوم استقبل (ماركوس) كل من السفير الأمريكي في الفلبين [ستيفن بوزورث - Stephen W. Bosworth] ومبعوث الرئيس الأمريكي (فيليب حبيب) الذين طلبا من (ماركوس) سرعة عزل الجنرال (فابيان فير)، في الثانية ظهرًا، وقبل صعود المبعوث الأمريكي إلى طائرته عائدًا إلى الولايات المتحدة طلب (حبيب) من أحد ضباط السفارة الأمريكية أن يخبر السفير (بوزورث) أن (كورازون أكينو) هي التي فازت في الانتخابات الرئاسية وأن على (ماركوس) أن يتنحى مقابل أن تمنحه الولايات المتحدة حق اللجوء السياسي.

في الثالثة عصرًا قام (إنريلي) من داخل معسكر (أجوينالدو) بالاتصال بزوجته [كريستينا – Cristina] طالبًا منها أن تطلع الناشرة الصحفية المعارضة [يوجينيا أبوستول - Eugenia Apostol] مالكة صحيفة [دايلي انكوايرر - Philippine Daily Inquirer] الفلبينية على ما يحدث داخل المعسكرين، وأن تخبر الزعيم الروحي للكاثوليك الفلبينيين الكاردينال [خايمي سين - Jaime Sin] بالموقف، لم تأخذ استجابة الكاردينال وقتا طويلًا حيث دعا من خلال راديو [فيريتاس – Veritas] الكاثوليكي حشود الشعب للنزول إلى شارع

(إدسا) لمحاصرة دفاعية لمقري قيادة الجيش والشرطة عند معسكر (أجوينالدو) و معسكر (كرامي) المتقابلين في منتصف شارع (إدسا)، وأيضا توفير الحماية للمنشقين الجنرال (فيدل راموس) ووزير الدفاع (إنريلي) وأتباعهما، كان لدعوة الكاردينال تأثير كبير حيث نزل أكثر من مليون شخص إلى (إدسا) لحماية المقرين، وهو يُصلّون ويرددون التراتيل الأمر الذي دعا بعض الجنود الموالين للنظام إلى الانضمام إليهم.

قبل الخامسة عصرًا كانت أول القوات الداعمة لحركة التمرد هي القيادة الإقليمية الموحدة رقم ٨ التابعة للعميد [سلفادور ميسون - Salvador Mison]، ونتيجة لتأثير الراديو الكبير في توجيه الحشود أمر الجنرال (فير) الجنرال [فيدل سينجسون - Fidel Singson] رئيس الاستخبارات العسكرية بتدمير مبنى راديو (فيريتاس)، وذلك بعد انتهائه من اجتماع مع الرئيس (ماركوس) ووزير الإعلام، ولكن الجنرال (سينجسون) طلب من جندوه محاصرة المبنى في شارع (إدسا) فقط دون اقتحامه، قبل أن يُقرر الانضمام لقوات (راموس)، و (إنريلي)، عقد كل من الجنرال (راموس) و(إنريلي) مؤتمرًا صحفيًّا قبيل الساعة السابعة مساءً صرحا فيه بسحب دعمهما للرئيس (ماركوس)، وأن حركتهما ليست من أجل أي مطامع في السلطة ولكن لكي تعود السلطة للشعب في شخص (كوري) التي انتخبها الشعب رئيسة للبلاد، في تلك الأثناء انتشرت الشائعات بأن الجنرال (فير) سوف يقتحم معسكر (أجوينالدو)، أو سيقوم بتفجيره وهو ما أثار نوبة جديدة من الفزع والهلع لدى المواطنين خوفًا على حياة من بداخل المعسكرين واتباعهم.

كانت هناك مكالمة تليفونية مختصرة بين (إنريلي) و (كوري) قررت على إثرها العودة من (سيبو) مع نائبها في السباق الرئاسي على منصب نائب الرئيس (لوريل) حيث كانت تشكر مواطني (سيبو) على دعمهم لها في الانتخابات الرئاسية، وكذلك للتأكيد على برنامج الاحتجاجات اللا عنفي الذي أعلنته قبل أسبوع، لم يأخذ (ماركوس) وقتًا طويلًا للرد على المؤتمر الصحفي للجنرالين، حيث أعلن عند الساعة العاشرة والنصف مساءً على القناة التلفزيونية الرابعة التي تديرها السلطة أنَّه يسيطر تمامًا على الوضع، ويدعو (إنريلي) و (راموس) لوقف تصرفاتهما الحمقاء والتراجع عمَّا يفعلانه حتى يتمكن من التفاوض، وكنوع من تحويل الأنظار لفكرة المؤامرة وشيطنة الحراك ليبدو، وكأنَّه صراع للوصول للحكم، زعم (ماركوس) خلال حديثه التلفزيوني إحباط محاولة لاغتياله بتحريض من (إنريلي) و (راموس) بواسطة بعض حراس زوجته (إيميلدا) وعددهم أربعة حراس، وعُرضت لقطات لاعترافاتهم على فترات متفاوتة.

في الساعات الأولى من صباح اليوم الثاني للثورة الأحد ٢٣ فبراير، يتوالى دعم ثورة الشعب من خلال إعلان [نستور ألامباي - Nestor Alampay] قاضي المحكمة العليا استقالته، في الوقت الذي حث فيه (إنريلي) بشدة (كوري أكينو) على إعلان حكومتها بصفتها رئيسة مُنتخبة، استمر الكاردينال (سين) في حث الحشود على الاستمرار في التظاهر من خلال خطاب يتمَّ بثه على الهواء، ويطالب كُلا من (ماركوس)، والجنرال (فير) بعدم استخدام القوة ضد متظاهري (إدسا)، كانت (كوري أكينو) لاتزال في (سيبو) وألغت الاقتراح بذهابها إلى مقاطعة [بالاوان – Palawan] مقررة العودة إلى (مانيلا) حيث عقدت مؤتمر صحفيًّا مصغرًا في الحادية عشر صباحًا طالبت فيه المتظاهرين بالتوجه لحماية المتمردين في معسكري الجيش والشرطة في (إدسا)، كما طالبت مجددًا الرئيس (ماركوس) بالتنحي عن الحكم، وصلت (كوري) إلى (مانيلا) حوالي الثانية ظهرًا، وتوجهت مباشرة لمنزل شقيقتها بحي (ماندالويونج)، ثمَّ انتقلت بعدها بسيارة ذات زجاج معتم للمرة الأولى إلى شارع (إدسا).

في خارج البلاد وفي الولايات المتحدة عقد وزير الخارجية الأمريكي [جورج شولتز - George Shultz] اجتماعًا مصغرًا ضم فيه [مايكل أرماكوست - Michael H. Armacost] السفير الأمريكي السابق لدى الفلبين لوضع سياسة واضحة ومحددة للتعامل مع الوضع في الفلبين، في تلك الأثناء كان عشرات الآلاف يجتمعون من كل حدب وصوب تجاه شارع (إدسا)، ويتمركزون تحديدًا حول معسكري (كرامي) و(أجوينالدو) كحواجز بشرية لتحصينه من أي احتمالات متوقعة بالهجوم عليهما، أو تدميرهما، يظهر (ماركوس) مجددًا على شاشة التليفزيون كنوع من إحباط لآمال المتمردين، والثوار بإعلان القبض على بعض الضباط المتمردين، وظهر اثنين منهما على الشاشة، كما أعلن أنَّه جاري استجواب ضباط آخرين، وساخرًا في ذات الحديث من دعوة (إرنيلي)، و (راموس) له بالتنحي، ومتهكمًا على التقارير التي تفيد بتجمع ما بين ثلاثمائة ألف إلى أربعمائة ألف متظاهر في شارع (إدسا).

تجاهلت القوات التي يقودها رئيس شرطة العاصمة [ألفريدو ليم - Alfredo Lim] الأوامر الصادرة بتفريق الحشود في (إدسا)، قرر (إنريلي)، و (راموس) تعزير قواتهما في معسكر (كرامي) بدلًا من معسكر (أوجينالدو) حيث قامت الحشود البشرية بعمل حائط بشري لتأمين مرورهما بعرض شارع (إدسا) بعد مغادرتهما معسكر (أجوينالدو)، تكونت حوائط بشرية أخرى في شارع (أورتيجاس Ortigas)، وشارع (إدسا) لمنع وصول المدرعات القادمة للهجوم على المعسكرين حيث بدأ التوتر والقلق يتزايد مما هو قادم، رويدًا بدأ (ماركوس) يدرك الواقع حيث اتصل بوزير الدفاع (إنريلي) عارضًا عليه العفو العام مقابل وقف الاحتجاجات، في المقابل رفض (ماركوس) طلبه بوقف

عملية انتشار الدبابات، وبعد ساعتين ونصف الساعة من الاتصال أعلن (إنريلي) رفضه عرض العفو العام، ونتيجة للقلق المتزايد من تهور القيادة بالهجوم على المتظاهرين أرسل البابا (يوحنا بولس الثاني) بابا الفاتيكان رسالة إلى (ماركوس) يدعوه فيها إلى عدم استخدام القوة في هذه الأزمة والعمل على حلها سلميًّا، ,في نهاية اليوم أصدر البيت الأبيض بيانًا يتساءل فيه عن مدى أحقية، وشرعية نظام (ماركوس) في الفترة الرئاسية الجديدة.

لمْ تغادر الحشود شارع (إدسا) بالرغم من حلول الساعات الأخيرة من الليل وسط توقعات بهجوم عسكري لفض التجمعات، واقتحام المعسكرَين، حيث بدأت الكنائس في دق أجراسها توافقًا مع الأنباء المتواترة عن عملية اقتحام وشيكة للمعسكرين، ومع نسمات فجر اليوم التالي يوم الأثنين ٢٤ فبراير ثالث أيام الثورة أعلن الرئيس الأمريكي (رونالد ريجان) رفضه بأن يطلب شخصيًّا من الرئيس (ماركوس) التنحي، ولكنَّه وافق على منحه حق اللجوء السياسي إذا قبل التنحي، في حين طلب وزير الخارجية الامريكي (جورج شولتز) من سفير الولايات المتحدة في الفلبين بإبلاغ (ماركوس) بأن وقت الرحيل قد حان، وبعد ساعة أعلن (ماركوس) رفضه للطرح الأمريكي معلنًا أنَّه سيسحق المتآمرين منتقدًا الدعم الأمريكي على حد زعمه للمتمردين، وفي الصباح الباكر أصدر رئيس أركان الجيش الجنرال (فير) أوامره للميجور جنرال [جوزيفوس راماس - Josephus Ramas] بالهجوم الشامل على (إدسا) لتفريق الحشود باستخدام جميع الوسائل الممكنة، والتي تشمل الغاز المُسيّل للدموع والطائرات الحربية والطائرات النفاثة والمدفعية البحرية، في كامب (كرامي) دعا نائب رئيس الأركان الجنرال (فيدل راموس) إلى تعزيزات مدنية وسط تقارير تفيد بتجميع النظام لقوات عسكرية كبيرة لاقتحام المعسكر.

لمْ يكنْ أمام الجنود المتمردون داخل المعسكر سوى الانشغال بالدعاء، وإنشاد الترانيم الدينية التي تتحدث عن الوداع وقرب النهاية، وسط القنابل المسيلة للدموع ومن خلال شارع [سانتولان – Santolan] الجانبي الذي يطل عليه كامب (أجوينالدو)، اقتحم جنود (ماركوس) بقيادة كولونيل البحرية [براوليو بالباس - Braulio Balbas] المعسكر، واحتلوا ملعب الجولف المواجه لمعسكر (كرامي) المتواجد فيه قيادات الجيش المتمردين، وزاد التوتر في السادسة صباحًا عندما بدأت المروحيات في التحليق أعلى معسكر (كرامي)، في تلك الأثناء أعلنت الإذاعية [جون كيثلي - June Keithley] عبر موجات أثير [راديو باندیدو - Radio Bandido] للحشود في (إدسا) عن فرار كل من (ماركوس)، والجنرال (فير) خارج البلاد وكانت تلك هي الأنباء الأولى التي تتحدث عن رحيل القائدين، وحتى وإن لمْ تكنْ صحيحة وقتها إلَّا أنَّها زادت من الروح المعنوية للمتظاهرين وثقتهم بقدرتهم على النجاح بثورتهم.

توجه الجنرالات داخل المعسكر إلى الحشود بالخارج، والتي بلغت قرابة المليونين على طول شارع (إدسا) حيث طالبوهم بعدم الانصراف، في الوقت الذي خالفت فيه مقاتلتان حربيتان صدرت لهما أوامر مسبقة بقصف المعسكر وتوجها بدلًا من ذلك إلى «قاعدة كلارك الجوية - Clark Air Base»، في قرابة الساعة التاسعة صباحًا اضطر (ماركوس)، وأفراد أسرته وجنرالاته للظهور على شاشة التلفزة لكي ينفوا الأنباء التي أفادت بهروبهم خارج البلاد، كان هذا الظهور للرئيس وحاشيته على شاشة التلفزيون محبطًا بشكل كبير لأفراد الشعب، وهو ما أدركه الجنود المتمردين، لذلك كان هدفهم هو السيطرة على القناة الرابعة الموالية للنظام للحد من التأثير السلبي الذي يحدثه (ماركوس) كل مرة عقب ظهوره، استطاعوا بعد تبادل قصير لإطلاق النار مع القوات الموالية، وعقب تسلق أحد المتظاهرين جدار المحطة، ورفع لافتة تحمل اسم (كوري أكينو) من احتلال المحطة، و نجحوا في قطع البث عن المؤتمر الصحفي للرئيس، لم يستجب الكولونيل (بالاباس) للأوامر الصادرة بشأن قصف معسكر (كرامي) الذي يتحصن فيه المتمردون متعللًا بالبحث عن الخرائط، حتي يستطيع إعادة توجيه المدفعية للمواقع المستهدفة، وعند منتصف النهار انسحبت قوات الكولونيل (بالباس) من كامب (أجوينالدو)، في الرابعة والنصف عصرًا ظهرت (كوري أكينو) في شارع (إدسا) في زاوية تقاطعه مع شارع (أورتيجاس) أمام مبنى [وكالة توظيف العمالة الفلبينية - Philippine Overseas Employment Administration (POEA)]، وألقت خطابًا سريعًا كان هو الأول للحشود، ونتيجة لتسارع الأحداث لم يكن أمام الإدارة الأمريكية بُد سوى خروج الرئيس الأمريكي (رونالد ريجان) ليطالب الرئيس (ماركوس) بسرعة تقديم استقالته، وبذلك الخطاب أصبح موقف الولايات المتحدة الرسمي واضحًا بوقف الدعم عن حليفها.

أعقب ذلك قيام رئيس الخطوط الجوية الفلبينية [رومان كروز - Roman Cruz] بتوجيه خطاب استقالته إلى (كوري أكينو) ليصبح بذلك أول مسؤول يعترف بها رسميًّا كرئيسة للبلاد، وسرعان ما اعترفت الولايات المتحدة بإعلان (كوري) لحكومتها المؤقتة، وفي محاولة أخيرة للرئيس (ماركوس) للحفاظ على سيطرته على البلاد ظهر هو وأفراد عائلته على شاشة التلفزيون حيث ناشد المدنيين الموالين له بالذهاب إلى شارع [ميندیولا - Mendiola] حيث المقر الرئاسي لدعمه، وطالب الشعب ألَّا يطيع إلا الأوامر التي تصدر من خلاله باعتبار أنَّه النظام الشرعي للبلاد، معلنًا قرارًا بحظر التجوال من الساعة ٦ مساءً وحتى الساعة ٦ صباحًا، وهو القرار الذي لم يلتفت له أحد ولم يشعر به أحد، فقد تلاحقت الأحداث سريعًا، وزادت ثقة الحشود بقدراتهم على الإطاحة بالديكتاتور (ماركوس)، وأن الأمر أصبح قريبًا

جداً، في التاسعة من مساء ذات اليوم اجتمعت (كوري) مع تحالف (إنريلي – راموس) حيث تمَّ الاتفاق على إجراء مراسم تعيينها رسميًّا كرئيسة للبلاد في [النادي الفلبيني - Club Filipino] ذلك النادي العريق والراقي والذي يُعد أول نادي اجتماعي في الفلبين، وجاء اختيار هذا الموقع برغبة من (أكينو)، في حين كان يرغب التحالف العسكري في إقامته داخل معسكر (كرامي).

في الخامسة من صباح اليوم التالي الثلاثاء ٢٥ فبراير، اليوم الأخير من أيام ثورة (إدسا) الأربعة قام الرئيس (ماركوس) بالاتصال بالسيناتور الأمريكي [بول لاكسالت - Paul Laxalt] الصديق المقرب جدًا من الرئيس الأمريكي (رونالد ريجان) يستفسر منه عمَّا إذا كان يجب عليه الاستقالة، فأجابه السيناتور بأنَّه يجب عليه أن يفعل ذلك الآن، وبشكل سلمي حيث أن الوقت قد حان، ولكن (ماركوس) أخبر بعدها وزير العمل الفلبيني المتواجد في العاصمة الأمريكية (واشنطن) لحشد الدعم الأمريكي له بأنَّه لن يستجيب لدعوة التنحي حيث وجد أن زوجته (إيملدا) ترفض هذا القرار، كانت تلك محاولات يائسة، ومستميتة أخيرة من (ماركوس) لمحاولة البحث عن أي طوق نجاة يتفادى بيه سيناريو التنحي، بعد قليل طلب (ماركوس) من أفراد عائلته الاستعداد لمغادرة البلاد.

ومع بداية الصباح تمَّ دعوة الحشود للتواجد عند النادي الفلبيني لتأمينه بينما كانت (كوري) في مقر إقامتها بشارع (التايمز) بمدينة (كويزون) التي يمر بها شارع (إدسا)، وصلت (كوري) لمقر النادي الفلبيني قرابة الساعة العاشرة والربع صباحًا، وبعد نصف ساعة كانت تقف أمام القاضي [كلاوديو تيهانكي - Claudio Teehankee] تؤدي القسم الدستوري كرئيسة للبلاد في حضور الجنرال (راموس) ووزير الدفاع (إنريلي) لتصبح تلك السيدة النحيلة ذات الرداء الأصفر أول امرأة تصل لرئاسة الفلبين وهي في عمر ٥٣ عامًا، وأول سيدة تتقلد منصب الرئاسة في قارة آسيا، غادرت (كوري) بعد حضورها احتفال تنصيبها الموقع لتذهب مع أفراد أسرتها لزيارة قبر زوجها الراحل (نينوي أكينو) في [ساحة مانيلا التذكارية - Manila Memorial Park]، أمَّا (ماركوس) فلم يفقد الأمل حيث دخل قاعة الاحتفالات بقصر (مالاكانانج) الرئاسي قبل منتصف النهار لأداء القسم الدستوري كرئيس للبلاد، وبينما يرفع (ماركوس) يده لأداء القسم تمَّ قطع التغطية التلفزيونية المباشرة بشكل مفاجئ وفي توقيت مثالي ويتوقف البث عن القنوات الثانية والتاسعة والثالثة عشر الناقلة للحدث، تمَّ استدعاء رئيس المحكمة العليا [رامون أكينو - Ramon C. Aquino] لإعادة تسجيل أداء (ماركوس) لليمين، وتعتبر تلك هي اللحظة الأولى، والوحيدة في تاريخ الفلبين التي يوجد فيها رئيسين للبلاد، والتي استمرت قرابة تسعة ساعات.

خرج بعدها (ماركوس) من شرفة القصر ليلوح بيده لقرابة ٢٥٠٠ شخص مؤيد له تمَّ جمعهم عند القصر وهو يهتفون مطالبين بإعلان الأحكام العرفية، تلك الأحكام التي أصدرها يومًا ما (ماركوس) في سبتمبر عام ١٩٧٢ وظلت جاثمة على أنفاس الشعب حتى ١٧ يناير ١٩٨١، كانت كل الضغوط والتطورات تحتم على (ماركوس) سرعة التخلي عن الحكم، حيث عرضت عليه الولايات المتحدة من خلال جنرال سلاح الجو [تيد ألين - Theodore Allen] قائد القوات الأمريكية في الفلبين استخدام طائرات الهليكوبتر الأمريكية لنقل (ماركوس) من القصر، في الخامسة عصرًا أعاد (ماركوس) الاتصال بالجنرال (إنريلي) ليبحث معه ترتيب مغادرته القصر، في حين ناقش رئيس وزرائه [سيزار فيراتا - Cesar Virata] أمر الرحيل مع (كوري)، قام مساعدو (ماركوس) بتجهيز المتعلقات الخاصة به، وبأسرته للخروج من القصر، ولمْ تكنْ تلك المتعلقات تشمل فقط الملابس، والكتب ولكن أيضًا صناديق المال التي كانت مُخزّنة في غرفة نومه منذ بدء الحملة الانتخابية، قبل رحيل (ماركوس) اتصل السفير الأمريكي (ستيفن بوسورث) بالرئيسة (كوري أكينو) يسألها عن مدى إمكانية أن يغادر (ماركوس) القصر إلى مسقط رأسه في مقاطعة [إيلوكوس نورت - Ilocos Norte] بأقصى شمال الفلبين ليستقر هناك لمدة يومين لمنع أي محاولات لتجمهر المواليين له، وهو الأمر الذي رفضته (كوري) كليًّا وفوريًا.

سارعت عائلات الجنرال (فير)، ورجل الأعمال [ادواردو كوجوانكو - Eduardo Cojuangco] مالك مجموعة (سان ميجل) التي تعد أكبر مجموعة شركات أغذية، ومشروبات في الفلبين وجنوب شرق آسيا إلى قاعدة (كلارك) الجوية، قرابة التاسعة مساءً حلقت أربعة مروحيات أمريكية تحمل (ماركوس) وعائلته خارج القصر متجهة إلى قاعدة (كلارك) الجوية حيث كان في استقباله هناك السفير الأمريكي الذي أمن له السفر للولايات المتحدة على طائرة «لوكهيد سي ١٣٠ - Lockheed C-١٣٠»، بينما هلل العاملون الفلبينيين في القاعدة عند وصوله بهتافات: «كوري... كوري»، في (إدسا) بدأت الجموع بالاحتفال عقب سماعها بالأنباء الواردة عن رحيل (ماركوس) وكذلك كان الأمر في أنحاء البلاد، وهو ما أكدته محطة تلفزة القوات الجوية الأمريكية (FEN) في العاشرة مساءً، وكان نتيجة ذلك اقتحام المتظاهرون قرابة منتصف الليل القصر الرئاسي بينما فر الموالين للرئيس (ماركوس) في جميع الاتجاهات هروبًا من الحشود المقتحمة ومنهم من ألقى بنفسه في نهر (الباسيج) الذي يطل عليه القصر، وسرعان ما تدخلت قوات الجنرال (راموس) لتأمين المبنى من اللصوص والمخربين الذين حاولوا نهب ما تصل إليه أيديهم داخل القصر، ومن المتداول أنَّهم اكتشفوا أن (إيميلدا) خلفت وراءها أكثر من ٢٧٠٠ زوج من الأحذية في خزانة ملابسها، الأمر الذي أخذ حيزًا إعلاميًّا ضخمًا بعد ذلك

وظل مُلاحقًا لها باعتبارها مهووسة بالأحذية، وصلت الطائرة التي تقل (ماركوس)، وعائلته إلى «قاعدة أندرسون الجوية - Andersen Air Force Base» بجزيرة [جوام – Guam] الأمريكية غرب المحيط الهادي، ومنها إلى «قاعدة هيكام الجوية - Hickam Air Force Base» في [بيرل هاربور – Pearl Harbor] حيث وصلها يوم ٢٦ فبراير.

ووفقًا للسجل الرسمي للجمارك الأمريكية فإن طائرتي النقل «C-١٤١» التي كانت تحمل عائلة (ماركوس) وأقرب حلفائه كانت تحتوي على ٢٣ صندوقًا خشبيًّا بالإضافة إلى ١٢ حقيبة متنوعة وصناديق تضمنت محتوياتها ما يكفي من الملابس لملء ٦٧ رف، أيضًا تشير السجلات إلى وجود ٤١٣ قطعة من المجوهرات وعدد ٢٤ سبيكة ذهبية منحوتًا عليها عبارة «لزوجي في الذكرى الرابعة والعشرين»، ومبالغ نقدية مطبوعة حديثة تتعدى قيمتها ٢٧ مليون (بيسوس) فلبيني.

شملت المجوهرات ٧٠ زوجًا من أزرار الأكمام مرصعة بالجواهر، وتمثال عاج يمثل المسيح رضيعًا، بلغت القيمة الإجمالية لهذه المنقولات وقتها ١٥ مليون دولار، في حين أن اللجنة الرئاسية التي أنشأتها حكومة (كوري أكينو) قد حددت بأن (ماركوس)، وأسرته قد نهبوا ما يقدر من ٥ إلى ١٠ مليارات دولار، وأنَّهم عاشوا حياة بذخ تم فيها تحويل مليارات من الدولارات خارج البلاد خلال فترة حكمه التي بلغت عشرون عامًا، ونتيجة مضاعفات أمراض الكلى والكبد والقلب التي كان يعاني منها (ماركوس) توفي في منفاه في [هونولولو – Honolulu] عاصمة ولاية [هاواي – Hawaii] الأمريكية بعد ثلاث سنوات ونصف من وصوله وتحديدًا صباح يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٨٩ عن عمر يناهز ٧٢ عامًا، الآن (إيمي ماركوس) ابنة (ماركوس) الكبرى تتولّى منصب حاكم مقاطعة (إيلوكوس-نورت) معقل الأسرة في شمال البلاد، وقد ساعدت في جمع الأموال لحملة انتخابات الرئيس الحالي [رودريجو دوتيرتي - Rodrigo Duterte] في ٢٠١٦، أمّا الابن السيناتور [فرديناند – Ferdinand] الذي يحمل اسم والده فقد كاد أن يفوز في انتخابات منفصلة لمنصب نائب الرئيس في العام نفسه، وهو يأمل بالترشّح للرئاسة بعد انتهاء ولاية (دوتيرتي) في منتصف ٢٠٢٢، أمَّا (كوري) فقد تولت الرئاسة في آخر أيام ثورة (إدسا) ولمدة ٦ أعوام وخلفها في حكم البلاد الجنرال (فيدل راموس) الذي قاد الانقلاب على (ماركوس) مع الجنرال (إنريلي) عبر انتخابات ديمقراطية شابها بعض الانتقادات.

زارت (كوري) قبل نهاية مدتها الرئاسية [دير الرهبنة الكرملية] التي تخفت بداخله في أول أيام الثورة، تحلت الثورة الفلبينية بالروحانيات الدينية والترانيم والدعاء فعقب الثورة وفي عام ١٩٨٩ تمَّ إنشاء كنيسة مريم أو ما

يعرف باسم ((ضريح إدسا - EDSA Shrine)) الذي يعد الآن معلمًا سياحيًّا هامًا ويقع في تقاطع شارع (أورتيجاس) مع شارع (إدسا) لتخليد الثورة، يتوسط الكنيسة تمثال برونزي للعذراء مريم حيث يسود اعتقاد بين الناس بأنَّ السيدة مريم قد ظهرت فعليًّا لتحمي المتظاهرين السلميين أثناء أيام الثورة الأربعة، اختارت مجلة [التايم – Time] الأمريكية الرئيسة النحيلة (كورازون أكينو) لتصبح شخصية العام ١٩٨٦، في ١ أغسطس ٢٠٠٩ رحلت (كوري) عن عمر ٧٦ عامًا داخل مستشفى (ماكاتي) بالعاصمة مانيلا بعد صراع طويل مع مرض سرطان القولون، ودفنت بجوار زوجها (نينوي أكينو) في ساحة مانيلا التذكارية، في عام ٢٠١٠ أصبح ابنها [بنيجنو أكينو الأصغر - Benigno Aquino III] الرئيس الخامس عشر للفلبين وحتى عام ٢٠١٦.

تكرر سيناريو (إدسا) مرة أخرى عام ٢٠٠١ عندما تم عزل الرئيس [جوزيف استرادا - Joseph Estrada] الرئيس الثالث عشر للفلبين من الحكم بعد ٣ سنوات من انتخابه خلال أربعة أيام من ١٧ إلى ٢٠ يناير فيما عرف بثورة [إدسا ٢ – EDSA ٢]، في ٢٨ سبتمبر ١٩٩٠ وبعد ٣ سنوات ونصف من إعادة التحقيقات في مقتل (نينوي أكينو) أدانت المحكمة ستة عشر من العسكريين الذين صاحبوا (نينوي) عقب وصوله المطار بالسجن مدى الحياة لمشاركتهم في اغتيال السيناتور (نينوي أكينو)، في حين برأت المحكمة ٢٢ شخصًا آخرين، ولكن يبقى العقل المدبر للحادث مجهول رسميًّا ولم يوجد أي دليل لإدانته، وما زلت حتى اليوم تتباين الاعتقادات بأنَّ المسؤول عن جريمة القتل إمَّا هو ذاته الرجل الذي قتل على أرضية المطار (رولاندو جالمان) أو رقيب الشرطة العسكرية (روجيليو مورينو) الذي كان خلف السيناتور على سلم الطائرة، في ١٠ ديسمبر ١٩٨٧ أصدر البرلمان قرار بتغيير اسم مطار مانيلا الدولي إلى [مطار نينوي أكينو الدولي - Ninoy Aquino International Airport]، وفي ٢٥ أبريل ٢٠٠٤ أصدر الكونجرس قرارًا باعتبار يوم ٢١ أغسطس من كل عام والذي يصادف يوم اغتيال (نينوي) عطلة رسمية تحمل عنوان [يوم نينوي أكينو - Ninoy Aquino Day] تخليدًا لذكراه، واليوم إذا وقعت في يدك العملة الفلبينية من فئة الخمسمائة (بيسوس) ستجد على وجهها صورة (نينوي أكينو)، وعلى ظهرها صورة أخرى لوجهه مع صورة لوجه زوجته (كوري أكينو) تخليدًا لذكراهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

ستوكهولم سيندروم

قبل دقائق من منتصف ليل يوم ٥ مارس ١٩٧٣ كان السجين [دونالد دي فريز - Donald DeFreeze] يترك غرفة المراجل التي يعمل بها داخل سجن [سوليداد - كاليفورنيا - California – Soledad]، ويقترب من سور السجن حيث كانت حالة الحراسة شبه خاملة، كان أحدهم قد ترك ملابس له بجوار السور الذي استطاع أن يعبره خلسه السجين الأسود، لينطلق بعدها سريعًا إلى مدينة [أوكلاند – Oakland] بذات الولاية، هناك اِختبأ (دي فريز) لدى أحد أعضاء [الرابطة الثقافية للسود - Black Cultural Association]، تلك الرابطة التي أنشأت في جامعة (كاليفورنيا) للاهتمام بشؤون المسجونين التعليمية، والسياسية وكانت تضم بعض المتطرفين اليمينيين البيض، أقام (دي فريز) لمدة أشهر لدى [باتريشيا سولتيسيك - Patricia Soltysik] حيث قاما معًا بإنشاء ما سُمي بعد ذلك باسم [جيش التحرير التكافلي - Symbionese Liberation (Army (SLA]، وهي جماعة عُرِّفَت بأنَّها يسارية ثورية إرهابية، ووصفت نفسها بالجيش الطليعي، وارتكبت عدة أعمال إجرامية متنوعة بين قتل، واختطاف وسرقة بنوك في فترة نشاطها ما بين عامي ١٩٧٣ – ١٩٧٥.

أقدمت هذه الجماعة في ٦ نوفمبر ١٩٧٣ على اغتيال المعلم الأسود [ماركوس فوستر - Marcus Foster] مدير مدارس (أوكلاند) المتحدة في (أوكلاند – كاليفورنيا)، وأصابت مُساعده [روبرت بلاكبيرن - Robert Blackburn]، تمَّ القبض على اثنين من أفراد الجماعة، وهما [جوزيف روميرو - Joseph Romero]، و [روسيل ليتل - Russell Little] حيث تمَّ توجيه الاتهام لهما بتنفيذ عملية الاغتيال، ونتيجة لذلك قررت الجماعة بقيادة (دي فريز) خطف شخصية هامة تستطيع من خلالها التفاوض لإطلاق سراح كل من عضويها (روميرو)، و (ليتل)، وقع الاختيار على اختطاف الفتاة [باتي هيرست - Patty Hearst] الطالبة بالمرحلة الثانية في [جامعة كاليفورنيا، بيركلي - University of California, Berkeley]، ترجع أهمية (هيرست) (١٩ عامًا) التي تدرس تاريخ الآداب، وتقيم مع خطيبها (ستيفن ويبد) في مدينة [بيركلي – Berkeley]، في أنَّها حفيدة أحد أكبر أقطاب النشر الصحفي في أمريكا، وهو السياسي، ورجل الأعمال الشهير [ويليام راندولف هيرست - William Randolph Hearst]، الذي عُرف عنه القيام بتطوير أكبر سلاسل الصحف، ووسائل الإعلام في البلاد.

مرت سبعة أشهر قبل أن تستطيع الشرطة السويدية القبض على المجرم الهارب [كلارك أولفسون - Clark Olofsson] (٢٦ سنة) في ٢ فبراير ١٩٧٣، (أولفسون) مجرم ومُسَجَل خطر ارتكب العديد من عمليات السطو المسلح، وأعمال العنف، نجح اللص الهارب خلال فترة هروبه من السطو على مصرف

بمدينة [جوتنبرج - Gothenburg] التي تقع قرابة الساحل الغربي للسويد، حدثت عملية القبض عليه مصادفة عندما تلقت الشرطة بلاغ من إحدى عاملات النظافة عن اكتشافها مسدس في غرفة أحد النزلاء في فندق صحي (Kurhotel) في بلدية [أولريسهامن - Ulricehamn]، حيث كان يقيم في تلك الغرفة ومنها وقع في قبضة الشرطة، تم الحكم عليه في مايو ١٩٧٣ بالسجن ست سنوات، لم يكد يمر شهرين على الحكم عليه، عندما وقفت سيارة من طراز (مرسيدس ٢٢٠ SE) بمحاذاة سور سجن [نورشوبينغ – Norrköping]، الذي يقع في قرية سويدية تحمل نفس الاسم، وتبعد عن العاصمة (ستوكهولم) مسافة ١٦٢ كم، كان محرك السيارة في وضع التشغيل، وبالقرب من السيارة كان يقف السجين الهارب [جان إريك أولسون - Jan-Erik Olsson] (٣٢ عامًا)، في محاولة منه لمساعدة صديقه السجين [كلارك أولفسون - Clark Olofsson] على الفرار من السجن، عند اقتراب (أولفسون) من سور السجن اكتشف عدد من السجناء محاولته للهروب، حيث تمكنوا من إفساد محاولة فراره، ولكن السجين الهارب (أولسون) لن يستسلم، وسيقوم بعد شهر بمحاولة أخرى لإنقاذ صديقه، وستكون أكثر القضايا الجنائية شهرة ولفتًا للأنظار، والاهتمام في تاريخ السويد.

بعد الساعة العاشرة بقليل من صباح يوم الخميس ٢٣ أغسطس ١٩٧٣، خطى (أولسون) خارج أحد فروع سلسلة متاجر التجزئة الصغيرة [برسبيران – Pressbyrån] في وسط العاصمة السويدية (ستوكهولم)، مرتديًّا قفازات، ومتخفيًّا خلف نظارة شمسية، وشعر بني مستعار، وحاملًا مسدس رشاش مخبأ داخل ملابسه، أسرع الخطى متخذاً وجهته نحو مصرف [كريديتبانكن – Kreditbanken] أحد أكبر بنوك (ستوكهولم)، والمطل على ساحة [نورمالمستورج – Norrmalmstorg] الشهيرة لتبدأ سلسلة من الأحداث الدرامية التي ستستحوذ على جُلّ اهتمام الرأي العام في السويد وستسمر لمدة ستة أيام متتالية، في بهو البنك أخرج (أولسون) سلاحه وشرع في إطلاق النيران في الهواء وهو يصيح قائلا: « لقد بدأت الحفلة الآن».

أخرج (أولسون) من حقيبته جهاز راديو ترانزستور ورفع درجة الصوت إلى أقصاها، ثم وضعه على الكاونتر، لتمتلئ أرجاء المكان بموسيقى الروك، ثم توجه لأحد موظفي البنك مشهراً سلاحه ومجبرًا إياه على تقييد أيدي ثلاث موظفات أخريات يعملن بالبنك، وبذلك يتمكن (أولسون) تحت تهديد السلاح بالاحتفاظ على أربعة رهائن بحوزته، على الفور تمَّ إبلاغ الشرطة التي حضرت في الحال، ارتجل شرطيان، وهما [إنجمار فاردفيلت - Ingemar Warpefeldt]، ومساعده [مورجان ريلاندر - Morgan Rylander] داخل البنك، فصرخ (أولسون) فيهما يسألهما بالإنجليزية إذا كانا من الشرطة، فأجابه (فاردفيلت) بثبات مؤكدًا أنَّهما بالفعل رجلي شرطة، وعلى الفور أطلق

(أولسون) المتوتر النار عليه فأصيبت يده مُخلفة قَطّع في العضلات، والأوردة لن يستطيع استعادتها لاحقًا، سقط (فاردفيلت) على الأرض، وهو ينزف من يده، بينما أمر (أولسون) الشرطي الآخر (ريلاندر) بالجلوس على أحد المقاعد، ثم طلب منه الغناء، وسط دهشة الحضور بما فيهم الشرطي من هذا المشهد العبثي. بدأ (ريلاندر) في غناء أغنية: «Lonesome Cowboy» لمغني الروك (الفيس بريسلي)، بعد قليل بدأ (أولسون) يعلن للسلطات الأمنية طلباته التي تتلخص في إطلاق سراح زميله (كلارك أولفسون) في الحال وإحضاره إليه داخل البنك، وأن تقوم السلطات بتزويده بمبلغ ٣ مليون (كورونا) سويدية بما يعادل ٧٠٠ ألف دولار، ومسدسين وسترات واقية للرصاص، وخُوّذ للرأس، بالإضافة إلى سيارة سريعة ذات خزان وقود ممتلئ.

كان الرهائن الأربعة وجميعهم من موظفي البنك عبارة عن ثلاثة نساء هن [بيرجيت رودستراند-لوندبلاد - Birgitta Rudstrand-Lundblad] ٣٢ سنة، متزوجة، وأم لطفل عمره عامين، و[إليزابيث أولدجرين - Elisabeth Oldgren] ٢١سنة، مسؤولة الخزينة، و[كريستين إنمارك - Kristin Enmark] ٢٣ سنة، كاتبة الاختزال بالبنك، أما الرجل الوحيد بينهن فكان [سفين سيفستروم - Sven Säfström] ٢٥ سنة، وافقت السلطات على إطلاق سراح (أولفسون) من سجن [نورشوبينغ – Norrköping] حتى يكون وسيلة تواصل لهم مع (أولسون)، وفي تمام الساعة الرابعة بعد الظهر تمَّ إحضاره للبنك مقيدًا، كما استجابت السلطات لطلب الخاطف بتوفير سيارة من طراز (فورد – موستانج) زرقاء اللون وقفت أمام البنك، ولكن السلطات قررت عدم السماح للخاطف ولا لزميله السجين بأخذ أي من الرهائن معهما بتلك السيارة إذا قررا الفرار بها، تمَّ تجهيز تلك السيارة بجهاز إرسال حتى تتمكن الشرطة من تتبعها إذا ما قرر الخاطفين استخدامها، احتفظ الخاطفين بالرهائن الأربعة في القبو الرئيسي للبنك بعد أن تمكنا من تحصين المكان جيدًا.

بدأت الحادثة في جذب اهتمام الرأي العام في السويد نظرًا لاحتفاظ الخاطفين بعدد من الرهائن، وعند منتصف الليل بدأ أول تواصل يقوم به الخاطفين مع مستوى رفيع في الدولة، حيث قام (أولسون) بالاتصال برئيس الوزراء السويدي [أولوف بالمه - Olof Palme] مهددًا إياه بقتل الرهائن إذ لمْ يتمْ السماح لهما مع الرهائن الأربعة بمغادرة البنك، ولتأكيد تهديده قبض على عنق إحدى الرهينات وهي (إليزابيث أولدجرين) لخنقها حيث تمَّ سماع صوت حشرجتها قبل أن يغلق الهاتف، حتى تلك اللحظة لمْ تكنْ شخصية الخاطف معروفة، واستنتجت الشرطة استنتاجا خاطئًا من خلال تحرياتها السريعة بأن الخاطف قد يكون مجرم آخر هارب يدعى (كاج هانسون)، في صباح اليوم التالي قامت الشرطة بإحضار شقيق (هانسون) من مقاطعة (سكاين) (٥٥٠

كم من ستوكهولم) إلى البنك للتحدث مع الخاطف باعتباره شقيقه، حيث كانت الإجابة طلقة من (أولسون) أودت بحياته، في الواقع كان المجرم الهارب (هانسون) في تلك الأثناء في هاواي، وقد أصابه الجنون عندما علم بمقتل شقيقه من الصحف.

عند قرابة الساعة الخامسة عصر اليوم التالي استقبل رئيس الوزراء المكالمة الثانية وكانت تلك المرة من المُختطَفة (كريستين إنمارك)، وكانت مكالمة غريبة نوعًا ما حيث قالت له: «في الواقع لقد أصبت بخيبة أمل كبيرة معكم يا سيد (بالمه)، لقد كنت طوال حياتي منتمية لحزبكم الحزب الديمقراطي الاجتماعي، ولكن أعتقد الآن أنَّك تغامر بحياتنا، أنا لست الوحيدة غير الخائفة من الخاطفين أو اليائسة منهم، فهل يمكنك السماح لنا بمرافقة (أولفسون)، والخاطف الآخر؟»

كانت تلك هي العلامة الأولى لما سيُعرف لاحقًا باسم: «متلازمة ستوكهولم»، وتعاطف الرهائن مع الجناة.

يشير مصطلح [متلازمة – Syndrome] إلى مجموعة من الأعراض التي تصف بشكل جماعيّ حالة نفسية غير طبيعية تصل إلى حد الاضطراب النفسيّ، والعامل المشترك في جميع أنواع المتلازمات هو عدم القدرة على استعمال العقل بالشكل السليم، والانفصال عن الواقع، والاستسلام للأوهام، ويفسر العلماء «متلازمة ستوكهولم - Stockholm Syndrome»: بأنَّها ظاهرة نفسية تصيب الفرد حيث يتعاون إيجابيًّا، أو يشعر بنوع من التعاطف تجاه عدوه، أو مع من يُسيء إليه، وتظهر بوضوح في حالات الخطف حيث ينشأ تحالف نفسي لدى المخطوفين تجاه خاطفيهم كاستراتيجية لتأمين حياتهم أثناء الأسر، وهي ظاهرة تبدو متناقضة؛ لأن مشاعر التعاطف التي يبديها الأسرى تجاه آسريهم هي عكس الخوف، والاحتقار الذي يشعر به عادة الإنسان الطبيعي تجاه الخاطفين، أو المعتدين عليه، يكشف نظام قاعدة بيانات الرهائن التابع لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي (FBI) أن نسبة ثمانية بالمائة من ضحايا الاختطاف عُرضة للإصابة بمتلازمة ستوكهولم، هذه المتلازمة لا تتطلب دائمًا وجود حالة خطف مباشر، ولكنَّها قد تنشأ أحيانًا في علاقة بين طرفين أحدهما يمتلك سلطة على الآخر، ويسيء له، أو يهدده، أو يعتدي عليه بشكل دائم أو متقطع، فيلجأ المعتدَى عليه كنوع من الحماية لنفسه بإبداء نوع من التعاطف والتفهم للأسباب التي دفعت المعتدِي لذلك، وتدريجيًّا ومع طول المدة تستقر تلك المشاعر في وجدان المعتدَى عليه، ولا تزول بسهولة حتى بعد زوال مصدر التهديد.

ومن الأعراض العامة لتلك الظاهرة هي المشاعر السلبية للضحية تجاه من يحاولون إنقاذهِم، أو مساعدتهم بالإضافة إلى تفهم، ودعم وتأييد سلوك وفكر

المعتدِي، وفضلًا عن حالات الاختطاف والأسْر، فإن تلك الظاهرة قد برزت أيضًا في بعض حالات الأطفال أو النساء المعتدى عليهم جسديًا أو جنسيًا، وضحايا الاغتصاب وتحديدًا اغتصاب المحارم، وكذلك لدى السجناء والمعتقلين، وتبرز أيضاً أثناء التدريبات العسكرية الأولية للمستجدين التي تتميز بالصرامة والشدة والسيطرة، هذه الظاهرة أيضًا تعطي تفسيرًا منطقيًّا، وإجابة لاستفسارات حول سلوكيات الشعوب المقهورة تجاه أنظمتها الحاكمة القمعية، حيث يعتاد الشعب على القمع والامتهان لدرجة تجعله يُمَجّد الحاكم القمعي وسلطته ويتخلى تمامًا عن فكرة التغيير، بل يتحول إلى مدافع قوي للنظام المستعبِد له، ويبرر له كل تصرفاته وسلوكياته القمعية، ويضيق وينتقد أي محاولة يقدمها له الآخرون قد تساعده في التخلص من سيطرة نظامه الحاكم المستبد، ويفسر العلماء ذلك بأن خضوع الشعوب للأنظمة القمعية، والاستماتة في الدفاع عنها والتماس المبررات لما تقوم به من بطش والاستكانة لذلك، يتكون بسبب الخوف من المواجهة التي ترى الشعوب أنَّها ستكلفها الكثير الذي ستندم عليه لو أقدمت على معارضته، لذلك يجد في الخضوع، والطاعة، والدفاع المستميت عن بقائها أنه الخيار الأمثل.

في (بيركلي- كاليفورنيا) عند قرابة الساعة التاسعة مساء يوم ٤ فبراير ١٩٧٤ قامت مجموعة مسلحة من رجال، ونساء باقتحام الشقة رقم ٤ في ٢٦٠٣ [شارع بينفينيو - Benvenue Avenue] حيث تسكن الطالبة الجامعية (باتي هيرست) (١٩ عامًا)، قامت المجموعة بضرب خطيبها المقيم معها، ثمَّ قاموا بتقييدها بعدما أغموا عينيها، وكمموا فمها، وألقوها في صندوق إحدى السيارات وانطلقوا بها بعيدًا، كانت جماعة (جيش التحرير التكافلي – SLA) بقيادة (دي فريز) هي التي نفذت عملية الاختطاف الذي سيستمر لمدة ١٩ شهرًا، كانت الجماعة اليسارية تدعم حرب العصابات ضد الحكومة لتدمير ما يسموه بالدولة الرأسمالية، وكانت تضم بين صفوفها النساء، والرجال من ذوات البشرة السوداء، أو البيضاء وكذلك الأناركيين والمتطرفين، يعود اختطاف (هيرست) لعدة أسباب منها لفت الأنظار إليهم، وقد كانوا مُحقين في ذلك حيث تصدرت أنباء عملية الاختطاف، وأخبار الجماعة الصفحات الأولى للصحف المحلية، ومن الأسباب أيضًا الحصول على المال حيث أصدرت الجماعة تسجيلات صوتية تطالب فيها عائلة المختطفة (هيرست) بتوزيع ما قيمته ٧٠ دولارًا من الطعام على كل محتاج من سكان كاليفورنيا، وهي عملية من شأنها أن تكلف ما يقدر بنحو ٤٠٠ مليون دولار، وردًا على ذلك أخذ والد (هيرست) قرضًا، وقام بالتبرع الفوري بما قيمته ٢ مليون دولار من الطعام لفقراء منطقة الخليج بكاليفورنيا، وقد أحدث هذا التبرع العشوائي شغبًا في الحي، ثمَّ رفض لاحقًا (دي فريز) الإفراج عن الرهينة المختطفة

(باتي هيرست)، وثالث أسباب الاختطاف الرئيسية هو استغلال نفوذ عائلة (هيرست) السياسي لإطلاق سراح عضوي الجماعة المتهمين بقتل المعلم (فوستر).

تمَّ احتجاز (هيرست) بطريقة بشعة داخل خزانة ملابس لمدة أسبوع مع إغماء عينيها، وتقييد يديها بينما استمر (دي فريز) في تهديدها بالقتل، كانت تخرج فقط لتناول الطعام، وهي معصوبة الأعين، وبعد مرات متعددة بدأت تشارك في حواراتهم السياسية، وأبدت نوعًا من التعاطف مع أفكارهم، كانت تلك القسوة التي عاشتها أثناء احتجازها، والتهديد المستمر لها بالقتل تثيرها رعبًا، حتى أخبرها (دي فريز) أن الجماعة تفكر إمَّا في التخلص منها نهائيًّا، أو الانضمام لهم فرحبت بالبقاء معهم، والانضمام لهم، وتمت إزالة العصابة عن عينيها لترى وجوه خاطفيها للمرة الأولى، قامت الجماعة بإعطائها دروسًا حول مهامها وخصوصًا تدريبات الأسلحة.

أخبرت [أنجيلا أتوود - Angela Atwood]، وهي إحدى العضوات المؤسسين لجماعة جيش التحرير السامبيوني (هيرست) بأنَّه يجب عليها أن تتفهم ماهية الحرية الجنسية داخل الجماعة وبين أعضائها، فتم اغتصابها من قبل العضو (وليام وولف)، وبعدها من (دي فريز)، في يوم ٣ أبريل ١٩٧٤ أصدرت الجماعة شريط تسجيل صوتي تصرح فيه (هيرست) بأنَّها انضمت للجماعة في قتالهم لتحرير المظلومين، واتخذت لنفسها اسم جديد، شوهدت (هيرست) بعد ١٢ يومًا من خلال كاميرات المراقبة، وهي تشارك الجماعة في عملية سطو على أحد البنوك، وتحمل سلاحًا ناريًّا حيث تقوم فيه بالتغطية على أفراد العصابة أثناء قيامهم بالسطو على البنك، في هذه الأثناء أطلق مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) واحدة من أكثر عمليات البحث المكثفة في تاريخه للعثور على (هيرست)، ووقف نشاط الجماعة، ولكن الأمر كان صعبًا نتيجة النظام الأمني الجيد للجماعة واعتمادهم على شبكة من المنازل السرية الآمنة للتنقل، حتى كان يوم ١٦ مايو ١٩٧٥ عندما قام عضوين من الجماعة بسرقة حزام ذخيرة حية من أحد المتاجر المحلية في (لوس أنجلوس)، واستطاعت الشرطة تحديدهما، وقامت بتتبعهما حتى قادتهم سيارتهما إلى منزل تابع للجماعة، أحاطت قوات الشرطة بالمنزل، وقامت باقتحامه تحت غطاء كثيف من الطلقات النارية واشتعل المنزل بالنيران، ومات بداخله ٦ من أعضاء الجماعة بما فيهم قائدها (دي فريز).

نجحت (هيرست) في الفرار، وشرعت في السفر لأماكن متعددة تفاديًا للقبض عليها، ولكن المباحث الفيدرالية كانت ورائها بالمرصاد حتى تمكنت من القبض عليها أخيرًا في مدينة (سان فرانسيسكو) في ١٨ سبتمبر ١٩٧٥، تمَّ توجيه الاتهام لها بالمشاركة في سرقة بنك، وجرائم أخرى، كانت محاكمتها

مثيرة مثل مطاردتها نتيجة ادعاءاتها بأنَّه تمَّ عمل غسيل دماغ لها، وفي تلك المحاكمة بدأ مصطلح: «متلازمة ستوكهولم» يظهر بشدة ليوضح الحالة النفسية التي كانت تعيشها (هيرست) والتي تشابه الحالة التي أصيبت بها الرهينات في حادثة بنك ستوكهولم قبل عام، وليكون خير مثال يُضرب به دائمًا للتدليل على المتلازمة وتأثيرها، في النهاية وجدت هيئة المحلفين أن (هيرست) ما زالت مذنبة، وحُكم عليها بأقصى عقوبة وهي السجن ٣٥ عامًا، قبل أن يصدر الحكم النهائي ليخفف العقوبة إلى ٧ سنوات.

قامت (هيرست) بتنفيذ ١٨ شهرًا منهم قبل أن يصدر الرئيس الأمريكي (جيمي كارتر) قرارًا بتخفيف عقوبتها إلى ٢٢ شهرًا حتى أُطلق سراحها عام ١٩٧٩ تحت شروط صارمة، وظلت في الولاية تحت الرقابة المشددة، بعد عدة سنوات استعادت (هيرست) كامل حقوقها المدنية عندما أصدر الرئيس الأمريكي (بيل كلينتون) وتحديدًا في ٢٠ يناير ٢٠٠١ (آخر يوم في منصبه رسميًّا) قرارًا بالعفو الكامل عنها، نشرت (هيرست) مذكراتها عام ١٩٨١ في كتاب يحمل عنوان: «كل الأمور السرية - Every Secret Thing» حيث تحكي فيه عن أنشطتها السرية التي بدأت داخل الجماعة اليسارية الإرهابية منذ حادثة اختطافها في فبراير ١٩٧٤، في عام ١٩٨١ انتهى أمر جماعة (جيش التحرير التكافلي – SLA) بمقتل قائدها، وتمَّ القبض على آخر عضوين فيها عامي ١٩٩٩ و ٢٠٠٢، قام المخرج الأمريكي [بول شريدر - Paul Schrader] عام ١٩٨٨ بإخراج فيلم (باتي هيرست) عن حادث اختطاف (هيرست)، وعرض الفيلم لأول مرة في [مهرجان كان السينمائي - Cannes Film Festival] في دورته رقم ٤١ في ١٣ مايو ١٩٨٨ داخل المسابقة الرسمية، وتمَّ العرض الأول له جماهيريًّا في ٢٣ سبتمبر من ذات العام.

هناك العديد من الأمثلة لحوادث كثيرة وقعت في بلدان متعددة تأتي في سياق الحديث عن «متلازمة ستوكهولم» غير حادثة (هيرست) ومنها حادثة [ماري ماكلوري - Mary McElroy] (٢٥ عامًا) التي اختطفت تحت تهديد السلاح مساء يوم ٢٧ مايو عام ١٩٣٣ من منزل والدها في (كانساس – ميسوري) بواسطة ٤ أشخاص يتزعمهم [والتر ماكجي - Walter McGee] ومعه شقيقه [جورج ماكجي – George McGee]، وقدم والدها فدية ٣٠ ألف دولار لإطلاق سراحها بعد ٢٩ ساعة من اختطافها، لاحقًا تمَّ القبض على ثلاثة من الخاطفين ومنهم زعيمهم (والتر ماكجي)، ظلت (ماكلوري) على علاقة جيدة مع الخاطفين وزارت الأخوين (ماكجي) بالسجن عدة مرات حاملة لهم بعض الهدايا، صرحت (ماكلوري) أثناء المحاكمة أن (والتر ماكجي) طلب منها أثناء الاختطاف التجرد من ملابسها تمامًا حتى يتأكد أنَّها لا تحمل معها أي دليل يدل عليهم، ولكنَّها لمْ تستجبْ وهو لمْ يصرْ، وأكدت أثناء التحقيقات أن معاملتهم لها كانت أكثر من جيدة، بل أن (ماكجي) أهداها زهورًا قبل إطلاق

سراحها، خلال المحاكمة اجتمعت (ماكلوري) مع أقارب خاطفيها، وأعربت عن تعاطفها معهم علنًا، حُكم على (والتر ماكجي) بالإعدام باعتباره زعيم العصابة، ولو تم تنفيذ هذا الحكم لأصبح أول أمريكي يعدم بسبب عملية خطف، إلا أن (ماكلوري) فاجئت الجميع بتقديم طعن في العقوبة الموقعة عليه، وقالت أن تأثير تنفيذ الحكم سيكون قاسيًا عليها مثله تمامًا، وأنَّها سوف تعاني بنفس القدر، توسلت (ماكلوري) لتخفيف الحكم عليه، وهو ما حدث لاحقًا ليعاقب بالسجن مدى الحياة، بعد قرابة ٧ سنوات من حادثة الاختطاف، وتحديدًا في ٢١ يناير ١٩٤٠ أقدمت (ماكلوري) على الانتحار بإطلاق النار على رأسها من مسدس صغير، وتركت رسالة قالت فيها: «ربما كان خاطفي الأربعة هم الوحيدون على الأرض الذين لا يعتبروننني حمقاء، لقد عاقبت نفسي بالموت الآن، فمن فضلك أعطهم فرصة للحياة... ماري».

في (ستوكهولم) كانت مكالمة الرهينة (كريستين إنمارك) لرئيس الوزراء السويدي مثيرة للدهشة حيث طلبت الرحيل مع الخاطفين بدلا من الاستغاثة، وطلبها تحرير نفسها، في تلك الأثناء بدا (أولفسون) هادئًا وهو يتمتم بأغنية [اقتلني بهدوء – Killing Me Softly] للمغنية السمراء [روبرتا فلاك - Roberta Flack]، بينما كان (أولسون) متوترًا جدًا، ويقوم كل فترة بالضغط على عنق أحد المختطفين كتعبير عن فكرة قتل الرهائن، وهو يحدثهم عن من يجب أن يُقتل أولًا، اقترح الرهينة (سفستروم) أن يفتدي حياة الرهينات الثلاثة بأن يُقتل هو مقابل إطلاق سراحهن، كان (أولفسون) يتدخل من وقت لآخر لتهدئة تلك الأجواء السوداوية الحادة، والمتوترة.

في اليوم الرابع لاحتجازهم سُمع بشكل جلي، وفجأة صوت ضجة قادمة من قبو البنك، كان سبب الضجة هو صوت مثقاب كهربائي حيث بدأت الشرطة في حفر ثقب في سقف القبو من خلال غرفة إحدى الشقق بالطابق الذي يعلو البنك، بعد قليل اتصلت الشرطة بهاتف البنك للاطمئنان على الوضع فأسرع المُختطَف (سفستروم) يصرخ فيهم غاضبًا منفعلًا بما يحاولون فعله منتقدًا إياهم بأنَّهم لا يدركون ماذا يفعلون، وأن ذلك يعرضهم جميعًا للقتل، كانت الشرطة تريد أن تتأكد جيدًا من الوضع داخل البنك قبل أي محاولة للاقتحام، وكذلك لكي تستطيع الوصول إلى الخطة الأفضل لإنهاء هذا الوضع بأقل الخسائر الممكنة، استمرت الشرطة في خطتها، وبعدما انتهت من عمل الثقب قامت الشرطة بإنزال كاميرا صغيرة من خلاله حيث التقطت صورة لمسرح الحادث، لتصبح أول صورة حية في التاريخ الجنائي السويدي، وربما واحدة من أفضل الصور الوثائقية للجريمة في العالم، كانت الصورة تظهر الرهائن المختطفين، وعيونهم الذابلة الحزينة، وهم جالسون منهكين على الأرض بجوار أدراج الخزائن الحديدية، وكان يظهر معهم أيضًا في الصورة (أولفسون) واقفاً على قدميه وكانت أعينه موجهة مباشرة تجاه الكاميرا.

بدأت يوم الإثنين الشرطة في إمداد المجموعة بالطعام وبعض المشروبات، ولكن كثير من مشاعر القلق الخوف انتابت كل من الجناة، والرهائن ترقبًا للقادم، فأصبحوا جميعًا ملتحمين بشدة، ومتضامنين ضد ما يعتبرونه تهديدًا خارجيًّا لحياتهم وهو الشرطة، يعتبر اليوم التالي وهو يوم الثلاثاء سادس أيام الاختطاف يوم محوري حيث سيشهد أحداثا مختلفة تُغيّر كثيرًا على الوضع القائم، أطلق (أولفسون) النار من خلال الفتحة فأصاب أحد رجال الشرطة في يديه ووجهه، بينما هدد (أولسون) بقتل الرهائن عند أي محاولة لإطلاق قنبلة غاز، وهو ما كانت تنوي الشرطة عمله وفي النهاية لمْ يكنْ لها بديلًا آخر سوى إطلاق قنبلة غاز داخل القبو، فضلت الشرطة التي ارتديت أقنعة الغاز عدم الاقتحام المباشر في البداية حفاظًا على حياة الرهائن، كان الشرطيان المكلفان بالمهمة، والذين تمَّ تدريبهما عليها وهما [هاكان لارسون - Håkan Larsson]، و [جوني جونسون - Johnny Johnsson] لديهما تفويضًا بإطلاق النار على الجناة لو استدعى الأمر دون أن يتم مسائلتهما عن ذلك لاحقًا، رفضت (إنمارك) الخروج في البداية خوفًا على حياة (أولفسون) حيث كانت قلقة من أن يتم تصفيته عقب إنقاذها مع باقي الرهائن، في النهاية خرج الرهائن دون أن يصاب أي منهم بأذى، وبعد نصف ساعة، وبتأثير الغاز استسلم كل من (أولسون)، و (أولفسون) لرجال الشرطة دون إصابة أي منهما، وتمَّ اقتيادهما مقيدي اليدين خارج البنك.

تابعت محطات التلفزيون السويدية عن كثب تطورات الحادث منذ يومه الأول ليلًا، ونهارًا، واستحوذت الدراما على اهتمام كل شخص في السويد، وكانوا منشغلين بشكل خاص بتعاطف الضحايا الواضح والامتثال لآسريهم، تمَّ توجيه الاتهام إلى كلا المتهمين وتمت إدانتهما، ادعى (أولفسون) أنَّه لم يساعد (أولسون)، وكان يحاول إنقاذ الرهائن فقط من خلال إبقاء الوضع هادئًا، وقد حُكم عليه بالسجن ستة سنوات ونصف قبل أن يتم تبرئته في الاستئناف، والتقى في وقت لاحق بالرهينة (كريستين إنمارك) عدة مرات وأصبحت عائلاتهما أصدقاء، بينما حُكم على (أولسون) بالسجن ١٠ سنوات خدم منهم فعليًّا ثمان سنوات، كان تعاطف الرهائن مع آسريهم ملفتًا للأنظار حيث رفض الرهائن أن يشهدوا ضد الخاطفين كما قاموا بتكليف محامين للدفاع عنهما، وقاموا بسداد مستحقاتهم، تلك التصرفات، وما سبقها أدت إلى اهتمام أكاديمي بالموضوع وهو ما اصطلح عليه باسم: «متلازمة ستوكهولم» إشارة إلى تلك الجريمة التي وقعت في ستوكهولم، وعرفت باسم: «حادث سرقة نورمالمستورج» نسبة للميدان الشهير، وقد صاغ العالم النفسي السويدي والمتخصص في علم الجريمة [نيلز بيجيروت - Nils Bejerot] هذا المصطلح بعد أن طلبت منه شرطة (ستوكهولم) المساعدة في تحليل ردود فعل الضحايا على هذا الحادث، حيث اعتبر (بيجيروت) رد فعل الرهائن أقرب ما

يكون لعملية غسل الأدمغة، ووقتها استخدم مصطلح (متلازمة نورمالمستورج)، والتي عرفت خارج السويد ب «متلازمة ستوكهولم»، حيث تتعاطف الضحية مع خاطفها.

بعد عام من تلك الواقعة وتحديدًا في ٢٥ نوفمبر ١٩٧٤ قامت مجلة [النيويوركر - The New Yorker] بنشر تحقيق صحفي قام به مراسلها (دانييل لانج) تحت عنوان [مأساة البنك – The Bank Drama] التقى فيه مع الرهائن الأربعة، حيث أعرب (سيفستروم) عن شعوره بالامتنان عندما أخبره (أولسون) وقتما كان يريد أن يظهر جديّة تهديده للشرطة بقتل الرهائن بأنَّه لن يقدم على إطلاق النار عليه إلا إذا تأكد أنه كان مخمورًا تمامًا، كما أعربت (أولدجرين) عن خوفها عندما أُحتجزت في القبو حيث ربط (أولسون) حبلًا حول عنقها، ولكنه تركها تتحرك في الردهة مِمَّا أعطاها شعورًا بالحرية رغم أنَّها لم تتحرك بعيدًا، وفي منتصف إحدى الليالي استيقظت على حركة خفيفة على جسدها لتكتشف أن (أولسون) كان يضع معطفًا على كتفيها، تصف (أولدجرين) إلى المراسل (لانج) حال (أولسون) أثناء الاختطاف بأنَّه كان خليطًا بين الوحشية والحنان، وتستطرد بأنَّها قد عرفته بالفعل في تلك الليلة، وهي على يقين بأنَّه هو على ذلك المنوال طوال حياته.

يقول أحد مسؤولي الشرطة المشاركين في الحادث بأنَّه يعتقد أن الخاطفين قد لا يمتلكون غريزة القتل الإجرامية حيث أبدى كلاهما قلقًا بالغًا عندما داهمت الدورة الشهرية إحدى الرهينات الثلاثة، أمَّا (إنمارك)، والتي كانت أكثرهم تعاطفًا فهي تقول أنَّها عندما تحدثت إلى (بالمه) رئيس الوزراء لتطلب منه الرحيل مع الخاطفين كانت متيقنة أن الخاطفين ليسا بقتلة، وأنَّها كانت على ثقة بأنَّهما كانا سيسمحان لها بالرحيل بعد ذلك، إلَّا أن الشرطة لمْ يكنْ لها نفس هذا القدر من الثقة مع الخاطفين، ويبدو أن الخاطفين أصبحوا مرتبطين أيضًا بالرهائن حيث أخبر (أولسون) مراسل (النيويوركر) عندما زاره في السجن بأن الرهائن كانوا يقومون بكل شيء يطلبه منهم، ولولا ذلك لما آل الحال لما هو عليه الآن، حيث يعرب (أولسون) إلى المراسل (لانج) عن تعجبه من عدم قيام أي من الرهائن بمهاجمته، حيث جعلوا من الصعب عليه القيام بقتل أي منهم، يرى (أولسون) أن الرهائن كانوا يجبرونهما على التعايش معهم يومًا بعد يوم. ولمْ يكنْ أمامهما شيء يمكنهما القيام به طوال فترة الاحتجاز سوى التعارف على بعضهم البعض، دفعت تفاصيل هذا التحقيق الصحفي على صفحات (النيويوركر) المخرج [روبرت بودريو - Robert Budreau] لإخراج فيلم (ستوكهولم) بطولة [إيثان هوك - Ethan Hawke]، و [نومي رابيس - Noomi Rapace] الذي يحكي في ٩٢ دقيقة واقعة اقتحام البنك، والظروف المحيطة به والتفاصيل النفسية للمجرمين والرهائن،

وعُرض الفيلم للمرة الأولى في ١٩ أبريل ٢٠١٨ ضمن فعاليات [مهرجان تريبيكا السينمائي - Tribeca Film Festival].

في ٢٠٠٩ أجرت قناة راديو السويد لقاءً مع (كريستين إنمارك) والتي كانت صاحبة أقوى العلاقات بين الرهائن الأربعة مع محتجزيها وردًا على سؤال عن تفسيرها لذلك فقالت: «إنَّه نوع من مجريات الأحداث العنيفة التي يتعرض لها الشخص للدرجة التي تُحدِث بطريقة ما تغييرًا في قِيَّمِه وأخلاقياته كلها».

في السبعينات أبدى الطبيب النفسي الشهير، ورائد علم الصدمات النفسية [فرانك أوشبيرغ - Frank Ochberg] اهتمامًا بهذه الظاهرة حيث قام بتعريف المتلازمة، وتوضيحها لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي (FBI) وجهاز الشرطة البريطانية [سكوتلاند يارد - Scotland Yard]، كما ساعد فرقة العمل الوطنية الأمريكية لمكافحة الإرهاب والفوضى في وضع استراتيجيات للتعامل مع حالات احتجاز الرهائن، وجاء في تفسيره: «عندما يتعرض الشخص فجأة لأمر يحدث رعبًا في نفسه، ويجعله متأكدًا أنَّه على مشارف الموت نتيجة لهذا الأمر، فإنَّه يمر بمرحلة يكون فيها كالطفل غير قادر على الكلام، أو الأكل، أو حتى الذهاب لقضاء الحاجة دون الحصول على إذن، لذلك فعند قيام المُختطِف (المُسيطِر أو المُهدِد للحياة) ببعض الأعمال الطيبة تجاه هذا المخطوف كتقديم الطعام له، فإن هذا من شأنه أن يُحفز لدى الشخص شعورًا حقيقيًّا بالامتنان له لمنحه الحياة، ونتيجة لذلك يتكون لدى الشخص شعور إيجابي قوي وأصيل تجاه خاطفه أو خاطفيه يرفض من خلاله أي قناعة بأن ذلك الخاطف هو من عرضه لذلك الموقف الخطير، ويتأصل لديه الشعور بأنَّه ذلك الشخص هو الذي سيمنحه الفرصة للعيش».

على النقيض تمامًا من متلازمة: «ستوكهولم»، نشأت في التسعينات متلازمة (ليما)، وفيها يتعاطف الخاطف مع الضحية أو الرهينة ويظهر تجاهها نوع من التقدير والاحترام وأحيانًا مشاعر عاطفية، أو أخويَّة، فيحاول مساعدة الرهينة بأي شكل من الأشكال، أو حتى إطلاق سراحه، ولا يرى أن الرهينة كانت سببًا في إيذائه مستقبلًا نتيجة ذلك الاختطاف، وسُميت المتلازمة بهذا الاسم بعد حادثة احتجاز الرهائن في احتفال السفارة اليابانية في العاصمة البيروفية: «ليما» في ديسمبر عام ١٩٩٦، بواسطة [حركة توباك أمارو الثورية - Movimiento Revolucionario Túpac Amaru (MRTA)]: وهي منظمة يسارية إرهابية مسلحة نشأت في الثمانينات، واشتقت اسمها من المناضل البيروفي [توباك أمارو الثاني - Túpac Amaru II] زعيم انتفاضة (الأنديز) الكبرى ضد الاحتلال الإسباني عام ١٧٨٠ والتي انتهت بإعدامه، كانت أهداف تلك المنظمة التي صنفت إرهابية من الحكومة البيروفية، والولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي هو إقامة دولة اشتراكية، وتخليص البلاد من كل عناصر

الإمبريالية، قام ١٤ من أعضاء الحركة في ١٦ ديسمبر ١٩٩٦ باحتجاز مئات من الشخصيات الدبلوماسية رفيعة المستوى ومسئولين عسكريين، ورجال أعمال أثناء حضورهم احتفال رسمي بمقر إقامة السفير الياباني [موريهيسا أوكي - Morihisa Aoki] في حي [سان إيزيدورو - San Isidro] بالعاصمة البيروفية (ليما)، وذلك بمناسبة مرور ٦٣ عاما على ميلاد الإمبراطور الياباني [أكيهيتو – Akihito]، فوجئت الشرطة بقيام الجماعة بإخلاء سبيل الرهينات الأجنبيات في الليلة الأولى، وبعد خمسة أيام تمَّ إطلاق سراح جميع الأجانب المحتجزين من قبل الخاطفين دون الالتفات لما تشكله أهميتهم كرهائن، أو ما يمكن أن يمثلوه كورقة ضغط أثناء التفاوض، وهو ما فسره علماء النفس بتعاطف الخاطفين مع الرهائن، وتقديرهم واحترامهم لهم، بعد ١٢٦ يومًا تمَّ تحرير جميع الرهائن المتبقين من كبار الشخصيات في ٢٢ أبريل ١٩٩٧ بواسطة غارة شنتها قوات كوماندوز الجيش البيروفي مكونة من ١٤٠ عنصر، وتمَّ فيها القضاء على كل الخاطفين.

استمرت (بيرجيت رودستراند-لوندبلاد) بعد الحادث في العمل بنفس المصرف بعد اندماجه وتغير اسمه إلى [نوردبانكن – Nordbanken]، في حين أنهت (إليزابيث أولدجرين) التي كان الخاطف يتخذها دائمًا كدرع له، العمل المصرفي منذ فترة طويلة، وقامت بتغيير مسارها العملي حيث عاشت حياة عائلية هادئة، بينما تركت (كريستين إنمارك) وظيفتها بعد عدة سنوات، وعملت كطبيبة نفسية، أما بالنسبة إلى (سفين سيفستروم) الذي واجه احتمالية القتل أثناء الحادث عدة مرات، فقد استمر في العمل بنفس وظيفته المصرفية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اغتيال هتلر

عند زيارتك اليوم للسفارة المصرية في [شارع شتاوفنبرج - Stauffenberg-Straße] (شارع بندلر – Bendlerstraße) سابقًا في العاصمة الألمانية برلين، سوف يلفت نظرك مبنى ضخم مجاور للسفارة مباشرة، إنَّه مبنى [بندلربلوك – Bendlerblock] مقر وزارة دفاع [الرايخ الثالث - The Third Reich]، أو القوات المسلحة الموحدة لألمانيا النازية [الفيرماخت – Wehrmacht] إبان فترة حكم (هتلر)، وهو مقر القيادة العليا للقوات العسكرية الألمانية، عند دخولك للمبنى من شارع (شتاوفنبرج)، وعندما تسير خلال الممر المقوس سوف تجد على الحائط عبارة: «هنا كانت القيادة العليا السابقة للجيش الألماني»، وقد قامت جمهورية ألمانيا الاتحادية وبلدية برلين عام ١٩٨٠ بإعادة افتتاح هذا المبنى كمتحف، ومقر تذكاري لمن ضحوا بحياتهم لإنهاء الحكم النازي، يؤدي بك الممر المقوس إلى الفناء المركزي الفسيح للمبنى حيث ستجد في منتصف تلك الساحة تمثال كامل بالحجم الطبيعي من البرونز لرجل عار مقيد اليدين، وأمام التمثال على الأرض لوحة برونزية كُتب عليها بالألمانية كلمات مستوحاة من المؤرخ السياسي والثقافي الألماني [إدوين ريدسلوب - Edwin Redslob]: «أنت لم تتحمل العار، لقد قاومت، لقد ضربت للأبد مثالًا في التغيير، فقد ضحيت بحياتك المتوهجة من أجل الحرية والعدالة والشرف».

في منتصف هذه الساحة، وفي موقع التمثال عند الساعة الواحدة صباح يوم الجمعة ٢١ يوليو ١٩٤٤، كانت آخر كلمات رئيس أركان الجيش الألماني الداخلي العقيد [كلاوس فون شتاوفنبرج - Claus von Stauffenberg] التي نطق بها: «تحيا ألمانيا المقدسة»، كان دور (شتاوفنبرج) هو الثالث في طابور الإعدام فقد أعدم قبله الجنرال [فريدريش أولبريخت - Friedrich Olbricht] القائد بسلاح المشاة ورئيس قوات الاحتياط، وتبعه العقيد [ألبريشت فون كويرنهايم - Albrecht von Quirnheim] رئيس أركان فيلق الجيش الرابع والعشرين في الجبهة الشرقية، وكان الرابع والأخير في تلك الليلة مساعد (شتاوفنبرج) الملازم أول طيار [فيرنر فون هيفتن - Werner von Haeften]، حيث أصدر الجنرال [فريدريش فروم - Friedrich Fromm] القائد العام للجيش الاحتياطي حكمًا بالإعدام رميًا بالرصاص على الضباط الأربعة بعد محاكمة عسكرية مرتجلة ومتعجلة تم ادانتهم من خلالها بالتخطيط والاشتراك في محاولة اغتيال المستشار الألماني [الفوهرر -The Führer] (أدولف هتلر)، تلك المؤامرة التي تمَّ تنفيذها قبل بضعة ساعات من عقد تلك المحاكمة الصوريَّة، وعلى ضوء الأنوار الأمامية لإحدى الشاحنات العسكرية تمَّ إطلاق

الرصاص على الأربعة تباعًا، وقف (هيفتن) أمام (شتاوفنبرج) عند إطلاق الرصاص عليه ليفتديه، ولكن كلاهما سقط قتيلًا.

«عرين الذئب – Wolfsschanze» هو اسم مقر القيادة العسكري الأول لهتلر في الجبهة الشرقية أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد سُمي نسبة إلى [وولف – الذئب – Wolf] وهو اسم الشهرة الذي اُشتهر به (أدولف هتلر) في بداية الثلاثينات من القرن الماضي، وقد أنشأ المقر الحصين الذي تبلغ مساحته ٦,٥ كم مربع عام ١٩٤١ خصيصًا للتخطيط لعملية غزو الاتحاد السوفيتي، والتي عُرفت باسم: «عملية باربروسا - Operation Barbarossa»، وقد قامت مجموعة [تود – Todt] الهندسية، وهي هيئة هندسية إنشائية عسكرية ومدنية سيئة السمعة بإنشاء تلك القاعدة ضمن عدة مشاريع عسكرية أخرى عديدة، يقع «عرين الذئب» الشديد الحراسة في غابات [ماسوريان – Masurian] التي تقع على مسافة ٨ كم شرق مدينة [راستنبرج – Rastenburg] الصغيرة في [بروسيا الشرقية - East Prussian]، في عزلة تامة عن الطرق الرئيسية والمناطق الحضرية.

كانت هناك ثلاثة مناطق أمنية تحيط بالمجمع المركزي حيث يقع مخبأ «الفوهرر» وهم الوحدة الوقائية [شوتز شتافل - Schutz Staffel]، والمعروفة اختصاراً بِحَرْفَي « إس إس – SS» وهي وحدة شبه عسكرية مستقلة تضطلع بمهام أمنية منها حماية (هتلر)، وتمَّ حظر عمل تلك الوحدة بعد الحرب العالمية الثانية، واعتبرت منظمة إجرامية للدور الذي قامت به في المحرقة، وثاني الوحدات الأمنية كانت قوات [الفيرماخت – Wehrmacht] وهي القوات المسلحة الألمانية الموحدة والتي تشمل الجيش والبحرية وسلاح الجو حيث تعتبر وقتها القوة العسكرية الأعلى في العالم، والوحدة الأمنية الثالثة كانت تتبع قوات اللواء المدرع المرافق للفوهرر والمعروف باسم: «Führerbegleitbrigade - FBB»، تمَّ تمويه المباني داخل «عرين الذئب» بالشجيرات والعشب والأشجار الاصطناعية على أسقفها المسطحة بحيث تبدو من السماء، وكأنَّها غابة كثيفة لا يسكنها أحد.

كانت قوات (شوتزشتافل – SS) مسئولة عن المنطقة الأمنية الأولى وهي تقع في قلب «عرين الذئب» ويحيط بتلك المنطقة الأمنية سياج من الصلب وتحتوي على مخبأ (الفوهرر) بالإضافة إلى عشرة مخابئ أخرى أنشئت من خرسانة مسلحة بعرض مترين، وكانت تلك الملاجئ تعمل على حماية أعضاء الدائرة الداخلية المقربة للزعيم الألماني (هتلر) مثل [مارتن بورمان - Martin Bormann] رئيس الحزب النازي، و [هيرمان جورينج - Hermann Göring] رئيس البرلمان الألماني «الرايخستاج – Reichstag» ومؤسس الجهاز السري الألماني [الجستابو – Gestapo]، والمشير [فيلهلم كايتل - Wilhelm

Keitel] رئيس القيادة العليا لجيش الدفاع الألماني، ولمْ تكنْ له أي سلطة تذكر مقارنة بحجم منصبه حتى قيل أنَّه كان مجرد دُمية في يد هتلر يحركها كيفما يشاء، و أيضًا الكولونيل العام [ألفريد يودل - Alfred Jodl] رئيس هيئة عمليات القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية، كان موقع إقامة هتلر على الجانب الشمالي كي يتجنب أشعة الشمس المباشرة، وتميزت مخابئ (هتلر)، و (كيتيل) تحديدًا بوجود غرف إضافية بها حيث يمكن عقد المؤتمرات العسكرية.

كانت المنطقة الأمنية الثانية تحيط بالمنطقة الأمنية الأولى المقربة من مخبأ هتلر، وكانت تلك المنطقة تضم مقرات العديد من وزراء (الرايخ الثالث) مثل المهندس العسكري [فريتز تودت - Fritz Todt] وزير الأسلحة والذخيرة ومؤسس (مجموعة تود) الهندسية الإنشائية التي تولت إنشاء المقر، والمعماري [ألبرت شبير - Albert Speer] وزير التسليح والإنتاج الحربي، ووزير الخارجية [يواخيم فون ريبنتروب - Joachim von Ribbentrop]، كما تضم أيضًا ثكنات عسكرية أخرى لبعض العاملين في المقر، وتتولى حراساتها قوات (الفيرماخت) الخاصة، أمَّا المنطقة الأمنية الثالثة فكانت منطقة أمنية خارجية شديدة التحصين تحيط بالمنطقتين الداخليتين تؤمنها قوات اللواء المدرع المرافق للفوهرر «FBB» من خلال مقرات مسلحة وأبراج مراقبة ونقاط تفتيش حصينة.

في موقعة [العلمين – Alamein] الثانية (٢٣ أكتوبر – ٤ نوفمبر ١٩٤٢)، حقق المارشال البريطاني [بيرنارد مونتجومري - Bernard Montgomery] قائد الجيش الثامن أول انتصار كبير له، وكان ذلك على الجنرال الألماني [إروين روميل - Erwin Rommel] الذي عُرف باسم «ثعلب الصحراء» ويعتبر واحد من أفضل وأمهر جنرالات (هتلر) في الحرب العالمية الثانية نظرًا لقدراته التكتيكة الفائقة ودهائه العسكري الكبير، أجبرت تلك الهزيمة (روميل) على التراجع على طول الطريق عبر ليبيا وجنوب تونس، وتمَّ نقل الفرقة العاشرة المدرعة للجيش الألماني التي تستقر في [فرنسا الفيشية - Vichy France] الواقعة تحت سيطرة ألمانيا النازية إلى تونس، حتى تتمكن من مساعدة (روميل) في التصدي لقوات (مونتجومري)، تمت ترقية (شتاوفنبرج) إلى رتبة مقدم، وتولى مهمة قيادة العمليات في هيئة أركان الفرقة العاشرة المدرعة في تونس، في ٢٧ أبريل ١٩٤٣ كانت مقاتلات [كيتي هوك – Kittyhawk] الجوية للحلفاء تقصف مواقع داخل مدينة [المزونة – Mezzouna] التونسية قرب الطرف الشرقي من سلسلة جبال [قفصة – Gafsa]، وحينها تعرضت سيارة (شتاوفنبرج) للقصف بعدما أصيب إصابات بالغة نقل على أثرها إلى مستشفى ميداني في مدينة (صفاقس)، حيث فقد عينه اليسرى وكف يده اليمنى وإصبعين من يده اليسرى.

في ٥ يوليو ١٩٤٣ عاد إلى ألمانيا ليستكمل علاجه، وفي تلك الفترة كان منصب قائد أركان الجيش الاحتياطي أو الجيش «البديل» في (بندلربلوك) شاغرًا، يعتبر الجيش الاحتياطي جزءًا من الجيش الألماني حيث يقوم بتوفير بدائل للأقسام القتالية في الجيش النظامي، كان الجنرال (أولبريخت) حريصًا على أن يشغل هذا المنصب (شتاوفنبرج)، وهو ما تم إعلانه في أول يوليو ١٩٤٤ حيث تمت ترقية (شتاوفنبرج) لرتبة «كولونيل» أو عقيد، وقد رحب بالمنصب كثيرًا بحكم أنَّه يساعد بشكل رئيسي في تفعيل، وتنفيذ الخطة [فالكيري – Valkyrie].

في عام ١٩٤٤ بلغ عدد العمال الأجانب الذين يعملون في ألمانيا قرابة ٧,٥ مليون عامل تمَّ جلبهم من الدول التي قامت جيوش النازي باحتلالها أثناء الحرب العالمية الثانية، وأجبروا على العمل في ألمانيا، كان هؤلاء العمال يعملون في ظروف سيئة للغاية، وكان متوقعًا أنَّه في حالة اندلاع أي شرارة تمرد فسوف تساعد تلك الظروف القاسية أولئك العمال على القيام بثورة عمالية، أو اضطرابات مدنية قد يصعب السيطرة عليها نظرًا لضخامة عددهم، تلك الانتفاضة قد تشل أركان الحياة تمامًا في ألمانيا نظرًا لتواجد هؤلاء العمال في جميع القطاعات تقريبًا، وقد تجلب عواقب وخيمة على القيادة السياسية والعسكرية الألمانية في ظل ظروف الحرب المتشعبة في معظم البلدان الأوربية، لذلك كانت الخطة (فالكيري) كخطة طوارئ وسيطرة في حال حدوث اضطرابات عمالية عنيفة، أو تعرض ألمانيا لقصف شديد قد يقضي على القيادة السياسية والعسكرية بشكل كبير، أو قد يعيق بشكل كبير سيطرتها على الأوضاع، كان جيش الاحتياطي بقيادته العليا الموجود في (بندلربلوك) هو عماد القوات الرئيسية في الخطة (فالكيري)، ومن هنا تبلغ أهمية قائد أركان الجيش الاحتياطي.

كانت انتصارات (هتلر) الكبيرة في بداية الحرب العالمية الثانية، وسقوط الدول الأوربية الواحدة تلو الأخرى تزيد من قوة (هتلر)، ونفوذه داخل ألمانيا، ولكن في عام ١٩٤٣ ومع بداية هزائمه وتراجع قواته والخسائر الكبيرة التي تُمنى بها جيوشه الأمامية في المواقع المختلفة، وسقوط ملايين الضحايا ورفضه للانسحاب أوالتفاوض للصلح، كان ينبئ هذا الوضع بأن غطرسة (هتلر)، وهوسه سيؤدي في النهاية بألمانيا وشعبها إلى الجحيم، لذلك لمْ يكنْ ثمة مفر من مقاومة جنون وحماقة (هتلر)، ومقاومته في تلك الظروف لا تعني إلا أمر واحد وهو: التخلص من (هتلر) وعصابته، ولن يتأتى ذلك إلا من خلال أمر واحد وهو اغتياله مع كبار قادته، وقتها يمكن إنهاء هذه الحرب الجنونية العصيبة، والتوصل لصيغة مناسبة للسلام مع الحلفاء الغربيين ووقف أنهار الدماء وإنقاذ ألمانيا.

مع تدهور الوضع العسكري الألماني كانت تلك الفكرة تزداد توهجًا في عقول بعض قيادات الجيش ومنهم (شتاوفنبرج)، فخطورة الموقف أصبحت تتعاظم مع زحف الحلفاء الغربيون ناحية الحدود الفرنسية الألمانية، والجيوش الروسية تزداد اقترابًا يومًا بعد يوم من الحدود الشرقية لألمانيا، وذلك يعني في النهاية سقوط (برلين)، لذلك استقر الأمر على اغتيال (هتلر) وكبار قادته والإطاحة بالنازية وإنقاذ التراب الألماني بإبرام مُعاهدة مُشرّفة مع الحلفاء الغربيين، كان (شتاوفنبرج) هو الأنسب للقيام بتنفيذ عملية اغتيال (هتلر)، فبالرغم من أنَّه مرتبته العسكرية كعقيد لا تجعله ضمن قيادات الصف الأول إلَّا أنَّه، وبحكم منصبه كقائد أركان الجيش الاحتياطي كانت تتاح له الفرصة من وقت لآخر لمقابلة (الفوهرر)، وحضور اجتماعاته بخصوص جيوش الاحتياط، ومناقشة أي تعديلات أو تطوير قد يتمَّ على العملية (فالكيري)، ومن ثمَّ يمكن أثناء إحدى تلك اللقاءات اغتياله، هو وكبار قادته عن طريق تفجير قنبلة أو ما شابهها، كان الجزء الهام الذي يلي خطة عملية الاغتيال للسيطرة على الأمر هو تفعيل الخطة (فالكيري)، والتي تقضي بتدخل قوات الاحتياط في السيطرة على أمور الدولة السياسية والعسكرية والأمنية، بحكم أن الخطة يتم تنفيذها بشكل تلقائي في حالة الشلل التام للقيادات العسكرية في التحكم في زمام الأمور نتيجة أي أسباب قهرية، وكانت قوات الاحتياط في قبضة رئيسها الجنرال (أولبريخت) أحد المشتركين في المؤامرة، والقائد العام لجيش الاحتياط الجنرال (فروم) والذي لديه علم بالعملية، وبالطبع الكولونيل (شتاوفنبرج) قائد أركان قوات الاحتياط.

كان [فيسيل لورينجهوفين - Loringhoven Wessel] العقيد بهيئة الأركان العامة (الفيرماخت) صديقًا للكولونيل (شتاوفنبرج)، وهو الذي أمده بالمتفجرات التي سيتم استخدمها في محاولة اغتيال (هتلر)، استقر أمر (لورينجهوفين) على متفجرات بريطانية الصنع استطاع أن يحصل عليها بحكم منصبه من قوات الاستخبارات العسكرية [أبفير – Abwehr]، كان استخدام متفجرات بريطانية الصنع أمرًا سيجعل الكشف عن مَن زَوّد المتآمرين بالمتفجرات أكثر صعوبة، وقد يقود البحث إلى استنتاج خاطئ بمشاركة بريطانيا في المؤامرة، تمَّ تجهيز قنبلتين من نوع القنابل البلاستيكية، وهي قنابل تزود بمواد شديدة الانفجار مع مواد بلاستيكية ولدائن تجعل تشكيلها يدويًا أكثر سهولة، كانت القنبلتين مستطيلتي الشكل تزن كل واحدة منهم ما يعادل كيلوجرام واحد، وآلية التفجير تتم من خلال توصيل القنبلة بمفجر زمني حمضي عبارة عن أنبوب من النحاس الأصفر بداخله قنينة زجاجية تحتوي على «كلوريد النحاس الثنائي - Copper (II) Chloride»، يتم سحق رأس الأنبوب النحاسي بواسطة كماشة بقوة تكفي لكسر الأنبوب الزجاجي

الداخلي، فتقوم المادة الكيميائية بإذابة الأنبوب النحاسي في فترة زمنية معينة بعدها يقوم المفجر بتفجير القنبلة.

علم (شتاوفنبرج) باستدعائه لمقابلة (هتلر) في مقره «البافاري» في [أوبرسالزبيرج - Obersalzberg] يوم ١١ يوليو ١٩٤٤، استعد (شتاوفنبرج) لذلك اليوم بتجهيز القنبلة الموجودة التي وضعها في حقيبة أوراقه الجلدية، قبل ذلك كان (شتاوفنبرج) قد قام باستدعاء الاقتصادي، والسياسي المحافظ وعضو [حزب الشعب الوطني الألماني - German National People's Party]، والمعارض للنازية [فريدريش جورديلر - Friedrich Goerdeler] إلى (بندلربلوك) في برلين، حيث أنَّه طبقًا للخطة (فالكيري) سيتم تعيين (جورديلر) المستشار الجديد لألمانيا بدلًا عن هتلر حال إغتياله، وكذلك كان حاضرًا في مقر القيادة العليا متأهباً لتولي دوره كوزير للحرب طبقا للخطة، الجنرال [إريك هوبنر- Erich Hoepner] قائد القوات التي غزت بولندا وفرنسا في بداية الحرب العالمية الثانية، ثمَّ لاحقًا قائد [الجيش الرابع بانزر – th٤ Panzer Army] أحد أهم جيوش الجبهة الشرقية في العملية (باربروسا)، ولكن (هتلر) قام بعزله بطريقة مهينة في يناير ١٩٤٢ نتيجة انسحاب مدرعاته قبل الوصول إلى حدود (موسكو)، وكان هناك أيضًا من ضمن القوات المقترحة للسيطرة على الأوضاع رئيس شرطة برلين [فولف هينريخ هلدورف Wolf-Heinrich Helldorff]حيث يتلخص دوره في عدم إقحام الشرطة حال تولي جيش الاحتياط السيطرة على الأوضاع ثم يقوم بعد ذلك باعتباره قائد شرطة العاصمة بدعم الحكومة الجديدة، كان من شروط نجاح العملية (فالكيري) أن يتم القضاء على (هتلر)، وأقوى رجاله وأكثرهم شراسة [هاينريش هيملر - Heinrich Himmler] وزير الداخلية وقائد القوات الخاصة «إس إس - SS»، وكذلك القضاء على رئيس (الرايخستاج) ووزير الطيران الحربي الجنرال [هيرمان غورينج - Hermann Göring]، ولكن في ذلك اليوم اكتشف (شتاوفنبرج) أن الداهية (هيملر) لم يكن حاضرًا لذلك قرر عدم استكمال عملية الاغتيال وإلغائها في الدقيقة الأخيرة.

بعد ثلاثة أيام أُبلغ (شتاوفنبرج) بضرورة حضوره اجتماع آخر مع (الفوهرر)، وبعض قادة الجيش في اليوم التالي السبت الموافق ١٥ يوليو ١٩٤٤ ولكن هذه المرة في «عرين الذئب» حيث أصبحت القوات الروسية على مسافة تقل عن ١٠٠ كم من حدود بروسيا الشرقية، طار (شتاوفنبرج) من برلين إلى (راستنبرج) مع الجنرال (فروم) لحضور الاجتماع وهناك اُلتقِطت له صورته الشهيرة مع (هتلر) حيث كان (كايتل) على يسار (الفوهرر) الذي كان يصافح جنرال الاتصالات [كارل بودينشاتس – Karl Bodenschatz]، في ذلك الوقت أكد (شتاوفنبرج) مع الجنرال [إريك فيليبل - Erich Fellgiebel] من سلاح الإشارة، والمسئول عن الاتصالات بين «عرين الذئب» والعالم الخارجي على

دوره في الخطة المتفق عليه مسبقًا بقطع الاتصالات عند الوقت المحدد، ولكن (فيليبل) أوضح أن ذلك لن يكون له عظيم الفائدة حيث أن السلاح الجوي وقوات الجيش وقوات (شوتز شتافل – SS) كل منهم لديه إشارته الخاصة، لذلك حتى لو تمكن من عزل مقر (الفوهرر) فإن هذا الأمر سيكون لفترة محدودة، وللمرة الثانية تلغى العملية في اللحظة الأخيرة فبالرغم من حضور (هيملر) و (جورنج) الاجتماع إلا أن (هتلر) نفسه قد غاب عن هذا الاجتماع، بالرغم من مصافحة (شتاوفنبرج) له عند وصوله، وبصعوبة نجح (شتاوفنبرج) في أن يبطل مفعول القنبلة الزمنية قبل تفجيرها.

مع مرور الوقت اتخذت الأمور شكلًا أكثر توترًا خوفًا من افتضاح أمر المجموعة، أو تناثر الأقاويل حول محاولة مؤامرة اغتيال هتلر، أو وصول أي معلومات لوحدات [إس إس – شوتزشتافل]، لذلك انتهز (شتاوفنبرج) استدعاؤه لحضور اجتماع آخر مع (الفوهرر) في «عرين الذئب» في تمام الواحدة ظهر يوم الخميس ٢٠ يوليو ١٩٤٤، وذلك لمناقشة الأوضاع السيئة للقوات الألمانية مع زيادة اقتراب القوات السوفيتية نحو الحدود الشرقية لألمانيا، هبطت طائرة (شتاوفنبرج) الحربية من طراز [هنيكل إتش إي ١١١ - ١١١ Heinkel HE] في مطار (عرين الذئب) بصحبة معاونه (هيفتن) مبكرًا في حوالي الساعة ١٠:١٥ صباحًا، وكان كل منهما يحمل حقيبة أوراق جلدية بداخل كل حقيبة قنبلة جاهزة للتفجير حال وضع المفجر الزمني، رغم أن التفتيش في المناطق الأمنية المختلفة داخل المقر مكثف جدًا إلَّا أن (شتاوفنبرج) لاحظ من زيارته السابقة بأن تفتيش القيادات العسكرية التي تحضر لمقابلة (الفوهرر) بناء على طلبه، يتم التحقق فقط من شخصيتها دون تفتيش ذاتي، عَبر (شتاوفنبرج)، ومساعده بسلام المناطق الأمنية دون أن يطلب أي من القوات الأمنية تفتيش حقيبتي اليد، وحيث أن الوقت كان مبكرًا لذلك فَضَلا أن يتجها مباشرة إلى كافيتريا الضباط حتى يتجنب (شتاوفنبرج) مقابلة أي من القيادات العليا الذي قد يستفسر منه عن بعض الأمور العسكرية فيضطر إلى فتح حقيبته التي تحتوي على القنبلة لاستخراج أوراقه العسكرية، وافتضاح أمره، ولكن بعد قليل من وصوله الكافيتريا اقترب منه أحد الجنود مخبرًا إيَّاه أن المارشال (كايتل) رئيس القيادة العليا للجيش الألماني يطلب حضوره لمقره بعدما علم بوصوله من إحدى نقاط التفتيش، فورا ترك (شتاوفنبرج)، ومساعده كافيتريا الضباط وانطلقا إلى مقر (كايتل)، تملك (شتاوفنبرج) القلق من أن يكون (كايتل) قد علم شيئًا عن خطة الاغتيال، أو قام أحد بالوشاية عنه، أو أن (الجستابو) قد اكتشف حقيقة الأمر، خصوصاً وأن (كايتل) تعامل معه بصلف واضح وقت دخوله، وعاتبه على عدم الحضور إلى مقره فور وصوله، أراد (كايتل) أن يتأكد من قيام (شتافونبرج) بتحضير الخطة التي طلبها (الفوهرر) والخاصة بتجهيز ثلاث فرق من الجيش

الداخلي لتأخذ مكانها فورًا على الجبهة الشرقية التي أصبح موقفها سيئًا، أبلغ (كايتل) العقيد (شتاوفنبرج) بأن الاجتماع قد تقدم موعده إلى الثانية عشر والنصف بدلًا من الواحدة ظهرًا حيث سيقوم (الفوهرر) بعد الاجتماع باستقبال الزعيم الإيطالي الفاشي [بينيتو موسوليني - Benito Mussolini] أو (الدوتشي – القائد) كما يُطلق عليه.

كان الجو حارًا ورطبًا في ذلك اليوم، وكان معروف عن هتلر أنَّه لا يطيق حرارة الجو أو الرطوبة فطلب قبل قليل من موعد الاجتماع بتغيير الموقع ليصبح في المقر الخشبي ذو النوافذ الخشبية بدلًا من الملجأ الخرساني، حيث أن الملجأ الخرساني ذو الباب الصلب ليس مزودًا به أي فتحات أو نوافذ، كان الوقت يمر بسرعة وازدادت حيرة (شتاوفنبرج) بعدما طلب منه (كايتل) الانتظار في مكتبه والذهاب سويًّا إلى مقر الاجتماع، مما يعني أنَّه لن يجد أي فرصة أو وقت أو مكان مناسب لوضع المفجر الزمني بالقنبلة، عند الساعة الثانية عشر و٢٨ دقيقة تحرك المارشال (كايتل) مُترجلًا لغرفة الاجتماعات التي تبعد مسافة ٣٢٠ متر عن مقره طالبًا من (شتاوفنبرج) أن يتبعه، لمْ يكنْ أمام (شتاوفنبرج) أي فرصة لتجهيز القنبلة سوى أن يستأذن (كايتل) للحظات ويعود للغرفة بذريعة إحضار قبعته التي تركها عمدًا في غرفة قائد حرسه وأيضًا لكي ينسق ملابسه، دخل (شتاوفنبرج)، ومساعده بحقيبتيهما غرفة جانبية؛ لكي يقوما سريعًا بإدخال قلمي التفجير في القنبلتين، وتشغيل المفجر الزمني ذو العشر دقائق.

نجح مساعده (هيفتن) في سحق رأس قلم التفجير في القنبلة الأولى بينما أخذ (شتاوفنبرج) وقت أطول في سحق رأس قلم التفجير للقنبلة الثانية نتيجة الإعاقة الناشئة عن فقدان كف يده اليسرى وإصبعين من يده اليمني، في تلك الأثناء دخل عليهما الغرفة الملازم [إرنست فرايند - Ernst Freyend] مساعد المارشال (كايتل) يتعجله ويخبره بانزعاج (كايتل) من التأخر على الاجتماع، كان (شتاوفنبرج) يعلم أن قنبلة واحدة كافية بالقضاء على كل من يكون في محيطها، والقنبلة الثانية هي بالأساس احتياطية لتأكيد قوة التدمير أو أنَّها تفي بالغرض في حالة عدم تفجير القنبلة الأولى، لذلك اكتفى (شتاوفنبرج) بتلك القنبلة التي تم تشغيل مفجرها الزمني ووضعها على عجل في حقيبته، بينما وضع مساعده القنبلة الثانية التي لم يتم تشغيل مفجرها في حقيبة يده، وخرج كلاهما من الغرفة حمل الملازم (فرايند) مساعدة المارشال (كايتل) حقيبة (شتاوفنبرج) وتوجها بخطوات سريعة إلى غرفة الاجتماعات، لاحظ (شتاوفنبرج) تغيير في المسار المؤدي إلى ملجأ (هتلر) ليكتشف من (فرايند) تغيير موقع غرفة الاجتماعات إلى المبنى الخشبي، في الطريق طلب (شتاوفنبرج) من (فرايند) أن يجد له مكانًا قريبًا من (هتلر) حيث يُفترض أن يقوم بعرض تقريره لاحقًا، وصل كلاهما إلى غرفة الاجتماعات الخشبية

متأخرين خمس دقائق عن موعد الاجتماع الذي بدأ في موعده في الثانية عشر والنصف.

كان عدد الحاضرين داخل غرفة الاجتماعات ذات النوافذ الخمسة عندما دخل (شتاوفنبرج) أربعة وعشرون شخصًا من قادة الجيش ومساعديهم، لمْ يكنْ أي من (هيملر) أو (جورنج) حاضرين، لكن وقت التراجع قد انتهى فالوقت يمر وبالفعل تم سحق رأس قلم التفجير وأصبحت القنبلة على وشك الانفجار، كان (هتلر) يتوسط طاولة الاجتماعات الخشبية المستطيلة والتي وُضع عليها خرائط ورقية كبيرة، حيث كان يستمع (هتلر) إلى رئيس الأركان العامة المؤقت للجيش الجنرال [أدولف هوسينجر - Adolf Heusinger] والواقف على يمينه وهو يستعرض تقريره عن الأوضاع على الحدود الشرقية، في حين كان المارشال (كايتل) يقف على يساره، كان سطح الطاولة الخشبية الكبيرة سميك، ومصنوع من خشب (البلوط – السنديان) الصلد، يرتكز سطح الطاولة الخشبية على قائمين خشبيين سميكين بعرض الطاولة ومن نفس نوع الخشب، يتمركز كلا القائمين عند الربع الأخير من كل طرف من طرفي سطح الطاولة، دخل (شتاوفنبرج) الغرفة يتقدمه (فرايند) حيث كان يتحدث الجنرال (هوسينجر) فيما أعلن المارشال (كايتل) بأن (شتاوفنبرج) قد حضر ليقدم تقريرًا بعد أن يفرغ (هوسينجر) من عرضه.

قام (هتلر) بمصافحة (شتاوفنبرج) بصمت مع نظرة التدقيق المعتادة له، في تلك الأثناء كان (فرايند) يستأذن همسًا مساعد (هوسينجر) العقيد في قوات الدفاع [هاينز برانت - Heinz Brandt] الذي يقف على يمين (هوسينجر) في إتاحة موقعه للعقيد (شتاوفنبرج)، تنحى (برانت) قليلًا ليقف (شتاوفنبرج) على يمين الجنرال (هوسينجر) بينما وضع (فرايند) الحقيبة أمام أقدام (شتاوفنبرج) على أرض الغرفة بالقرب من الجانب الداخلي للقائم الخشبي الأيمن للطاولة، دفع (شتاوفنبرج) الحقيبة بقدمة لتختفي قليلًا تحت الطاولة، كان الوقت يمر، وينبغي على (شتاوفنبرج) الخروج من الغرفة بأسرع وقت ممكن قبل انفجار القنبلة، ولكن دون أن يلاحظه أحد، خصوصًا وأن تقريره عن الجيش الداخلي ودوره التعويضي في تعزيز الجبهة الشرقية سيكون هو التالي في الحديث، بعد مرور فترة وجيزة رجع (شتاوفنبرج) قليلًا للخلف هامسًا في أذن الملازم (فرايند) بأن عليه إجراء مكاملة تليفونية عاجلة وانسحب خارج الغرفة، وبشكل كارثي عاد مساعد (هوسينجر) العقيد (برانت) إلى مكانه السابق فلاحظ وجود الحقيبة، فانحنى بهدوء وسحبها وغير موضعها قليلًا أسفل الطاولة حتى لا تعوق (هوسينجر) بحيث تستند إلى الاتجاه الخارجي للقائم الخشبي بدلًا من الاتجاه الداخلي، بخطوات سريعة وثابتة كان (شتاوفنبرج) يتحرك إلى الخارج مبتعدًا عن قاعة الاجتماعات في اتجاه مساعده (هيفتن) الذي كان ينتظره قرب المقر، وخلفه السيارة المخصصة

لانتقالهما، وقبل خطوات من وصول (شتاوفنبرج) لمساعده وفي تمام الساعة ١٢:٤٢ ظهرًا كان دوي انفجار القنبلة من غرفة الاجتماعات يصم الأذان، وتطاير الركام بعنف من النوافذ عقب تحطيمها بفعل الانفجار،وبدأ الدخان الأسود في الصعود أعلى المقر، انتهز (شتاوفنبرج) ومساعده حالة المفاجأة والصدمة والفوضى السريعة التي عمت المكان وركبا السيارة المخصصة له والتي تردد قائدها في قيادتها بداية ولكن (شتاوفنبرج) أمره بحزم أن يتحرك فورًا.

عند تحرك السيارة، شاهد (شتاوفنبرج) جثة محمولة خارج ركام المقر مغطاة بمعطف (هتلر) الممزق، كانت كفيلة بأن تجعله يستنتج أن (الفوهرر) قد مات بالفعل، سُمح للسيارة بالمرور عبر حلقة التفتيش الأولى ونقطة التفتيش الثانية، وعند نقطة التفتيش الثالثة والأخيرة كانت التعليمات قد وصلت من (كايتل) بإغلاق كافة المنافذ وعدم خروج أو دخول أي شخص من مقر: «عرين الذئب»، رفض الرقيب [كولبي – Kolbe] المسئول عن نقطة التفتيش السماح للسيارة بالعبور، مِمَّا اضطر (شتاوفنبرج) أن يرتجل من السيارة إلى غرفة الأمن ليطلب الاتصال تليفونيًّا بمسؤول أمن الموقع النقيب [ليونارد فون موليندورف – Leonhard von Mollendorff] والذي تصادف مشاركته معه أثناء تناول وجبة الإفطار صباحًا في كافتيريا الضباط، أخبره (شتاوفنبرج) بشكل مقتضب بأن لديه تصريحًا من قائد أمن المقر العقيد [جوستاف ستريف - Gustav Streve] بالخروج من المقر، والذهاب إلى المطار الملحق بالمقر على أن يكون هناك عند الساعة ١:١٥ للأهمية، لحسن الحظ أن (موليندورف) لمْ يكنْ يعرف بعد السبب وراء إطلاق صفارات الإنذار، وكذلك الرواية التي قصها عليه (شتاوفنبرج) كان يصعب التأكد من صحتها في الحال، كما أنَّه يعلم أن (شتاوفنبرج) من الضباط غير الدائمين في المقر ويتحرك إلى داخل وخارج المقر بتصاريح مؤقتة، سمح له بالمرور وأمر الرقيب (كولبي) بفتح البوابة له، عبرت السيارة المكشوفة نقطة التفتيش الأخيرة وانطلقت في اتجاه مطار مقر: «عرين الذئب».

في منتصف الطريق ألقى (هيفتن) بلفافة ورق بنية كانت تحمل بداخلها القنبلة الثانية غير المستخدمة في الأرض العشبية على جانب الطريق، لاحظ قائد السيارة ذلك، ولكنَّه لمْ يدركْ ما بداخلها، لاحقًا سيتم اكتشاف القنبلة وسط الأعشاب بواسطة (الجستابو)، وصلت السيارة للطائرة المنتظرة في المطار بعد دقائق قليلة من الساعة الواحدة ظهرًا، وأقلعت بكل من (شتاوفنبرج)، ومساعده (هيفتن) إلى مقر القيادة العامة (بندلربلوك) في برلين لاستكمال الجزء الثاني من العملية، وتفعيل الخطة (فالكيري).

وصلت أخبار الانفجار سريعًا إلى (بندلربلوك) في الوقت الذي كان فيه الجنرال (فيليبل) قد قطع إشارة الاتصال من وإلى «عرين الذئب»، كان (فيليبل) محظوظًا عندما جاءته أوامر بأنَّه يجب ألا تنتقل أخبار الهجوم في الوقت الراهن إلى الخارج، وهو ما يجعل تصرف (فيليبل) بقطع إشارة الاتصال منطقيًّا، ومقبولًا ويُبعد الشكوك عنه.

في تلك الأثناء وداخل المقر تمَّ استدعاء أقوى رجال (هتلر)، قائد القوات الخاصة ووزير الداخلية (هيملر) إلى «عرين الذئب»، حيث قرر قرابة الساعة الثالثة استرجاع الاتصالات بين المقر والعالم الخارجي، وبدأت عملية البحث الأولية عمّن يكون منفذ العملية المحتمل، اتجهت الشكوك أولًا إلى احتمالية أن يكون الفاعلون هم عمال البناء العاملين في مقر (الفوهرر)، إلَّا أن مسؤول الاتصال في الغرفة المجاورة لمقر الاجتماع الرقيب [أرثر آدم - Arthur Adam] صرح لقائده ضابط الاتصالات المقدم [ساندر – Sander] بأنَّه شاهد الكولونيل (شتاوفنبرج) مترجلًا للخارج من غرفة الاتصالات المجاورة لغرفة الاجتماعات دون قبعته التي تركها في غرفة الاتصالات، وذلك قبل لحظات من الانفجار، لم يأبه (ساندر) كثيرًا بما يقوله الرقيب (آدم)، ومع إلحاحه المستمر نهره بصوت عالٍ مخبرًا إيَّاه أنَّه ما دام عنده الشك تجاه أحد القادة الكبار، والمتميزين فأنَّه يجب عليه الذهاب للقوات الخاصة، والشهادة بذلك بنفسه، بعد تردد ذهب الرقيب (آدم) إلى سكرتير (هتلر) الخاص، ورئيس مستشارية الحزب النازي [مارتين بورمان - Martin Bormann] وقص عليه شهادته، فما كان من (بورمان) إلَّا أن جعله يقابل (هتلر) ذاته.

المؤلف الموسيقي الألماني [ريتشارد فاجنر - Richard Wagner] (١٨١٣ – ١٨٨٣) شكلت أعماله الموسيقية منعطفًا مهمًا في مسيرة الكلاسيكيات العالمية وبالإضافة لكونه أوبرالياً فإنه كان أيضًا شاعر وكاتب، ويعتبر الموسيقِي الكلاسيكي الوحيد الذي كان يؤلف أيضًا، كانت آراءه المعلنة في عصره تهاجم اليهود وكانت في عداء مفتوح مع الموسيقيين اليهود متهمًا إياهم بالفقر الإبداعي، وكانت آراءه تميل إلى فكرة التفوق العرقي الآري، لذلك كان (هتلر) متيمًا به ليس فقط بسبب عبقرياته الموسيقية الفذة، ولكن لتوافق آراءه في عدائه لليهود مع رؤية (فاجنر)، رأى اليهود أن (فاجنر) كان يُجسّد الشخصيات الشريرة في أعماله في صورة اليهود، ورأوا ذلك واضحًا في أبرز أعماله والمعروفة باسم: [رباعية الخاتم - The Ring of the Nibelung] أو ما يُطلق عليها الرباعية الأوبرالية، رغم أنَّ (فاجنر) لم يصرح يومًا ما بتعمده ذلك، كان الجزء الثاني من الدراما الموسيقية: «رباعية الخاتم» تحمل عنوان [فالكيري - Die Walkure]، وتعني الكلمة في الأساطير القديمة: الروح العذراء النبيلة المساعدة للرب في حمل جثث أبطال المعارك بعيدًا عن أرض المعركة، لم يجد (الفوهرر) أفضل من اسم مقطوعة (فاجنر)

الرائعة ليتم إطلاقها على عملية خطة الطوارئ البديلة في حالة رحيل الأبطال، تلك الخطة التي لمْ يَجدْ أبطال المقاومة الألمانية أفضل منها لتطويعها لتعمل لصالح خطتهم في التخلص من (هتلر) والسيطرة على البلاد عقب ذلك، لمْ يكنْ أي من (شتاوفنبرج) أو الجنرال (أولبريخت) له صلاحية تفعيل الخطة (فالكيري)، فقد احتفظ (هتلر) بهذا الأمر له وحده، وفي حالة الضرورة القصوى يستطيع أن يقوم قائد قوات الاحتياط الجنرال (فروم) بإصدار قرار التنفيذ، وتعتبر المجموعة المنفذة لعملية الاغتيال وما بعدها تلك الإجراءات، تهديدًا لنجاح العملية في حالة رفض الجنرال (فروم) إصدار قرار تنفيذ الخطة، وذلك لصعوبة تحريك القوات دون قرار واضح منه.

عندما انفجرت القنبلة كان (هتلر) للتو ينحني بشدة على الطاولة ليتفحص على الخريطة أحد المواقع التي يتحدث عنها (هوسينجر)، تحطم الكرسي أسفله متطايرًا، وتمزق معطفه من الأسفل، وتحطم سطح الطاولة الخشبية وتطايرت أجزائها، وسقط (هتلر) على قدميه، وكان أول صوت تمَّ سماعه وسط الدخان والحطام هو صياح المارشال (كايتل): « أين الفوهرر؟»، انطلق (كايتل) سريعًا نحو (هتلر) لينهض به من ذراعه، وقال بصوت منتحب: «سيدي الفوهرر... أنت حي... أنت حي!»، ثمَّ ظهر مساعد (هتلر) المعاون [جوليوس شواب -Julius Schaub]، ومعه خادمه [هاينز لينج -Heinz Linge] ليحملاه إلى مسكنه القريب، اتصل (فيليبل) قرابة الساعة الواحدة والنصف ظهرًا من هاتفه الشخصي برئيس إدارة الإشارة في (بندلربلوك) الجنرال [فريتز تيلي - Fritz Thiele]، وأحد المشتركين في العملية، وأخبره بأن شيئًا رهيبًا قد حدث في المقر وبعد فترة صمت قصيرة أخبره بصوت مرتبك بأن (الفوهرر) ما زال حيًا، ولكن يجب أن تستمر العملية بأي شكل، ولا مجال للتراجع، استغرق (تيلي) وقتًا طويلًا في التفكير حتى الساعة ٣:١٥ حيث استقر رأيه أن أفضل رسالة يبلغها للآخرين في مقر القيادة هي وقوع انفجار ضخم في قاعة مؤتمرات (هتلر) في (عرين الذئب)، وقد خَلَّف هذا الانفجار إصابات بالغة في العديد الحضور دون أن يعلن بوضوح نجاة (هتلر)، في تلك الأثناء اتصل (هافتن) بمركز القيادة ليبلغهم بوصوله مع (شتاوفنبرج) إلى المطار، وأن الهجوم كان ناجحًا، وأن (هتلر) قد قُتل، كان تلك المكالمة كافية للجنرال (أولبريخت) بعد ما استشار مساعده المقدم [ميرتز فون كويرنهايم - Mertz von Quirnheim] وأيَّده بحلول الوقت لتنفيذ العملية (فالكيري)، أخذ (أولبريخت) أمر تنفيذ العملية للجنرال (فروم) ليقوم بتوقيعه، ولكن (فروم) كان مترددًا وطلب الانتظار حتى يتم التأكد من صحة مقتل (هتلر)، فقام بالاتصال بالمارشال (كايتل) يستفسر منه عن الأخبار المتواردة عن الانفجار، حيث أكد (كايتل) أن انفجارًا قد وقع بالفعل، ولكنه أكد له نجاة (هتلر) وأن

تعرض فقط لعض الإصابات الطفيفة، ثمَّ سأله عن (شتافنبرج)، فأخبره (فروم) بأنَّه لم يراه وأغلق الهاتف.

لم يوقع (فروم) على القرار وعاد (أولبريخت) ليكتشف أن (ميرتز) بدأ الاتصالات مع المواقع المختلفة مُعلنًا اغتيال (هتلر)، وتحرك جيش الاحتياط لتملك زمام الأمور طبقًا للخطة (فالكيري)، فعاد (أولبريخت) مرة أخرى، وأخبره بأن الاتصالات قد بدأت بالفعل بواسطة الكولونيل (ميرتز) لتنفيذ العملية، انفعل (فروم) غاضبًا، وطلب القبض فورًا على (ميرتز)، في تلك الأثناء وفي الرابعة والنصف وصلت سيارة (شتاوفنبرج) لمقر القيادة حيث ذهب مباشرة للجنرال (أولبريخت) ليقدم له تقريرًا شفهيًّا سريعًا عمَّا حدث، ذهب الاثنين سريعًا إلى مكتب (فروم) حيث أصر (شتاوفنبرج) على أن (هتلر) قد مات، وأكَّدَ أنَّه شاهد الانفجار وقوته بنفسه وشاهد (هتلر) وهو محمولًا، ثمَّ أخبره (شتاوفنبرج) أنَّه هو الذي فعل ذلك بشخصه، صاح (فروم) بأن (هتلر) مازال حيًّا طبقًا لحديثه مع المارشال (كايتل)، رد (شتاوفنبرج) بأن (كايتل) يكذب كما هو معروف عنه أن يكذب كما يتنفس، لم يقتنع (فروم) باحتمالية كذب (كايتل) وشعر بالخطر، وأن العملية محتومة بالفشل وأن أفضل سيناريو الآن هو أن يتنصل من تلك العملية، وسأل (ميرتز) الذي كان حاضرًا عما إذا كان يحمل معه مسدسًا، فأجابه (ميرتز) بأنَّه لا يحمل أي سلاح بعد قراره بالتحفظ عليه، غضب (فروم)، وأعلن بأن (شتاوفنبرج)، والجنرال (أولبريخت) هما أيضًا قيد الاعتقال، ولكن كان رد فعلهما أسرع منه فقررا تنحيته على الفور، على أن يقوم (أولبريخت) بصلاحيته ويقوم بوضعه رهن الاعتقال، رفض (فروم) التوقيع على قرار نقل الصلاحيات الذي قدمه له الجنرال (هوبنر)، وقال له: «أنا أسف يا هوبنر، فلن أستطيع القيام بذلك، فأنا أرى أن (هتلر) ما زال حيًّا، وأن ترتكبون خطأً كبيرًا».

وصلت الأنباء إلى «عرين الذئب» عن بداية تمرد مصدره جيش الاحتياط في مقر القيادة في برلين، فأصدر (هتلر) أمرًا في الرابعة عصرًا بتعيين (هيملر) قائدًا للجيش الاحتياطي، وعدم تنفيذ أي أوامر صادرة من (بندلربلوك)، في تلك الأثناء كانت بعض القوات قد بدأت بالتحرك، ولم تصلها بعد تعليمات الإلغاء ومنها قوات رائد المشاة [أوتو إرنست ريمر - Otto Ernst Remer]، بعد ساعة ونصف من وصول إشارة (فالكيري)، قام الرائد (ريمر)، وبناء على تعليمات من قائده الجنرال [باول فون هاس - Paul von Hase] أحد المشتركين في العملية بالتحرك لمحاصرة مبنى الحكومة، كان (ريمر) متشككًا في طبيعة الأحداث وخصوصًا بعدما اكتشف أن المبنى الذي طلب منه الجنرال (باول هاس) محاصرته في البداية كان مبنى (الجستابو)، في السابعة مساء وبينما تقوم قوات الرائد [مارتين كورف – Martin Korff] بأوامر أيضًا من الجنرال (بول هاس) بمحاصرة منزل وزير الدعاية النازي [جوزيف

جوبلز - Joseph Goebbels]، قرر (ريمر) أن يدخل وحده محاولًا القبض عليه، وطلب اقتحام القوات إذا تأخر بالداخل أكثر من خمسة عشر دقيقة.

كان (جوبلز) من الذكاء بحيث قرأ التشكك في عيني (ريمر) وزعمه بمقتل (هتلر)، فقام بالاتصال بمقر (هتلر) في (راستنبرج)، وطلب التحدث معه، وأعطى سماعة الهاتف للرائد (ريمر) ليصبح على الهاتف مباشرة مع (هتلر)، فسأله (هتلر) إذا كان يستطيع تمييز صوته، فرد عليه (ريمر) بالإيجاب، فأخبره (هتلر) بأن زُمرة من الضباط الخونة يحاولون الإطاحة به، وأنَّه بنفسه يمنحه السلطة الكاملة لاتخاذ ما يراه مناسبًا لإخماد تلك المؤامرة حتى وصول (هيملر) إلى برلين، أصيب (ريمر) للحظات بالدهشة عند سماعه صوت (هتلر)، واكتشاف أنَّه على قيد الحياة، وكذلك من التكليف المباشر والصريح له بإخماد الانتفاضة، على الفور طلب من الرائد (كورف) إيقاف القبض على (جوبلز) بل وحمايته، كما أمر بإزالة الحصار المفروض على مبنى الحكومة في برلين، وبدأ الانقلاب يترنح بشكل حاد في (بندلربلوك).

على جانب آخر في «عرين الذئب» وقبل ذلك بساعات، التقى (هتلر) رقيب الاتصالات (آرثر آدم) الذي أبدى تشككه من تورط (شتاوفنبرج) في تنفيذ العملية بعد ملاحظته لخروجه المتعجل قبل لحظات من الانفجار، استمع (هتلر) له باهتمام واضح وسرعان ما أدرك أن (شتاوفنبرج) هو منفذ عملية الاغتيال، حتى تلك اللحظة كان يتوقع أن العملية فردية، بعد ثلاث ساعات من وقوع الانفجار كان موعد لقاء (هتلر) مع الزعيم الفاشي الإيطالي (موسوليني) قد أوشك، كان القطار الذي يقل (موسوليني) قد قارب على الوصول إلى المقر، توقف القطار لفترة وأسدلت الستائر دون أن يدري أي من بداخل القطار الأسباب، في تلك الأثناء وصل السيد [بول شميت - Paul Schmidt] مترجم (هتلر) لاستقبال (الدوتشي)، وهناك تبادل الحديث مع طبيب (هتلر) البروفسير [تيودور موريل - Theodor Morell] الذي أخبره بأنَّه لمْ يتعافى بعد من صدمة الانفجار، أثنى (موريل) على شجاعة وهدوء وبأس (هتلر) حيث وجد نبضه طبيعيًّا عند فحصه للإصابات، ورأى (موريل) أن (الفوهرر) نجا من الموت بأعجوبة، ولم يصب بأذى سوى بعض الرضوض بذراعه اليمنى وشظية من الخشب في قدمه، بينما أصيب أشخاص آخرون في الغرفة بجروح بالغة، فوجئ كلاهما، وهما يتجاذبان هذا الحوار بحلول (هتلر) ورائهما حيث وصل قطار (الدوتشي)، استقبله (هتلر) بنفسه مصافحًا إيَّاه بيده اليسرى، ثمَّ قام باصطحابه في السيارة وقَصّ عليه أنباء محاولة الاغتيال، حتى وصلا خلال ثلاث دقائق لغرفة الاجتماعات المحطمة، هناك أخذ يشرح (هتلر) الحدث بالتفصيل، وشرع يوضح للزعيم الإيطالي كيف كان ينحني على الطاولة لرؤية شيء ما على الخريطة، وكيف كان يميل إلى مرفقه الأيمن عندما وقع الانفجار تحت ذراعه تمامًا، كان (موسوليني) مذعورًا

مِمَّا يشاهد ويسمع ومندهشًا من رباطة جأش (هتلر) الذي أخذ يطلعه على الكدمات والحروق في شعر رأسه.

كانت الإصابات بالغة بين الحاضرين، وأسفر ذلك عن مقتل أربعة أشخاص، ثلاثة منهم توفوا خلال ساعات من الانفجار وهم [هاينز برانت - Heinz Brandt] مساعد (هوسينجر)، والذي قام بتغيير موقع الحقيبة لتكون مستندة على القائم الأيمن في اتجاه الخارج بدلًا من وضعها الأول في اتجاه الداخل، و[هاينز بيرجير - Heinz Berger] كاتب الاختزال، والعقيد [جونتر كورتين - Günther Korten] رئيس أركان القوات الجوية المعروفة باسم: «لوفت فافه - Luftwaffe»، أمَّا مساعد (هتلر)، والجنرال بالقوات البرية [رودولف شمونت - Rudolf Schmundt] فقد توفي بعد شهرين وبضعة أيام من وقوع الحادثة، وتحديدًا في أول أكتوبر من نفس ذات العام، فضلًا عن القتلى الأربعة، جُرح العشرون الآخرون المتواجدون بالغرفة كان بينهم ثلاثة في حالة خطيرة وسبعة أشخاص أصيبوا بجروح طفيفة من بينهم (هتلر).

في (بندلربلوك) نجحت قوات الرائد (ريمر) في السيطرة على الوضع وتمَّ اقتحام المبنى، والقبض على (شتاوفنبرج)، والجنرال (أولبريخت)، وغيرهم من قادة العملية، وتمَّ إطلاق سراح الجنرال (فروم)، كان (فروم) قلقًا على افتضاح أمره بأنَّه على عِلْم بأمر العملية مسبقًا حتى، وإن عارضها إذا أجريت معه التحقيقات تحت التعذيب، لذلك وحتى يتم ردم الحقيقة كاملة أصدر (فروم) بعد تحريره، وبعد إجراء محاكمة صورية عاجلة أمرًا بإعدام الأربعة في الحال رميًا بالرصاص حتى لا يتسنى لأي منهم الوشاية به، رغم معارضة الرائد (ريمر) لهذا الإجراء المتسرع وخصوصًا أنَّهم قيد الاعتقال، تمَّ تنفيذ الإعدام في الساعة الواحدة صباح يوم ٢١ يوليو، وفي الساعة الواحدة ودقيقة واحدة صباحًا كان صوت (هتلر) عبر المذياع من (راستنبرج) يلقي بيانه إلى الشعب: "أتحدث لكم اليوم لسببين... أولًا... لأنَّه يجب أن تسمعوا صوتي وتعلموا أنِّي لم أصب بأذى، ثانيًا.. لكي يجب أن تعلموا عن الجريمة التي لمْ يسبقْ لها مثيل في التاريخ الألماني، والادعاء الذي أعلنه المتآمرين بأنِّي لست على قيد الحياة يتناقض في هذه اللحظة التي أتحدث فيها إليكم مع حقيقة الأمر.

لقد قامت زُمرة صغيرة جدًا من الضباط الحمقى والمجرمين وغير المسؤولين بتنفيذ مؤامرة للقضاء على شخصي، ومن معي من قيادات (الفيرماخت).

لقد تمَّ وضع القنبلة من قِبل العقيد (جراف فون شتاوفنبرج)، وأصيب عدد من المتعاونين معي بجروح بالغة للغاية، أمَّا أنا فقد تعرضت فقط لبعض الخدوش البسيطة، والكدمات والحروق، لقد انفجرت القنبلة على يميني على بعد

مترين، وقتل أحدهم، ونجاتي هي تأكيد من العناية الإلهية لكي أستكمل المهمة المكلف بها وأستمر في الطريق الذي سلكته حتى اليوم".

كان الجنرال [هينينج فون تريسكو - Henning von Tresckow] هو صاحب المسودة الأولية لخطة اغتيال (هتلر) من خلال استخدام العملية (فالكيري)، حيث حصل على إجازة مرضية طويلة امتدت خلال شهري أغسطس وسبتمبر ١٩٤٣ عكف خلالها على كتابة الخطة بدقة بالأدوار والتوقيتات وجميع التفصيلات، وأكمت زوجته [إريكا – Erika] الخطة الإعلامية بكيفية وضع اللوم على الحزب النازي، وقياداته التي أدت إلى تلك المرحلة، ولكن نتيجة تكليف (تريسكو) في أكتوبر من ذات العام بقيادة كتيبة على الجبهة الشرقية، الأمر الذي يجعله بعيدًا عن أي لقاءات مباشرة مع (هتلر)، لذلك سلم الخطة إلى (شتاوفنبرج) الذي التقاه في أغسطس ليستكمل المهمة، قرر (تريسكو) الانتحار عندما وصلته أنباء فشل محاول اغتيال (هتلر)، وكانت كلمات وداعه الذي نقلها الجندي المساعد له [فابيان فون شلابريندورف - Fabian von Schlabrendorff]: «العالم كله سوف يُشوّهنا الآن، لكنني ما زلت مقتنعًا تمامًا بأننا فعلنا الشيء الصحيح، (هتلر) هو العدو الرئيسي ليس فقط لألمانيا، ولكن للعالم أجمع، سأذهب إلى للرب للحساب وسوف أكون قادر على تبرير ما فعلت في كفاحي ضد (هتلر)، وعد الله(إبراهيم) أنَّه لن يدمر (سدوم) إذا كان هناك عشرة رجال صالحين فقط في المدينة، وآمل ألَّا يدمر الرب ألمانيا».

تمَّ القبض على أكثر من سبعة آلاف متهم، وتمَّ إعدام ٤,٩٨٠ شخصًا اعتمادًا في كثير من الأحيان على أدلة واهية، لمْ يكنْ أغلبهم على صلة بالمؤامرة، ولكن (الجستابو) استغل الفرصة لتسوية الحسابات مع العديد من الأشخاص الآخرين المشتبه في تعاطفهم مع المقاومة، حاول الجنرال (فروم) باستباق إعدام (شتاوفنبرج)، والثلاثة الآخرون المتهمون أن يُبرئ نفسه من التورط في المؤامرة، ولكن تمَّ القبض عليه في اليوم التالي للحادث وأصدرت [محكمة الشعب - People's Court] سيئة السمعة حكمًا بإعدامه شنقًا ليس على تورطه في العملية، ولكن على أداؤه السيئ، والضعيف لواجبه المنوط به أثناء العملية، وخفف (هتلر) حكم الإعدام شنقًا ليكون مشرفًا بجعله إعدامًا رميًا بالرصاص، تمت ترقية الرائد (ريمر) إلى رتبة عقيد ثمَّ جنرال، وبعد الحرب شارك في تأسيس (حزب الرايخ الاشتراكي).

يرى كثير من المحللين أن فشل العملية (فالكيري) يُعزَى إلى ثلاثة أمور، أولها الفشل في تفعيل القنبلة الثانية، والتي كان من شـأنها مضاعفة التفجير، والقضاء على جميع من كان في غرفة العمليات بمن فيهم (هتلر)، والأمر الثاني هو تغيير مقر إقامة الاجتماع من القبو الخرساني إلى الكهف الخشبي، حيث أن المقر الخشبي والنوافذ الملحقة به ساعدت على تخفيف حدة

موجات التفجير، في حين أن المبنى الخرساني المُصمت كان سيزيد من قوة تأثير الموجات التفجيرية نتيجة عدم تسربها للخارج وتركيزها داخل الغرفة، والأمر الثالث هو تغيير موقع الحقيبة التي تحتوي على القنبلة أسفل الطاولة، والمستندة على الطرف الداخلي الجانبي لقائم الطاولة إلى الطرف الخارجي الجانبي لقائم الطاولة، حيث امتص القائم غالب القوة التفجيرية التي حالت دون وصولها إلى (هتلر)، ولو أن أي أمر من تلك الأمور الثلاثة لمْ يحدث لكانت احتمالية القضاء على (هتلر) شبه مؤكدة، وتمَّ إنقاذ البشرية من ملايين الأرواح التي زُهقت منذ توقيت العملية في ٢٠ يوليو ١٩٤٤ وحتى نهاية (هتلر) في ٣٠ أبريل ١٩٤٥.

تناولت الدراما السينمائية أحداث عملية الاغتيال مرات عديدة، كانت بدايتها مع الفيلم الألماني [تمرد البيادة العسكرية - Jackboot Mutiny] الذي أنتج عام ١٩٥٥، ولكن يعتبر الفيلم الأمريكي السينمائي [فالكيري -Valkyrie] الذي أُنتج عام ٢٠٠٨ وقام ببطولته الممثل الأمريكي [توم كروز - Tom Cruise] حيث جَسّدَ شخصية العقيد (شتاوفنبرج)، من أهم تلك الأفلام التي تناولت مؤامرة ٢٠ يوليو ١٩٤٤، وقد لاقي الفيلم الترحيب من كثير من النقاد والمؤرخين السياسيين في كل من ألمانيا والولايات المتحدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إطارات بلا لوحات

إذا قمت اليوم بزيارة متحف « إيزابيلا ستيوارت جاردنر - Isabella Stewart Gardner» في مدينة [بوسطن – ماساتشوستس – Boston - Massachusetts]، سوف يلفت انتباهك وجود بضعة لوحات فارغة تحتوي على إطار فقط، تُجسّد هذه الإطارات أكبر سرقة فنية في تاريخ المتاحف واللوحات التشكيلية في العصر الحديث، سرقة تتعدى قيمتها في وقتها ٥٠٠ مليون دولار أمريكي، أنشئ المتحف عام ١٩٠٣ على غرار [قصر دوجي - Doge’s Palace]، أو (قصر البندقية) في [فينيسيا – Venice] شمال إيطاليا، ويحتوي على أكثر من ٧٥٠٠ عمل فني بين لوحات وتماثيل وأثاث ومفروشات، ومقتنيات أثرية تتخطى ٧٠٠٠ أثر من روما القديمة، والقرون الوسطى الأوروبية، وعصر النهضة الإيطالي، ومملكتي (تشانغ)، و(تشو) الصينيتين، وكذلك من الحضارة الإسلامية.

اليوم هو السبت ١٧ مارس ١٩٩٠ الذي يوافق الاحتفال السنوي المعروف باسم [يوم القديس باتريك - St. Patrick’s Day]، ذلك الاحتفال الثقافي الديني الذي يحيي ذكرى رحيل الراعي الأيرلندي (القديس باتريك)، ومع نهاية هذا المساء، ونسمات بداية يوم جديد كانت الغالبية لا تزال تحتفل بهذه المناسبة، في منتصف الليل توقفت سيارة من طراز [دودج دايتونا –Dodge Daytona] بالقرب من مدخل متحف (جاردنر) من اتجاه [شارع بالاس – Palace Road]، كان بداخل السيارة رجلان من ذوي البشرة البيضاء يرتديان زي رجال شرطة (بوسطن)، حيث ظلا منتظرين بداخلها لمدة تخطت الساعة، عند قرابة الساعة الواحدة من صباح يوم الأحد ١٨ مارس ١٩٩٠ عاد [ريك أباث - Rick Abath] البالغ من العمر ٢٣ سنة والذي يعمل كحارس ليلي لمتحف (جاردنر) خلف مكتبه القريب من مدخل المتحف، حيث أنَّه قد انتهى للتو من القيام بجولة تفقدية أمنية داخل المتحف للتأكد من أن سير كل الأمور على ما يرام، وقام خلالها بالتبديل الروتيني لموقعه مع زميله الآخر والوحيد في حراسة المتحف، والذي يقبع في أحد الأدوار العلوية داخل المتحف المغلق.

في تمام الساعة ١:٢٤ صباحًا ارتجل الشخصين المرتدين زي رجال الشرطة من سيارتهما متجهين لمدخل المتحف، حيث قام أحدهما بالضغط على زر الجرس، مُعلنين للحارس (ريك أباث) القابع خلف الباب المغلق داخل المتحف بأنَّهما من شرطة (بوسطن)، وأنَّهما قد سمعا صوت حركة غير اعتيادية بفناء المتحف، طالبين منه أن يفتح الباب لهما، وحيث أن (أباث) يعلم جيدًا بأنَّه غير مسموح على الإطلاق بدخول أي شخص للمتحف خلال فترة خدمته الليلية، إلَّا أنَّه لمْ يكنْ يدرك أن هذا أيضًا ينطبق على رجال الشرطة،

يقول المحقق الخاص للمباحث الفيدرالية الأمريكية لاحقًا [جيف كيلي - Geoff Kelly] بأن الحارس كان يجب عليه أيضًا ألَّا يفتح باب المتحف لرجل الشرطة طالما أن الشرطة لمْ تقمْ بالاتصال به، ويستدرك (كيلي) بأنَّه في تلك الحالة كان يتوجب عليه أولًا الاتصال بمركز الشرطة للتأكد من حقيقة الأمر، قام الحارس (أباث) بفتح الباب للرجلين لتبدأ منذ تلك اللحظة أكبر، وأغرب عملية سرقة فنية في التاريخ.

متحف (جاردنر) بمدينة (بوسطن) يحتوي على أعمال فنية ولوحات لكبار الفنانين المشهورين لا تقدر بثمن، منها أعمال للرسام والنحات والمعماري الإيطالي الأشهر [مايكل أنجلو – Michelangelo]، الرسام الهولندي [رمبرانت – Rembrandt]، الرسام الفرنسي [إدوارد مانيه - Édouard Manet]، الفنان التشكيلي والنحات الفرنسي [إدجار ديجا - Edgar Degas]، والرسام الإيطالي [تيتيان - Titian]، ورسام عصر النهضة الإيطالي [رافاييل – Raphael]، ورسام القرن السابع عشر الهولندي [يوهانس فيرمير - Johannes Vermeer].

بدأت الجريمة عندما سمح الحارس (أباث) بدخول الشرطيين المزعومين، حيث فوجئ بطلبهما منه إبراز تحقيق شخصيته، وهو الأمر الذي جعله يخرج من خلف مكتبه للحديث معهما، وهنا فقد (أباث) آخر وسيلة إنذار يمكن أن يستخدمها، وهي زر الاستدعاء الموجود خلف المكتب، ذلك الزر الذي يمكنه عند الضغط عليه من القيام باستدعاء آلي للشرطة بالإضافة لإطلاق جرس الإنذار، طلبًا الشرطيين المزيفين من (أباث) استدعاء الحارس الآخر الموجود بالدور العلوي بعدما علما منه بوجوده، حينها قام الرجلين بتقييد الحارسين ووضعا شريط لاصق على فم كل منهما، وهما يعلنان لهما أن ما يحدث هو عمليه سرقة، طالبين منهما الالتزام بالهدوء حتى لا يصابا بأذى، اقتادا الرجلين الحارسين الموثقين للدور السلفي، وبعد ٨١ دقيقة كاملة انتهت أكبر جريمة سطو فني في التاريخ، حسبما أشارت أجهزة استشعار الحركة التي تمَّ فحصها عقب اكتشاف الجريمة في الثامنة من صباح هذا اليوم.

«إنَّه عمل بربري جبان ضد الحضارة بأكملها».

هكذا قالت [آن هاولي - Anne Hawley] مديرة المتحف التي تولت إدارته في الفترة من عام ١٩٨٩ إلى عام ٢٠١٥، خرج اللصين من موقع الجريمة في تمام الساعة ٢:٤٥ دقيقة صباحًا غير مدركين أنَّهما قاما بأكبر سرقة في التاريخ، ويحملا بيدهم مقتنيات تتعدى قيمتها في تلك الأثناء نصف مليار دولار، وتعتبر حصيلة ثلاثة عشر عمل فني عالمي قاما بسرقتهم، تنوعت الأعمال الفنية المسروقة من حيث القيمة والتاريخ، ولكن تعتبر أهمهم لوحة (يوهانس فيرمير) ١٦٣٢ – ١٦٧٥ والتي تحمل عنوان [الحفلة – The Concert]١٦٦٤ -

وترجع أهميتها إلى أنَّها تعتبر واحدة من ٣٤ لوحة فقط معروفة للفنان الهولندي (فيرمير) حاليًا، اللوحة مرسومة بالزيت على القماش بأبعاد ٧٢,٥ سم عرض و ٦٤,٧ طول، وتمثل عازفة على آلة تشبه البيانو، وعازف يعزف على آلة العود ومعهما مغنية، بينما توجد آلة التشيللو على الأرض، واللوحة بذاتها تحتوي بداخلها على لوحتين مرسومتين ومعلقتين على الحائط، إحدى اللوحتين الداخليتين على اليسار تعتبر تجسيدًا للوحة شهيرة للرسام الهولندي [ديرك فان بابورين - Dirck van Baburen] ١٥٩٥ – ١٦٢٤ والتي تحمل عنوان [العاهرة – The Procuress] – ١٦٢٢، وتلك اللوحة الداخلية تحتوي على ثلاثة أشخاص فتاة الهوى على اليسار تعزف على العود، بينما يحتضنها العميل في الوسط، والقواد العجوز على اليمين يشير بإصبعه على راحة كفه بمعنى أنَّه يطلب الثمن، بينما اللوحة الداخلية الأخرى على اليمين تمثل على ما يبدو منظرًا طبيعيًّا للمراعي الجبلية والرعاة، وينسجم هذا المنظر كثيرًا مع النقوش المرسومة على غطاء البيانو في اللوحة المفقودة.

تعتبر لوحة (الحفلة) من أغلى الأعمال الفنية المسروقة على الإطلاق، وقد قدرت قيمتها وقت السرقة بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار، وقد ظهرت تلك اللوحة في بعض الأعمال التليفزيونية، وأفلام الرسوم المتحركة وكذلك ورد ذكرها في رواية الممثل الكوميدي الأمريكي الشهير (ستيف مارتين) التي صدرت عام ٢٠١٠ بعنوان [قطعة من الجمال – An Object of Beauty]، وكذلك رواية [مكيدة ميدوسا – The Medusa Plot] للكاتب الأمريكي الكندي [جوردون كورمان - Gordon Korman] عام ٢٠١١.

يبدو أن تركيز اللصين كانا منصبًا على لوحات (رمبرانت) من الأساس فقد قاما بسرقة ٣ أعمال رسمها (رمبرانت)، وتعتبر أهمهم لوحة «العاصفة على بحيرة طبريا - The Storm on the Sea of Galilee» التي رسمها عام ١٦٣٣ وهي لوحة تصور معجزة السيد المسيح المذكورة في (العهد الجيد) الجزء الثاني من الكتاب المقدس (إنجيل مَتّى ٨ - Matthew, ٨)، وهو يقوم أثناء إبحاره على ظهر القارب، بتهدئة العاصفة البحرية التي هبت على بحيرة (طبريا) بإشارة من يده، بحيرة (طبريا) هي بحيرة عذبة المياه تقع على الجزء الشمالي من مسار نهر الأردن بين منطقتي (الخليل)، وغرب هضبة (الجولان)، كان المسيح مبحرًا في تلك البحيرة مع تلاميذه الاثني عشر، وعندما اشتدت العاصفة أيقظ التلاميذ السيد المسيح من نومه مستنجدين به بعدما تملكهم الخوف، فأمر السيد المسيح الرياح من على سطح السفينة بالسكون فهدأت العاصفة، وكثير من النقاد الفنيين يعتبر تلك اللوحة واحدة من أكثر لوحات (رمبرانت) درامية وديناميكية بتجسيد قوة الرياح، حيث قَسّم ساري السفينة اللوحة تقديريًّا لنصفين بشكل قُطري، ليجسد النصف العلوي يمين الصورة هلع حواريو السيد المسيح بسبب شدة تلاطم الأمواج بفعل

الرياح العاصفة، بينما يُمثل النصف الجانبي السفلي حيث يجلس السيد المسيح مع باقي حواريه، بداية انفراج الأزمة عندما بدأت العاصفة في الهدوء والسكينة، وانفراجه ظهرت في السماء الملبدة بالغيوم الداكنة، شكلت هذه اللوحة الغلاف الرئيسي لكتاب الخبير الاقتصادي الأمريكي (بيتر برنستين) عام ١٩٩٦ «ضد الآلهة - Against the Gods»، كما ظهرت على غلاف ألبوم فريق «الشارع العاشر شمال - Tenth Avenue North»، والذي يحمل عنوان «النضال – The Struggle»، أمَّا اللوحة الثانية من أعمال (رمبرانت) التي تمت سرقتها تلك التي رسمها عام ١٦٣٣ وتعرف باسم «رجل وامرأة بالزي الأسود - A Lady and Gentleman in Black»، وهي لوحة زيتية بطول ١٣١,٦ سم وعرض ١٠٩ سم تستعرض رجل وزوجته بزي أسود أنيق، أمَّا العمل الثالث فكان عبارة عن اسكتش تصوير شخصي له بحجم طابع البريد، وهي تختلف عن لوحة (رمبرانت) الزيتية لصورته الشخصية، والموجودة بنفس المتحف، والذي أثبتت المعاينة وقتها فشل اللصين في سرقتها.

ترك اللصين الحارسين المقيدين في الطابق الأرضي، وانطلقا نحو غرف المتحف التي تحتوي على عشرات الآلاف من الأعمال الفنية القيِّمة بدون أي دفاعات أمنية، فلا كاميرات مراقبة، ولا حراس أمنيين، أشارت أجهزة استشعار الحركة لاحقًا أنَّه عند الساعة ١:٤٨ صباحًا إلى دخول أحد السارقين إلى القاعدة الهولندية، وهناك قام بخلع لوحة (العاصفة)، وكسر الزجاج الأمامي وقطع اللوحة من إطارها بآلة حادة تاركًا الإطار خلفه فارغًا، وفعل ذلك أيضًا مع لوحة «الرجل والمرأة بالزي الأسود»، ثمَّ انطلق السارق بعد ذلك لأهم لوحة تمت سرقتها، وهي (الحفلة) للهولندي (فيرمير)، وبعدها تجول السارقين في أرجاء المتحف مُلتقطين فازة صينية أثرية مصنوعة من البرونز بطول ٢٦,٥ سم تعود إلى [مملكة شانج - Shang dynasty]، وهي السلالة التي حكمت الصين في الألفية الثانية قبل الميلاد، وتعتبر تلك القطعة من أقدم القطع من تلك المجموعة، وتعتبر بالتأكيد واحدة من أكثر القطع أناقة في المتحف بأكمله، وقد اشترتها السيدة (جاردنر) عام ١٩٢٢ بمبلغ سبعة عشر ألفًا وخمسمائة دولار ووضعت في القاعة الهولندية على منضدة صغيرة أمام لوحة [عالم القانون - A Doctor of Law] التي رسمها الإسباني [فرانسيسكو دي زورباران - Francisco de Zurbarán] عام ١٦٣٥.

كان أيضًا من بين المفقودات لوحة «الخروج من الحلبة - La Sortie du Pesage» للرسام الفرنسي (إدجار ديجا)، وهي لوحة مرسومة بالألوان الزيتية عام ١٨٦٦ على الورق بأبعاد ١٦ سم عرض وطول ١٠ سم، ومُوقَّع عليها من اليمين اسم (ديجا)، وتمثل صورة من الخلف لفارس يمتطي حصانه استعدادًا لدخول حلبة السباق المكتظ بالمشجعين الذي يدخل بعضهم ساحة

السباق بجوار الحصان، لم يكن ذلك هو العمل الوحيد من أعمال «ديجا» الذي تمت سرقته، كانت هناك أربعة أعمال أخرى وجميعها كانت عبارة عن اسكتشات مرسومة على الورق، وتواجدت في خزائن زجاجية في الممر المؤدي لصالة اللوحات الرئيسية بالطابق الثاني، منها لوحة [موكب على الطريق في محيط فلورنسا - Cortège Sur Une Route Aux Environs De Florence]، والتي رسمت بألوان مائية بنية داكنة عام ١٨٥٧ بطول ١٥,٥ سم وعرض ٢٠,٥ سم.

أمَّا اللوحات الثلاث الأخرى فكانت إحداهم لوحة [الفرسان الثلاثة - Three Mounted Jockeys]، وهي عمل غير مكتمل استخدم فيه الحبر الأسود والألوان المائية البيضاء، بالإضافة لبعض الأصباغ الزيتية على ورق بني بطول ٣٠,٥ سم وعرض ٢٤ سم، واللوحة رسمت عام ١٨٨٨ ويظهر فيها أحد الفرسان الذي يعتبر هو الأكثر وضوحًا في وضعية ملفتة للنظر حيث يمتطي الجواد، ويميل إلى الخلف بقدم واحدة متدلية بينما ساقه الأخرى ممتدة إلى رقبة الحصان، أمَّا الفارسين الآخرين فسيصعب عليك تحديدهما حتى تقلب الصورة حيث رسمهما (ديجا) في الوضع المعكوس، واللوحتان الأخيرتان كانتا مرسومتان بالفحم الأسود بعنوان [برنامج سهرة فنية - Program For An Artistic Soirée] وكلتاهما متقاربتان إلى حد كبير وتعتبر الثانية أكثر اكتمالًا من الأولى، والزاوية اليسرى السفلية من الصورة تركت فارغة على اعتبار أنَّه سيكتب فيها برنامج السهرة الفنية، ومن بين المسروقات كانت هناك لوحة الرسام الفرنسي (إدوارد مانييه) الزيتية التي رسمها خلال الفترة من عام ١٨٧٨ إلى عام ١٨٨٠، وتحمل اسم «في تورتوني - Chez Tortoni» بطول ٢٦ سم وعرض ٣٤ سم وهي تصور شخص مجهول الهوية يجلس داخل مقهى (تورتوني) بباريس، القرن التاسع عشر يقع في [شارع الإيطاليين - Boulevard des Italiens] في العاصمة الفرنسية، كان يرتاده السياسيين والمثقفين والفنانين والمشاهير وعلية القوم، كان اللوحة تُجسّد هذا الشخص وهو يجلس أمام طاولة، وأمامه نصف كأس من البيرة، ويقوم بالرسم.

بعدما اكتفى اللصين بما حصلا عليه، عادا ليطمئنا على الحارسين بالطابق السفلي، في تلك الأثناء طلب منهما الحارسين المقيدين تخفيف الأربطة، ولكن دون استجابة منهما، ثمَّ عادا السارقين مرة أخرى للطابق الأول مقتحمين غرفة الأمن، حيث سحبا شرائط كاميرات مدخل المتحف والتي تكشف هويتهما، وكذلك استوليا على قراءات بعض أجهزة الاستشعار الحركي، وفي تمام الساعة ٢:٤١ صباحًا خرج اللصين لسيارتهما بالخارج لنقل بعض القطع الفنية المسروقة فيها، ومن بين تلك القطع [النسر الإمبراطوري الفرنسي - French Imperial Eagle] ١٨١٣ – ١٨١٤، أو مجسم النسر البرونزي الذي يوضع كَحُلية أعلى علم القائد العسكري، وحاكم فرنسا

[نابليون بونابرت - Napoléon Bonaparte] بارتفاع ٢٤,٥ سم، والمجسم يُصَوّر وقوف النسر فخورًا حيث تمتد أجنحته بشكل ملفت ومهيب، لمْ يستطعْ اللصين سرقة العلم ذاته الذي كان مُثبتًا في جدار القاعة الصغرى، حيث أثبتت المعاينات محاولتهما نزعه ولكن طريقة تثبيته أحالت دون نجاحهما في سرقته، لذلك استقرا في النهاية على سرقة المجسم فقط، ومازال العلم ذاته معروضًا داخل المتحف حتى اليوم، قام اللصين أيضًا بسرقة لوحة «المنظر الطبيعي مع المسلة - Landscape with Obelisk» والتي رسمها الرسام الهولندي [جوفير فلينك - Govert Flinck] عام ١٦٣٨، وهي لوحة مرسومة بالزيت على الخشب بطول ٥٤,٥ سم وعرض ٧١ سم، لرجل يسير مترجلًا مع رجل آخر يمتطي حصانه أمام أشجار عتيقة تطل على جدول ماء وسط أجواء غائمة، وفي منتصف الثلث الطولي الأيمن للوحة تبرز مسلة منتصبة على هضبة، واللوحة يغلب عليها الألوان الدافئة الشتوية وبعض الغموض وملامح الوحشة.

عاد اللصين لنقل باقي المسروقات للسيارة، وقاما بإغلاق باب المتحف للمرة الأخيرة في الساعة ٢:٤٥ صباحًا لتنتهي بذلك أكبر، وأغرب سرقة فنية لثلاثة عشر عمل لمْ يظهرْ أي منهما للوجود مرة أخرى في أي مناسبة وحتى اليوم، كان من الواضح أن السارقين ليس لهما أي دراية بالفن، أو تقديره، أو تقييمه، فبالرغم من قيمة بعض ما سرقوه إلَّا أنَّهم تركوا ورائهم أعمال أخرى تزيد أهمية، وتفوق قيمتها قيمة بعض مِمَّا سرقوه، وكذلك تعاملهم مع اللوحات المسروقة يؤكد هذا الاستنتاج، فبعد فحص أثار السرقة تبين أنَّهم قاموا بنزع اللوحات المثبتة على الحائط ثمَّ كسر الزجاج الأمامي لتلك اللوحات، وفصلها عن إطاراتها بقطعها البربري بواسطة آلة حادة، يقول محقق المباحث الفيدرالية الأمريكية (جيف كيلي): «هذين اللصين بربرين، قد يَصلُحا لسرقة سيارة، أو جهاز تليفزيون، فهما لا يعرفان ماذا يفعلان، وأنا أعتقد أنَّهما لمْ يدركا أثناء السرقة بأنَّهما يرتكبان أكبر عملية سطو تتم على متحف على مدار التاريخ».

توجهت الشكوك تجاه الحارس (ريك أباث) الذي كان يعمل عازفًا بأحد الفرق الموسيقية نهارًا، وحارس ليلي بالمتحف مساءً، ولكن لمْ يكنْ هناك أي دليل حقيقي ضده، وحتى الدليل الوحيد الذي توصلت إليه المباحث الفيدرالية لمْ تستطعْ استخدامه لإدانته بالاشتراك في عملية السرقة، وذلك عندما كشفت قراءة أحد أجهزة الاستشعار الحركي التي نفدت من عملية الإتلاف، عن عدم رصد أي حركة على أرض إحدى غرف المتحف، والمسماة بالغرفة الزرقاء خلال الإحدى وثمانون دقيقة، بالرغم من سرقة لوحة «تورتوني» للفرنسي (مانييه) من تلك الغرفة، وأن آخر حركة كانت قبل السرقة قام بها الحارس

(أباث) أثناء تجواله لتفقد أمن المتحف، مما يوجه بعض الشكوك تجاهه، وذلك لاحتمال عدم دقة الجهاز أو فشله في رصد حركة مرتكبا الجريمة.

في عام ٢٠٠٥ قدمت المخرجة [ريبيكا دريفوس - Rebecca Dreyfus] الفيلم الوثائقي: «المسروق – Stolen» الذي يستعرض في ٨٤ دقيقة تاريخ المتحف ومؤسسته (إيزابيلا ستيوارت جاردنر) وتفاصيل أحداث السرقة، وقد حاز الفيلم على عدة جوائز منها جائزة الجمهور لأحسن فيلم وثائقي في [مهرجان ساراسوتا السينمائي - Sarasota Film Festival] عام ٢٠٠٥.

بساطة وسهولة عملية السرقة، والعشوائية التي تمت بها لمْ تكنْ كافية للمباحث الفيدرالية، والمحققين في كشف اللصين، أو التوصل خلال العقود السابقة وحتى اليوم إلى أي قطعة من الثلاثة عشر قطعة التي تم الاستيلاء عليها، بالرغم من الإعلان عن جائزة قدرها مليون دولار لمن يقدم معلومات تساعد على استعادة أي من تلك الأعمال المسروقة، وتمَّ رفع قيمة الجائزة عام ١٩٩٧ إلى ٥ مليون دولار، ثمَّ تضاعفت عام ٢٠١٧ إلى ١٠ مليون دولار لمدة محدودة تنتهي بنهاية العام، إلَّا أنَّه تمَّ تمديد الجائزة حتى عام ٢٠١٨ لتصبح أعلى جائزة تقدم لتقديم معلومات في قضايا ملكية خاصة، وحتى اليوم ومن وقت لآخر ينتظر البعض أي أخبار مفاجئة قد تعيد الأعمال الفنية المسروقة للحياة، وتعيد مرة أخرى اللوحات التائهة إلى إطاراتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كراكيب الأخوين كوليَر

عند مرورك في [الشارع الخامس - Fifth Avenue] في [مانهاتن – نيويورك - Manhattan - New York]، وبالتحديد عند تقاطعه مع شارع ١٢٨ الغربي سوف تلاحظ على الناصية منتزه صغير جدًا لا تتعدى مساحته ١٤٠ متر مربع، عليه لافتة تحمل اسم [منتزه الأخوين كوليَر - Collyer Brothers Park]، قد لا تنتبه إلى الاسم، أو حتى إلى المنتزه، ولكن هذا الموقع يومًا ما قد شغل أذهان العديد في حي [هارلم – Harlem] الشهير في (نيويورك)، حيث كان يسكن [الأخوين كوليَر - The Collyer Brothers] منعزلين بإرادتهما داخل منزلهما بعيدًا عن أعين الناس، كان يجمع الأخوين أمر رئيسي ألا وهو هوس اقتناء الكتب، والأثاث، والأدوات الموسيقية وبأعداد ضخمة كل الأشياء التي يعتقدا بإمكانية الاحتياج لها يومَا ما، [هومر كوليَر - Homer Lusk Collyer] كان يكبر شقيقه [لانلي كوليَر - Langley Wakeman Collyer] بأربع سنوات، والدهما هو [هرمان كوليَر - Herman Livingston Collyer] طبيب نساء ميسور الحال، ولكنه غريب الأطوار بعض الشيئ، ووالدتهما هي [سوزي فروست - Susie Gage Frost] مغنية أوبرا سابقة، درس الشقيقين في [جامعة كولومبيا - Columbia University] حيث درس الأخ الأكبر القانون البحري، ودرس الشقيق الأصغر الهندسة، والكيمياء، عندما أصبح عُمر (هومر) ٢٨ عامًا انتقلت العائلة للسكن في حي (هارلم) الثري عام ١٩٠٩، حيث أستطاع الوالد في تلك الأثناء شراء مبني سكني كبير تم إنشاؤه وتزيين جدرانه بالطوب البني، انفصل الوالدين بعد مرور عشرة أعوام على إقامتهم في هذا المنزل، وفضّل الشقيقين غير المتزوجين والذين أصبح عمرهما ٣٨ عامًا و ٣٤ عامًا البقاء مع والدتهما في نفس المبنى، في حين رحل الوالد للعيش بمسكن آخر، ولم يمر على هذا الانفصال سوى أربعة سنوات حتى فارق الوالد الحياة، قام الشقيقان بإحضار كل متعلقات والدهما الشخصية والطبية من منزله المستقل إلى المبنى الذي يقيمان فيه مع والدتهما في (هارلم)، بلغ عُمر الأخ الأكبر ٤٨ عامًا عندما توفيت الأم عام ١٩٢٩، حيث قام الشقيقان بالاحتفاظ أيضًا بجميع متعلقات الأم داخل المنزل.

لمْ تستطعْ الشرطة أن تدخل بسهولة المبنى في ٢١ مارس ١٩٤٧ عندما استلمت إشارة من مجهول باحتمالية وجود جثة بداخل المنزل نتيجة الرائحة الكريهة الصادرة من الداخل، أطنان المخلفات من كتب وصحف ومعدات وأدوات وكراتين وآلات وأثاث وأشياء أخرى عديدة لا قيمة لها قامت الشرطة بإزاحتها ببطء وحرص، حتى تنجح في دخول المنزل، وفي النهاية لمْ تستطع الشرطة أن تصلْ لنتيجة حيث اصطدمت بجدران جديدة أخرى من المخلفات، ولمْ يفلحْ الأمر إلَّا عندما قام أحد رجال الشرطة مستخدمًا سلالم سيارة

الإطفاء باقتحام المبنى عن طريق النافذة بالطابق الثاني وكَسْرِها، حيث استمر لمدة ساعتين يتسلق المخلفات، والنفايات حتى استطاع في النهاية العثور على جثة الشقيق الأكبر (هومر) في القبو جالسًا على ركبتيه وسط أكوام من الكراكيب والصحف المكدسة إلى السقف، أكد الطبيب الشرعي هوية (هومر)، وأشار إلى أن الوفاة تعود إلى ١٠ ساعات سابقة نتيجة انخفاض حاد بالدورة الدموية الناتج عن الجوع.

نتيجة حالة الركود الاقتصادي الكبيرة والشهيرة: "Great Depression" التي أصابت الولايات المتحدة أواخر عام ١٩٢٩، واستمرت لمدة عشر سنوات، تغيرت التركيبة الاجتماعية لحي (هارلم) واختفت الطبقة العليا التي تسكن الحي، ونزح كثير من السود الأفارقة إلى الحي لكي يقيموا في المنازل المهجورة المجاورة، مِمَّا دفع الشقيقان لمزيد من العزلة، وتجنب مضايقات السكان الجدد محبي الاستطلاع، وهو ما أضاف مزيدًا من الغموض حول الشقيقين، وأحوالهما وكثرت الشائعات بين أفراد الحي الجدد عن ثروتهما المكدسة داخل المنزل، وتجمعت حشود من الناس حول المنزل من آن لآخر تحاول استطلاع ما بالداخل، وبدأ بعض المراهقين بقذف نوافذ المبنى بالحجارة وتكسيريها، مِمَّا ساعد على زيادة خوف الشقيقين وانعزالهما بصورة أكبر، ومع بدأ محاولات سرقتهما أحكم الشقيقين إغلاق منزلهما، واستخدم (لانلي) مهاراته الهندسية في نصب أفخُخ وشراك ومصائد قاتلة للمتلصصين والناهبين، ووضع تلك الفخاخ بعناية في أماكن مختلفة لتمنع أي شخص يحاول اقتحام المنزل عنوة.

أصيب (هومر) بالعمى عام ١٩٣٣ فتولى شقيقه الأصغر (لانلي) الاعتناء به وخدمته، كان المسؤول عن إطعامه، ومساعدته في تنظيف جسده أثناء الاستحمام، كان يقرأ له الأدبيات الكلاسيكية العالمية ويعزف له مقطوعات على البيانو، كان (لانلي) يُطعم (هومر) حمية خاصة تتكون من البرتقال والعيش الأسمر وزبدة الفول السوداني مقتنعًا أن بصر (هومر) سيرتد إليه إذا واظب على تلقي فيتامين سي، فكان يطعمه ما يعادل ١٠٠ برتقالة أسبوعيًّا، قام (لانلي) على مدار أعوام بتكديس أعداد هائلة من الصحف القديمة لكي يقوم (هومر) بقراءتها عندما يرتد إليه بصره، ولكن حالة (هومر) تأخرت أكثر وبعد فترة أصيب بالشلل نتيجة مضاعفات مرض الروماتيزم، رفض الشقيقان فكرة استدعاء أي طبيب لعدم ثقتهما في أي منهم، مكتفين بمعلومات طبية يستقونها من ١٥ ألف كتاب طبي ورثهما من والدهما الطبيب، ازدادت حدة الانعزال وتجنب الغرباء بشكل كبير لدى (لانلي)، وأصبح يخرج في أواخر الليل متسللًا من أجل الحصول على الطعام ولشراء الخبز من الأحياء القريبة، ولا يفوته أثناء ذلك أن يجمع بعض مخلفات محلات البقالة والخضروات التي يرى أنَّها ما زالت تصلح للأكل، بالإضافة إلى أي مخلفات أخرى عديمة القيمة قد

يرى فيها فائدة، ولمزيدًا من الانطوائية وبعدما تمَّ قطع الخدمة عن هاتفهما عام ١٩٣٧، لمْ يحاولا إعادة الخدمة أبدًا بعد ذلك، فليس هناك مَن يُريدا أن يتحدثا له، وبعدها تمَّ قطع خدمات الكهرباء والغاز والمياه عنهما نتيجة عدم سداد المستحقات، أصبح (لانلي) يستخدم موقد كيروسين للإضاءة، كما حاول توليد الكهرباء للتدفئة في ليالي الشتاء الباردة من موتور سيارة (فورد) قديمة قابعة بالأسفل، أمَّا بالنسبة للمياه فكان يتسلل ليلًا أيضًا ليحضر المياه من أحد الحدائق القريبة، كانت شهادات السكان القليلة عن (لانلي) من خلال مشاهدتهم القليلة له، أنَّه رجل مهذب هادئ خفيض الصوت يُحسن الحديث، ولكنَّه رغم ذلك شخص منطو، وغريب الأطوار، أشعث الشعر، وغير مهندم.

يصف العلم الاكتناز القهري، أو التكديس القهري «Hoarding Disorder» بأنه سلوك مَرضي نفسي ناتج عن الإفراط في تكديس وتجميع المقتنيات غير الضرورية بحرص واهتمام كبير، والصعوبة التي تحيط بصاحب الشأن في اتخاذ قرار بشأن التخلص منها، وذلك نتيجة الوساوس القهرية التي تدفع المصاب بالشعور بأنه سيحتاج بشدة استخدام هذه الأشياء في وقت لاحق، مِمَّا ينتج عن ذلك انتشار الفوضى في كافة أرجاء منزل المصاب بهذا الاضطراب، لدرجة أن بعض الأماكن تصبح غير صالحة لإنجاز المهام الأساسية التي وُجدت لأجلها، كالمطبخ لطهي الطعام أو دورة المياه للاستحمام، أو الطاولة لتناول الطعام أو الأسِرّة للنوم، حيث تمتلئ الغرف والممرات والأثاث وأي بقعة خالية بكميات كبيرة من المخلفات والمقتنيات غير الضرورية، ومن أشهر من أصيبوا بهذا المرض وسجلهم التاريخ، الألماني الأصل [ادموند تريبوس - Edmund Trebus] الذي لمْ يكتفي باقتناء ما تقع عليه يداه بل كان يسير بعربة يد يجمع فيها المخلفات والمقتنيات ليعود ويصفها في أكوام المنزل، والحديقة التابعة له في شمال لندن، وضاق عليه منزله بما رحب فكان ينام في منطقة ضيقة على أرضية الطابق الأرضي مُحاطًا بتلك الأكوام من المخلفات، التي لمْ يحاول أن يتخلص من أي منها، وبعد عدة شكاوى من الجيران بشأن قذارة المنزل التي تسببت في انتشار الجرذان، حصل مجلس الحي على أمر من المحكمة بإزالة المخلفات، رفض (تريبوس) الإزالة مصرًا على أن له الحق كمواطن بريطاني في الاحتفاظ بما يريد، والعيش وسط القذارة، رافضًا الاعتراف بصفوف الفئران الناتجة عن أسلوب معيشته، وأصبحت تشكل خطرًا جسيمًا على الصحة العامة، ومذكرًا بعدم وجود أي مجلس محلي له الحق في إزالة الملكية الخاصة، ولكن في النهاية نجحت البلدية في تنظيف المنزل حيث تمَّ إزالة ما يعادل أربعمائة متر مكعب من المخلفات والمقتنيات من حديقة منزله، واستغرق ستة من العاملين مدة شهر كامل للإزالة، بواسطة خمسة حافلات كبرى وبتكلفة بلغت ثلاثون ألف جنيه إسترليني، ونتيجة تعرض منزله للتصدعات تمَّ إقناعه في

عامه الأخير قبل وفاته، حيث بلغ عمره ٨٣ عامًا بالانتقال إلى إحدى دور الرعاية حيث اضطر إلى قضاء آخر عام في حياته في مكان نظيف، من الذين أصيبوا أيضًا بمرض: «الاكتناز القهري - Compulsive hoarding» الأمريكي [ألكسندر ميلر - Alexander Miller] الذي كان يجمع السيارات القديمة، وقطع الغيار بالإضافة إلى أجزاء الطائرات الصغيرة في أكشاك خربة بحديقة منزله.

عقب اكتشاف جثة (هومر) وغياب شقيقه، تولدت شكوك لدى الشرطة بأن (لانلي) هو المجهول الذي اتصل بالشرطة وقام بالإبلاغ عن الوفاة بعدما اختفى عن الأنظار، وبشكل يتفق مع غرابة أطواره، تركت الشرطة سيارة تقبع بجانب المبنى أملًا في عودة (لانلي) للمنزل في أي وقت ولكن دون جدوى، بدأت إشاعات تتردد في الحي بأن (لانلي) شوهد في حافلة متجهة إلى مدينة [أتلانتا – Atlanta]، وأنباء أخرى عن مشاهدات متفرقة تخص (لانلي) جعلت الشرطة تبحث عنه في ولايات أخرى بلغت تسع ولايات، مرت أيام عدة على وفاة (هومر)، ولم يظهر (لانلي) ولم يحضر حتى جنازة شقيقه التي أقيمت في أوائل شهر أبريل، بدأت الشرطة تعود مرة أخرى للمنزل، وتقوم بالتنسيق مع البلدية لإزالة المخلفات من الطابق الأرضي الذي احتوى على ثلاث آلاف كتاب، ونسخ قديمة من دليل التليفونات، وأشياء غريبة مثل بيانو من نوع [ستاينواي – Steinway] وعظام فك حصان، وجهاز أشعة إكس قديم، وأكوام من الصحف، وأكثر من ١٨ طن من المخلفات التي تمت إزالتها من الطابق الأرضي، كما أستغرق الأمر أسبوعًا آخر لكي تنجح الشرطة في إزالة ٤٨ طن آخر جديد من المخلفات، حتى استطاعت خَلْق ممرات داخل المنزل، وسط تجمهر أكثر من ألفي شخص خارج المبنى حضروا لمشاهدة عملية التنظيف والإخلاء.

وبعد مرور ١٩ يوما من وفاة (هومر) وتحديدًا يوم ٨ أبريل نجحت الشرطة في العثور على جثة الشقيق الأصغر (لانلي)، حيث وُجدت بالطابق الثاني على مسافة ١٠ أقدام من المكان الذي توفي فيه شقيقه (هومر)، كانت جثة (لانلي) تقبع في قناة أرضيه عرضها ٦٠ سم أنشأها (لانلي) مسبقًا كشِرك وفخ لاصطياد الغرباء المتطفلين، كانت تلك القناة متصلة بزنبرك سرير صدأ، وخزانة حديدية ذات أرفف، كانت جثة (لانلي) في الحقيقة هي مصدر تلك الرائحة الكريهة التي دفعت الشخص المجهول للاتصال بالشرطة، وليست جثة شقيقه (هومر) حديثة الوفاة، كانت الجثة شبه متحللة، وتتغذى عليها الفئران والديدان وتقبع تحت حقيبة ملابس كبيرة قديمة، وبعض الربطات من الصحف وثلاثة صناديق معدنية تستخدم لحفظ الخبز، الطب الشرعي حدد أن الوفاة حدثت منذ شهر، وتحديدًا يوم ٩ مارس أي قبل ١٢ يومًا من وفاة شقيقه (هومر)، والسيناريو الأقرب الذي استقرت عليه الشرطة، هو أن (لانلي) في تلك الليلة كان يزحف داخل القناة ليحضر طعام لشقيقه (هومر)

المصاب بالشلل، حتى تعثر بشكل غير مقصود في المصيدة التي قام بصنعها بإحكام مسبقًا، فوقع في الشرك وسحقه الحُطام الذي سقط عليه حتى مات مخنوقًا، في حين لمْ يستطع شقيقه الضرير والمصاب بالشلل أن يتحرك من مكانه، وظل قابعًا فيه ٩ أيام لا يملك من أمره شيئًا ولا يستطيع أن يفعل شيئًا حتى مات جوعًا!!

في ١١ أبريل ١٩٤٧ تمَّ دفن جثة (لانلي)، وقامت الشرطة، ورجال الإخلاء بإجلاء ما يعادل ١٤٠ طن من المخلفات من مبنى الأخوين (كوليَر)، تنوعت المخلفات ما بين دراجات صدأة، وعربات أطفال قديمة محطمة، وثُريّات زجاجية، وكُرَات بولينج، ومُعدات خاصة بالكاميرات، وما يقارب من ٢٥ ألف كتاب ما بين طبي وهندسي، وقرابة ٢٥٠٠ كتاب في القانون، وشاسيه سيارة قديمة، وساعات حائط خَرِبَة، وعدد ١٤ بيانو، وجهاز جرامافون، وأسطوانات موسيقية، ومئات الأمتار من الأقمشة المستعملة، وعدد لا يحصى من حزم الصحف والمجلات، وآلاف من الزجاجات وعلب الصفيح، بعض مقتنيات الأخوين الغريبة والقَيِّمة معروضة الآن في [متحف وسيرك هوبرت - Hubert’s Dime Museum] بشارع ٤٢ الغربي – نيويورك، وتعتبر القطعة الأهم هو الكرسي الذي توفي عليه (هومر كوليَر)، في يوليو ١٩٤٧ ونتيجة سوء حالة مبنى الأخوين (كوليَر)، وخطورته على السلامة العامة، قامت بلدية نيويورك بهدمه، وفي ستينات القرن الماضي قامت البلدية بإقامة منتزهًا يحمل اسم الأخوين والذي يمكن أن تراه عند مرورك بهذا المكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لآلئ قبل الإفطار

إنَّه صباح يوم جديد... الجمعة ١٢ يناير ٢٠٠٧، وقد حانت ساعة الذروة الصباحية، حيث يهرول الجميع للوصول لمحال أعمالهم في العاصمة الأمريكية واشنطن، أمَّا هو فقد كانت وجهته محطة مترو [لونفون بلازا - L'Enfant Plaza] المطلة على [طريق ماريلاند - Maryland Ave SW] الجنوبي الغربي مرتديًا الجينز، وقميص طويل الأكمام، وقبعة تحمل شعار فريق البيسبول [واشنطن ناشيونالز - Washington Nationals]، انطلق إلى داخل المحطة ذات الطابقين، واستند إلى أحد الجدران بالقرب من المدخل الرئيسي بجوار السلالم الكهربائية الخاصة بالصعود، والنزول بمسافة قريبة من سلة المهملات، أخرج من حقيبته آلة الكمان، وطبق صغير وضع فيه بعض العملات المعدنية الصغيرة، تمامًا مثلما يفعل أولئك الذين يقدمون بعض الفقرات الفنية القصيرة في الشوارع الرئيسية، أو عربات المترو، أو محطات القطارات للعابرين، أو المسافرين مقابل بعض السنتات بدلًا من التسول المباشر، في تمام الساعة ٧:٥١ صباحًا بدأ في العزف على الكمان للمشاة داخل محطة المترو ولمدة ستستمر ٤٣ دقيقة تالية.

تُعتبر [جوائز جرامي - Grammy Awards] السنوية التي تقدمها [الأكاديمية الوطنية لتسجيل الفنون والعلوم - The National Academy of Recording Arts & Sciences] أحد أهم الجوائز الموسيقية السنوية العالمية في مجال الإبداع الموسيقي، حصل [جوشوا بيل - Joshua Bell] الذي يُصنّف كواحد من أمهر عازفي آلة الكمان على الإطلاق في عالمنا المعاصر ثلاث مرات على جائزة (جرامي)، كانت المرة الأولى عام ٢٠٠١ عن أفضل أداء عازف منفرد (مع الأوركسترا) عن ألبوم [كونشيرتو الكمان - Violin Concerto]، والثانية في العام التالي ٢٠٠٢ عن أفضل ألبوم كلاسيكي حديث وهو ألبوم [الحركة الدائبة - Perpetual Motion] الذي يحتوي على ٢٠ قطعة موسيقية قصيرة، ويُعد هذا الألبوم غير تقليدي حيث لمْ تُعزف أي قطعة موسيقية على الآلة التي من المفترض أنَّها كُتبت من أجلها، في نفس العام ٢٠٠٢ حصل أيضًا على جائزة أفضل هندسة صوتية لألبوم كلاسيكي بالمشاركة مع مهندس الصوت [ريتشارد كينج -Richard King] عن ألبوم [برنستاين: باقة قصة الحي الغربي - Bernstein: West Side Story Suite]، كما رُشح عام ٢٠١٩ لجائزة أفضل عازف منفرد عن ألبوم [ماكس بروخ: الخيال الاسكتلندي - Bruch: Scottish Fantasy]، يعتبر (بيل) العازف الموسيقي الأكثر مبيعًا في العالم، حيث بلغ عدد ألبوماته ٤٩ ألبوم موسيقى كلاسيكية حتى عام ٢٠١٩، وذلك منذ صدور أول ألبوماته عام ١٩٨٨ عندما كان عمره في ذات الوقت ٢١ عامًا، واحتلت ٧ ألبومات منهم صدارة تصنيف [بيلبورد – Billboard] للأعمال

الكلاسيكية، وتعتبر قوائم (بيلبورد) هي المرجع الرئيسي للتصنيف الغنائي ومدى شعبيته بشكل اسبوعي في الولايات المتحدة، والذي يعتمد على عوامل مختلفة منها حجم البث والمبيعات

وضع (بيل) الموسيقى التصويرية لعدد من الأفلام منها فيلم [ملائكة وشياطين - Angels & Demons] عن رواية [دان براون - Dan Brown]، وكذلك كان لاعب الكمان في الموسيقى التصويرية لفيلم الأوسكار [الكمان الأحمر - The Red Violin] بطولة [صامويل ل. جاكسون - Samuel L. Jackson]، بدأ (بيل) العزف لأول مرة أمام الجمهور عندما كان عمره آنذاك ١٧ عامًا، وذلك في [قاعة كارنيجي - Carnegie Hall] التي تقع وسط ضاحية [مانهاتن - Manhattan] بمدينة [نيويورك - New York]، يمتلك (بيل) واحدة من أغلى آلات الكمان في العالم، ويصل عمرها لأكثر من ٣٠٠ عاما من نوع [ستراديفاريوس – Stradivarius] وتتعدى قيمتها مليوني دولار أمريكي.

[جين واينجارتن - Gene Weingarten] هو كاتب صحفي ساخر بجريدة [الواشنطن بوست - The Washington Post] منذ منذ عام ١٩٩١، وصاحب مقال أسبوعي، له ٥ مؤلفات، وكَتَب ثلاثة سيناريوهات سينمائية، يعتبر (واينجارتن) الصحفي الوحيد الحائز مرتين على [جائزة بوليتزر - Pulitzer Prize]، أحد أهم الجوائز العالمية في الصحافة، وذلك عن فئة الكتابة المتميزة، إحداهما عام ٢٠١٠ عن تحقيقه الصحفي الذي نُشر في ٨ مارس ٢٠٠٩ في جريدة (الواشنطن بوست) بعنوان [الإلهاء القاتل - Fatal Distraction] عن واقعة وفاة طفل عمره ٢١ شهرا تركه سهوًا والده بالتبني وحيدًا في المقعد الخلفي للسيارة، والجائزة الأخرى كانت قبل ذلك بعامين عام ٢٠٠٨، عن التحقيق الصحفي [لآلئ قبل الإفطار - Pearls Before Breakfast] الذي نُشر في الجريدة في ٨ أبريل ٢٠٠٧.

تتمركز محطة (لونفون بلازا) في واشنطن الفيدرالية حيث معظم المستخدمين لها من ذوو الوظائف المتوسطة، ومشهد عازفي وفناني الشوارع ومحطات الأنفاق فرادى، أو مجموعات يُعتبر مألوفًا، ومتكرر لكل مستخدمي وسائل النقل، تسائل (واينجارتن) في تحقيقه عن رؤية الركاب لهؤلاء العازفين وما حقيقة تصرفهم حيالهم، هل هذا العابر يقف ويستمع؟ هل يتجاهل وينصرف؟ هل يقذف عملة، أو بعض العملات تصدقًا كنوع من الأدب والعطف دون اهتمام بجودة ما يُقدّم؟ هل يود التوقف والاستمتاع ولكنه ينزعج من حرج عدم دفع بعض السنتات، رغم أنَّها غير إلزامية؟ هل يتغير قراره إذا كان الأداء سيئًا؟ وماذا إذا كان الأداء جيدا؟ هل يوفر بعضًا من وقته للاستمتاع بالجمال؟ كل تلك الأسئلة أراد (واينجارتن) أن يجد لها إجابة.

داخل جنبات محطة المترو وخلال ٤٣ دقيقة تمَّ عزف ٦ مقطوعات موسيقية كاملة على آلة الكمان، ولمْ يكنْ هذا العازف المجهول في حقيقة الأمر سوى (جوشوا بيل) أفضل عازف كمان بالعالم، خلال تلك الفترة وصل عدد العابرين إجمالًا إلى ١٠٩٧ شخص، وظل التساؤل عن كيفية استقبال عازف الكمان وكيفية الاحتفاء به حتى لمن لم يدركوا هويته وكيف يتفاعل العابرون مع الفن الراقي والمتميز الذي يصل لأسماعهم، مرت التجربة وعرف (واينجارتن) النتيجة، ثمَّ توجه بالسؤال إلى قائد الأوركسترا، والعازف، والمؤلف الموسيقي [ليونارد سلاتكين - Leonard Slatkin] مدير [الأوركسترا السيمفونية الوطنية - National Symphony Orchestra]، دون أن يخبره بحقيقة الأمر، عن توقعه عمَّا ستكون عليه النتيجة إذا تخفى عازف كمان عالمي شهير في زي فناني الشوارع وقام بالعزف لقرابة ١٠٠٠ شخص عابر، يقول (سلاتكين): - «دعنا نفترض جدلًا بأنَّه شخص لمْ يتمْ التعرف عليه، وبالنسبة للحاضرين لا يتعدى كونه أحد فناني الشوارع، ومع ذلك لا أظن أنَّه إذا كان جيدًا حقًا فسوف يمر هذا العدد من الأشخاص به دون أن ينتبه له أحد، أعتقد أنَّه من وسط ألف شخص سوف يدرك، ويتعرف عليه ما بين ٣٥ إلى ٤٠ شخص بسبب الجودة العالية التي يقدمها العازف، وربما سيتوقف ما بين ٧٥ إلى مائة شخص لبعض الوقت يستمتعون بالأداء».

- واينجارتن: «إذا... سيتجمع حشد؟»
- سلاتكين: «نعم بالتأكيد.»
- واينجارتن: «وكم سيجمع من المال؟»
- سلاتكين: «حوالي ١٥٠ دولارًا.»
- واينجارتن: «شكرًا يا مايسترو... وعمومًا هذه ليست واقعة افتراضية، لقد وقعت بالفعل؟»
- سلاتكين: «أحقيقي ما تقول؟»
- واينجارتن:» نعم، وسنخبرك بعد قليل.»
- سلاتكين: «ومن كان هذا العازف رفيع المستوى؟»
- واينجارتن: "جوشوا بيل».
- سلاتكين: «لا... لا... لا يمكن».

قبل ثلاثة أيام من هذه الواقعة، كانت [قاعة بوسطن السيمفونية - Boston Symphony Hall] الفخمة والتي شُيّدت عام ١٩٠٠، تعج بأكثر من ٢٦٠٠ متفرج حضروا لمشاهدة عرض (جوشوا بيل) – ٣٩ عامًا، وقد بلغت قيمة

تذكرة المقاعد الرئيسية إلى ١٠٠ دولار للمقعد الواحد، وبعد أسبوعين من الواقعة كان (بيل) يقدم عرضًا آخر في المركز الموسيقي في قاعة [ستراثمور – Strathmore] في ولاية [ماريلاند – Maryland]، أمَّا اليوم الجمعة فهو الفنان المتسول في محطة مترو أنفاق (نيويورك)، كانت محطة المترو تبعد عن الفندق الذي يقيم به (بيل) ثلاثة بنايات، ورغم ذلك فَضَّل أن ينتقل للمحطة بواسطة تاكسي، ليس كسلًا أو عجزًا، ولكن لأنَّه يحمل في حقيبته آلة الكمان المفضلة لديه، والتي يتعدى سعرها ٢ مليون دولار ويحبذ أن تكون مصاحبة له في عرض مترو الأنفاق، بدأ (بيل) العزف بمقطوعة [الشاكون – Chaconne] التي ألفها الموسيقار الألماني [يوهان سبستيان باخ - Johann Sebastian Bach] عام ١٧٢٠ على مقام [دي الصغير – D Minor] للكمان المنفرد، لا يعتبر (جوشوا بيل) هذه المقطوعة واحدة من أعظم قطع الموسيقى التي تمَّ كتابتها على الإطلاق فقط، بل إنَّها أيضًا واحدة من أعظم إنجازات الموسيقى على مدار التاريخ، كان الصوت الصادر من كمان (بيل) يبدو سيمفونيًّا، وكان يصل لجميع أرجاء المترو، مع تمايل (بيل) أثناء العزف، واندماجه الكامل مثلما يحدث له تمامًا على المسرح.

مرت ثلاث دقائق كاملة على عزف (بيل) وقد وصل عدد المارين خلال تلك الفترة إلى ٣٦ شخص لم يُحرك أي منهم ساكنًا تجاه هذا العازف، وأخيرًا عدل رجلًا في منتصف العمر من مشيته لثانية واحدة التفت فيها لمصدر صوت الموسيقى ثمَّ عاد للسير، على الأقل انتبه شخص أخيرًا للعازف، بعد ذلك بنصف دقيقة تلقى (بيل) أول تشجيع، وتبرع له، حيث ألقت سيدة له بدولار ثمَّ استكملت طريقها، ولمْ يحدث شيء يختلف عمَّا سبق حتى الدقيقة السادسة، عندما توقف شخص ثمَّ استند على الحائط مستمعًا له، لم تتحسن الأحوال كثيرًا أثناء الثلاثة أرباع الساعة التي قضاها (بيل) يعزف، ٧ أشخاص فقط طوال مدة عزفه توقفوا عمَّا كانوا يفعلونه وتحركوا حول (بيل) يمينًا، أو يسارًا يتابعون عزفه لمدد لا تقل عن دقيقة، ٢٧ شخصًا قدموا أموالًا أغلبهم كان على سرعة ودون اهتمام، حصيلة ما تمَّ جمعه طوال مدة عزفه كان ٣٢ دولارًا، وبعض السنتات.

- «لا يا سيد (سلاتكين)، لمْ يكنْ هناك حشد من الناس، ولو لدقيقة واحدة».

هذا ما كتبه (واينجارتن) في تحقيقه المطول بجريدة (واشنطن بوست) صباح يوم ٨ أبريل ٢٠٠٧ تحت عنوان: «لآلئ قبل الإفطار» عن تلك التجربة التي تمَّ تصويرها كاملة بكاميرا فيديو خفية، ورصد في تحقيقه تفاصيل الواقعة، يحدثنا (بيل) عن شعوره تجاه رد فعل الناس قبل أن يضحك ساخرًا: - «لقد كان شعور غريب... هؤلاء الناس بالفعل... بالفعل.. الخ».

كانت تخرج منه بصعوبة: - «تجاهلوني».

«في دار الأوبرا... أشعر بضيق شديد عن سعال أحد من الحضور، أو عند سماع دقة هاتف خليوي، ولكن هنا تضاءلت توقعاتي كثيرًا، وبدأت أقدر أي تشجيع أو تقدير حتى ولو نظرة سريعة، شعرت بالامتنان الشديد عندما ألقى أحدهم دولارًا، وليس بعض السنتات».

هكذا كان يرى الأمر شخص يستطيع أن يجني بسهولة ١٠٠٠ دولار في الدقيقة الواحدة، حيث لا يدري (بيل) سبب شعوره بالتوتر في تجربة مترو أنفاق واشنطن بالرغم قيامه بالعزف مرارًا، وتكرارًا أمام أعظم الشخصيات، والقادة الأوروبيين دون أن يشعر بأي توتر، يستطرد بيل، ويقول: «عندما تعزف لحاملي التذاكر، فهذا يعني أنَّك قد قُبلت بالفعل، وقد دفعوا لك لأنَّهم قد أدركوا موهبتك، الوضع هنا مختلف عليك أن تثبت لهم جدارتك أولًا ووقتها قد يدفعون لك، باختصار الفن هنا كان بدون إطار».

يقول الفيلسوف الألماني [إيمانيوال كانت - Immanuel Kant] عن الجمال: «لكي يتم تقدير الجمال بشكل صحيح، يجب أن تكون ظروف المشاهدة مثالية».

لقد فقد الكثيرين في ذلك اليوم استشعار الجمال الفني، مثلما يفقده الملايين حول العالم كل يوم نتيجة عدم انتباههم له، أو بسبب أن الظروف لمْ تكنْ مواتية لاستشعار هذا الجمال، ولكي ندرك حقيقة ما حدث، يجب أن نعود إلى شريط الفيديو منذ اللحظة الأولى التي قرع فيها (بيل) أوتار كمانه، ونعيد تشغيله مرة أخرى بل ومرات، سوف نكتشف [جون دافيد مورتنسن - John David Mortensen] رجل أبيض في أوائل الثلاثينات يرتدي الكاكي، وجاكيت جلد وحقيبة جلدية وصل إلى المحطة الأخيرة ومنها يبدأ تبديل رحلته، ويحتاج لدقيقة و١٥ ثانية ليصل إلى المصعد، لذلك فقد حصل على وقت كاف نسبيًا لسماع ما يعزفه (بيل)، ويستدرك أن ما يتم عزفه بالفعل رائع، ويستحق الاهتمام، بعدما وصل إلى نهاية السلم الصاعد المتحرك، توقف ثمَّ عاد مرة أخرى متخذًا سلم النزول، ألقى نظرة عامة على المكان محددًا مصدر العزف، يتفحص الساعة في هاتفه، وهو يدور بجوار العازف، يجد أن الوقت مبكرًا قليلًا، ويسمح له بثلاث دقائق، يأخذ قراره ثمَّ يستقر مستندًا على أحد الجدران يتابع العزف، (مورتنسن) لا يعرف الموسيقى الكلاسيكية على الإطلاق، (الروك أند رول) الكلاسيكي هو أقصى ما يستطيع سماعه ويطرب له، ولكنه شعر بـأن هناك شيء ما حول ما يسمعه الآن مختلف ومُحبب، حتى وصل عزف (بيل) إلى القسم الثاني من (الشاكون) ل (باخ)، وفيه تنفتح النغمات بوضوح، وينتقل المفتاح الموسيقي من الصغير الداكن إلى المفتاح الكبير والرئيسي، ويبدأ قوس عازف الكمان في التمايل والرقص على أوتاره لتصبح الموسيقى مرحة ومتفائلة، (مورتنسن) لا يعرف شيئًا عن المفاتيح

الرئيسية أو الثانوية، ولكنه لاحقًا يقول: «مهما كان الوضع... فقد جعلتني هذه الموسيقى أشعر بالسلام»، لم يقف (مورتنسن) من قبل ليستمع لأي عرض يقدمه فنانو الشوارع، ولكنه لا يدري لماذا أخذته الموسيقى، والعزف بهذا الشكل، لا يعرف تمامًا ماذا حدث في تلك الأثناء، ولكنه كان استشعارًا خاصًا مختلفًا، لذلك لمْ يبخل في النهاية بإعطاء مال للعازف الموسيقي.

نشرت جريدة (واشنطن بوست) تحقيق (واينجارتن) يوم الأحد ٨ أبريل ٢٠٠٧ في صفحتها التاسعة، وبعد ثلاثة أيام في يوم ١١ أبريل نشرت الصحيفة على حسابها على منصة مشاركة التسجيلات المرئية [اليوتيوب – YouTube] مقطعًا مدته دقيقتين و٣٦ ثانية يلخص أهم أحداث المشهد، معلقة على الفيديو: «هل سيستطيع أحد أن يلاحظ عزف أحد أمهر عازفي الكمان في هذه الأمة، داخل إحدى محطات مترو واشنطن العاصمة، وقت الذروة؟».

يرصد (بيل) عند مشاهدته الفيديو كاملًا الستة لحظات المؤثرة، أو كما أطلق عليها «الأوقات المحرجة»، هي نفسها تحدث كل مرة عقب أن ينتهي من عزف واحدة من المقطوعات الستة التي قام بأدائها، نفس رد الفعل، لا شيء، تنتهي المقطوعة وتقف الموسيقى ولا شيء يحدث، نفس الأشخاص الذين لمْ يلاحظوا وجوده هم نفس الأشخاص الذين لمْ ينتبهوا لتوقفه، فلا تصفيق، ولا تقدير، ولا أي نوع من التشجيع، ولكن لا مفر، عليه أن يُكمل التجربة، ينتهي من مقطوعة ليبدأ في الأخرى، بعد مقطوعة (باخ) قدم (بيل) مقطوعة [السلام عليك يا مريم – Ave Maria] التي تعتبر واحدة من أهم مقطوعات الموسيقار النمساوي [فرانز شوبرت - Franz Schubert]، وأكثرهم شيوعًا، تنتهي المقطوعة الثانية دون أي تأثير يذكر، لتكون الثالثة موسيقى أغنية (استريليتا - Estrellita) أو (النجمة الصغيرة) أحد أهم أعمال الموسيقار المكسيكي [مانويل بونس - Manuel Ponce] التي ألفها عام ١٩١٢، ثمَّ أتبعها بمقطوعة للمؤلف الموسيقي الفرنسي الشهير [جول ماسينيه - Jules Massenet]، ثمَّ أتبعها بموسيقى رقصة [الجافوت – Gavotte] تلك الموسيقى المبهجة والمرحة والراقصة للموسيقار (باخ)، لمْ يكنْ هناك نمط عرقي، أو ديموغرافي للتمييز بين الناس الذين ظلوا يشاهدون (بيل)، أو الذين قدموا المال، فقد تمَّ تمثيل البيض والسود والآسيويين، صغارًا وكبارًا، رجالًا ونساءً، كلهم كانوا سواء، ولكن سلوك ديموجرافي واحد بقي ثابتًا تمامًا، ولم يتغير وهو الطفل، في كل مرة يمر فيها طفل ما، كان يحاول أن يتوقف ويراقب وفي كل مرة يقوم أحد الوالدين بجذبه سريعًا للمغادرة.

عندما بدأ (بيل) في مقطوعته السادسة والأخيرة معيدًا فيها (شاكون – باخ) مرة أخرى الذي كان قد ابتدأ بها، ظهر بطلنا هذه المرة على الساحة إنَّه

[جون بيكاريلو - John Picarello] رجل ضئيل الحجم، وأصلع الرأس، كان في أعلى المصعد حيث وقف ثابتًا عند سماع الموسيقى، ثمَّ تلفت ليعرف مصدرها، ثمَّ تراجع حتى نهاية الممر ليجد لنفسه مكانًا متميزًا لن يتزحزح منه خلال التسع دقائق القادمة والأخيرة، استعرض (واينجارتن) في تحقيقه ردود فعل الكثيرين ممن مروا من أمام (بيل)، ومدى انتباههم، وكان من بينهم (جون بيكاريلو) الذي تمَّ إيقافه بعد نهاية العرض وحال خروجه من محطة المترو، وطلبوا رقم هاتفه لإجراء حوار صحفي حول حركة المترو، عندما تمَّ التواصل معه لاحقًا بذات اليوم مثلما حدث مع الآخرين، كان أول سؤال وُجّه إليه عن ما إذا كان قد لاحظ أي أمر غير اعتيادي عند ارتياده المترو هذا الصباح، تم توجيه السؤال ذاته ل ٤٠ شخص من الذين تصادف عبورهم أثناء العرض، حيث تمَّ التواصل معهم خلال ذات اليوم، كان (بيكاريلو) الوحيد الذي سارع مجيبًا: - «نعم... إنَّه عازف الكمان».

- «كان هناك عازف كمان يعزف في محطة «لونفون بلازا».

- «هل شاهدته من قبل؟».

- «لا... ليس مثل هذا».

- «ماذا تعني؟».

- «هذا كان عازفًا رائعًا وفخمًا، لمْ أسمع من قبل عزفًا من أحد بهذه المهارة، لقد كان ماهرًا فنيًّا بدرجة كبيرة، صياغته ممتازة، ولديه آلة كمان فخمة أيضًا لها صوت عالٍ وخصب، لدرجة أنِّي أخذت مسافة جيدة بيني وبينه، وكذلك حتى لا أخترق مساحته الخاصة».

- «حقيقي؟»

- «نعم حقيقي... لقد كانت تجربة جديدة، وطريقة رائعة لبدأ اليوم».

يعرف (بيكاريلو) الموسيقى الكلاسيكية جيدًا، وهو من المعجبين بأداء (جوشوا بيل)، ولكنَّه لم يتوقع أن يكون هو عازف المترو، لا يعرف ملامحه تحديدًا فلمْ يرى صورة حديثة له منذ فترة طويلة، كما أنَّه كان بعيدًا عنه بمسافة طويلة نسبيًّا، ولكنَّه كان يدرك أن هذا العازف ليس شخصًا عاديًّا، أو تقليديًّا مثل أولئك التي تزخم بهم محطات مترو الأنفاق، في الفيديو تستطيع أن ترى (بيكاريلو) بوضوح وهو يتلفت مُتحيرًا كلما أبدع (بيل) في عزفه، فلا يجد حشدًا، ولا أحد يصور، ولا أحد ينتبه للعزف الفخم بشكل غريب، لقد درس (بيكاريلو) الكمان بشكل جدي وهو صغيرًا، وكان يأمل أن يكون عازفًا بفرقة يومًا ما، ولكنَّه تخلى عن هذا الحلم عندما بلغ الثامنة عشر عامًا، حيث أدرك صعوبة أن يكون عازفًا ماهرًا وأن يحترف هذه المهنة، لقد أصبح يعمل حاليًا

في وظيفة مشرف في مكتب البريد الأمريكي، ولم يعد يعزف الكمان، يخبرنا (بيكاريلو) بأنَّه عندما انتهى عازف الكمان من الأداء، كان محرجًا، وهو يضع خمسة دولارات بقشيش له، يقول (بيكاريلو): «لو شاهدت الفيديو للاحظت أنِّي أضعها له كما، وأنني أتأسف له»، لقد وضع الدولارات الخمسة، وبالكاد ألقى نظرة عليه ثمَّ انطلق سريعًا بعيدًا عن الشخص الذي كان يحلم يومًا أن يكون في مكانته.

يعتبر (بيل) أن الدقائق الأخيرة التي عزفها عندما كان يعيد عزف (الشاكون) للمرة الثانية هي ذروة اندماجه وتألقه، وكانت أيضًا المرة الأولى التي ينتبه له أكثر من شخص، فبعدما وقف (بيكاريلو) بعيدًا نسبيًّا، جاءت [جانيس أولو - Janice Olu] لتأخذ موضعها على بعد أقدام من (بيل)، كانت (أولو) تعزف الكمان وهي طفلة، لمْ تكنْ تعرف اسم القطعة الموسيقية التي يقوم بعزفها عازف المترو، ولكنَّها كانت تدرك جيدًا أنَّه هدية من السماء، كانت (أولو) على عجل، وقد قررت الرحيل قبل أن تهمس في أذن أحد الغرباء بجانبها: «أنا حقيقة لا أريد أن أرحل»، ولمْ يكنْ هذا الغريب الذي بجانبها إلا أحد مراسلي (واشنطن بوست) الذي يراقب الأمر.

عندما كانت تعد جريدة (واشنطن بوست) لهذا الأمر منذ البداية، كان السيناريو المزعج لديها لتنفيذ هذا الأمر هو الخوف من الحشود التي ستندفع للاستماع للعازف (جوشوا بيل)، مِمَّا سيسبب بالتأكيد مشكلة داخل المحطة، ويؤثر على حركة سير المشاة، وقد يصعب السيطرة على الأمر، وبالتأكيد سوف يتعرف البعض على (بيل)، وسينتشر الخبر، وتلتقط العدسات الصور، ويكبر الحشد ويزداد الازدحام، مِمَّا سينتج عنه ارتباكًا واضحًا في حركة المشاة، والمواصلات سواء داخل محطة مترو الأنفاق، أو خارجها على شارع (ماريلاند الجنوبي الغربي)، ولكن حقيقة ما حدث أن شخصًا واحدًا فقط من العابرين الذين بلغ عددهم ١٠٩٧ شخصًا اكتشف حقيقة أن العازف هو (جوشوا بيل)، لمْ تظهر تلك الشخصية إلَّا قبل مشهد الختام بقليل، إنَّها [ستاسي فوروكاوا - Stacy Furukawa] التي تعمل كمُحللة ديموغرافية بوزارة التجارة، لا تعرف كثيرًا عن الموسيقى الكلاسيكية، ولكنَّها كانت قبل ثلاثة أسابيع أحد الحاضرين لحفل (جوشوا بيل) المجاني المقام داخل [مكتبة الكونجرس - Library of Congress]، ولتفاجئ بالحقيقة المُرّة على حسب وجهة نظرها، المُبدع العالمي يتخفى بعيدًا ليتسول بعض المال من محطات مترو الأنفاق، لمْ يكنْ لديها أدنى فكرة عن حقيقة عمَّا يحدث، ولكنها رأت أنَّه مهما كان الأمر فإنَّها لن تتركه، انتهى العرض وكانت (فوروكاوا) الوحيدة التي تحدثت مع (بيل)، توجهت له، وقالت بصوت دافئ وهادئ وخافت: - «لقد شاهدتك في مكتبة الكونجرس، لقد كنت رائعًا، هذا يعتبر من أفضل الأشياء التي يمكن أن تحدث في العاصمة واشنطن».

بالرغم من كل هذا التجاهل إلّا أن (بيل) غير الملفت للأنظار، استطاع أن يجمع خلال ٤٣ دقيقة مبلغ ٣٢ دولار و١٧ سنت دولار، نعم، كان هناك من يلقون فقط بالسنتات، يضحك (بيل) على المبلغ قائلًا أن ذلك ما يعادل ٤٠ دولارًا في الساعة، يعلق (بيل) عند مشاهته الفيديو مرة أخرى قائلا: "أنا مندهش من عدد الأشخاص الذين لا يهتمون على الإطلاق، كما لو أنني غير مرئي. لأنَّك تعرف لماذا؟ أنا بالنسبة لهم شخص يقدم الكثير من الضوضاء».

قد يأتيك الجمال في لحظة ما.. قد تكون غير مستعدًا، أو تكون غير منتبهًا، ولكن انتبه.. إذا ذهب فلن يعود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يد الرب... أم يد مارادونا

إنَّها تمام الثانية عشر ظهر يوم الأحد ٢٢ يونيو ١٩٨٦ بتوقيت المكسيك (السادسة صباحًا بتوقيت جرينتش)، والحكم الدولي التونسي (علي بن ناصر) يوشك على أن يطلق صافرته معلنًا بداية واحدة من أكثر المباريات جدلًا في تاريخ كرة القدم، تقام المباراة على [ملعب أزتيكا - Estadio Azteca] الشهير جنوب العاصمة المكسيكية: [مكسيكو سيتي - Mexico City]، وسط حضور جماهيري يبلغ ١١٤,٥٨٠ متفرج، إنَّها مباراة دور الثمانية في بطولة كأس العالم لكرة القدم في نسختها الثالثة عشر والمعروفة باسم مونديال المكسيك ١٩٨٦ والتي أقيمت في الفترة من ٣١ مايو وحتى ٢٩ يونيو ١٩٨٦، جمعت المباراة كل من المنتخب الإنجليزي بقيادة حارس المرمى [بيتر شيلتون - Peter Shilton]، والمنتخب الأرجنتيني بقيادة [دييجو مارادونا - Diego Maradona]، كانت الأجواء حماسيَّة، ومشحونة بشكل كبير بين مشجعي المنتخبين كما هي عادة لقاءات المنتخبين، لمْ يكنْ التنافس الرياضي فقط هو الحاضر، ولكن أيضًا الخلاف السياسي حيث مرت قرابة ٤ سنوات على [حرب فوكلاند - Falklands War] عام ١٩٨٢ بين القوات البريطانية والأرجنتينية في النزاع العسكري على تبعية جزر (فوكلاند)، تلك الحرب التي استمرت ٧٤ يومًا، وأسفرت عن سقوط ٩٠٧ قتيل منهم ٦٤٩ من الجانب الأرجنتيني، وانتهت بالسيطرة البريطانية على الجُزر.

لمْ تحقق إنجلترا بطولة كأس العالم في تاريخها إلا مرة واحدة فقط عام ١٩٦٦ عندما قامت بتنظيم البطولة على أراضيها، وفيها تقابلت إنجلترا (صاحبة الأرض) في الساعة الثالثة عصر يوم السبت ٢٣ يوليو مع الأرجنتين في الدور ربع النهائي على ملعب [إستاد ويمبلي - Wembley Stadium] الشهير ببرجيه التوأمين شمال غرب (لندن)، وشهد تلك المباراة أكثر من ٩٠ ألف متفرج، في مباراة مثيرة للجدل انتهى ذلك اللقاء بفوز إنجلترا بهدف نظيف أحرزه مهاجم المنتخب الإنجليزي [جيف هيرست - Geoff Hurst]، أطلقت الصحافة الأرجنتينية على تلك المباراة: «سرقة القرن»، حيث يؤمنون بأنَّ هناك مؤامرة قد تمَّ تدبيرها لإقصائهم لصالح الإنجليز، ويرى الإعلام الأرجنتيني أن تلك المؤامرة قادها حكم اللقاء الألماني [رودولف كرايتلاين - Rudolf Kreitlein] عندما قام بطرد قائد المنتخب الأرجنتيني [أنطونيو راتين - Antonio Rattín] الذي يعد أفضل لاعب خط وسط في العالم في تلك الأثناء، كان الطرد نتيجة حصول اللاعب على الإنذار الثاني مبكرًا في الدقيقة الخامسة والثلاثون من بداية المباراة، وذلك نتيجة التحامه مع اللاعب الإنجليزي (جيف هيرست).

كان (راتين) قد حصل على الإنذار الأول في بداية المباراة عند ارتكابه مخالفة ضد المهاجم الإنجليزي [بوبي تشارلتون - Bobby Charlton]، ترى غالبية الجماهير الأرجنتينية أن الإنذار الثاني الذي تسبب في الطرد كان غير عادلًا، لدرجة أن التفسيرات اختلفت حول سبب الطرد عمَّا إذا كان نتيجة عنف في الالتحام، أم كما تقول الصحافة الإنجليزية بسبب احتمال إقدام (راتين) على سَبّ الحكم، بالرغم من أن الحكم ألماني ولا يجيد الإسبانية التي يتحدث بها (راتين)، أم بسبب نظرة (راتين) للحكم التي رأي فيها تحقيرًا له كما تقول الصحافة الأرجنتينية، في جميع الأحوال رفض (راتين) الخروج من أرض الملعب، وأشار إلى شارة قيادته لمنتخب بلاده المثّبتة على سَاعِده، وكأنَّه يطلب مترجم للحديث مع الحكم وهو ما لم يحدث، دخل الحكم الإنجليزي [كينيث أستون - Kenneth Aston] المشرف على الحكام ورئيس لجنة التحكيم في الاتحاد الدولي لكرة القدم (FIFA) أرض الملعب، محاولًا إقناع (راتين) بالخروج، ولكن تدخله زاد الأمر سوءًا حيث ازدادت شكوك الجماهير نحو التآمر لخروجهم بسبب جنسيته الإنجليزية، اضطرت الشرطة في النهاية إلى التدخل لإخراج (راتين) من أرض الملعب، وذلك بعد توقف اللعب لمدة ١٠ دقائق، قبل نهاية المباراة باثني عشر دقيقة أحرز (هيرست) هدف المباراة الوحيد في مرمى منتخب الأرجنتين القوي، والذي لعب ٥٥ دقيقة كاملة من عمر المباراة بعشرة لاعبين، لتنتهي المباراة بخسارة المنتخب الأرجنتيني، وإقصاؤه من البطولة.

ازداد الشحن النفسي، وارتفعت حدة التوتر فبعد الهدف دخلت مشجعة إنجليزية أرض الملعب احتفالًا بالهدف فما كان من لاعب المنتخب الأرجنتيني [أوسكار ماس -Oscar Mas] إلَّا أن كَبَّلها بساعده من عنقها مِمَّا آثار استهجان المشجعين الإنجليز، بعد نهاية المباراة أعطى مدير المنتخب الإنجليزي [ألف رامسي - Alf Ramsey] تعليماته للاعبي فريقه بعدم تبادل قمصانهم مع لاعبي الفريق الأرجنتيني، وهو تقليد ودي كان متبعًا دائمًا عقب نهاية المباريات، كان ذلك واضحًا عندما منع (رامسي) لاعب المنتخب الإنجليزي [جورج كوهين - George Cohen] من تبادل قميصه مع لاعب المنتخب الأرجنتيني [روبرتو بيرفومو - Roberto Perfumo]، لاحقًا وصف (رامسي) على الملأ لاعبي الأرجنتين بالحيوانات، في مقاله: «أبطال وأشرار: سير ألف رامسي - Heroes and Villains: Sir Alf Ramsey» كتب المؤرخ والصحفي البريطاني المرموق [فرانك ماكلين - Frank McLynn] في جريدة [الجارديان - The Guardian] في أكتوبر ٢٠٠٥، واصفًا (رامسي) بأنَّه كان شخصًا مملًا مفتقدًا للدعابة تستند سمعته على انتصار واحد غير مستحق (يقصد بطولة كأس العالم إنجلترا ١٩٦٦)، بينما صرح مسبقًا الإنجليزي [بيلي رايت - Billy Wright] المدير الفني لفريق الأرسنال في ذلك الوقت عن واقعة

طرد (راتين) بأنَّها كانت من أكثر الأعمال المشبوهة التي شهدها في كرة القدم طوال حياته، انتقلت تداعيات ضجة طرد (راتين) من ساحات كرة القدم إلى ساحات الملاكمة، فبعدما كان هناك أمل في لقاء يجمع بين الأرجنتيني [هوراشيو أكافالو- Horacio Accavallo] بطل رابطة الملاكمة العالمية (WBA) في وزن الذبابة ونظيره الأسكتلندي [والتر مكجوان - Walter McGowan] بطل المجلس العالمي للملاكمة (WBC)، خرجت تصريحات (أكافالو) الغاضبة التي أعتبر فيها أن ما فعلته إنجلترا في كرة القدم أمرًا بشعًا لا يمكن وصفه، وأن على (مكجوان) إذا أراد نزاله أن يأت إليه في عقر داره حيث لا توجد ضمانات مشبوهة، ولا تحالفات غير نزيهة، تلك التصريحات كانت كفيلة بعدم إقامة مباراة الملاكمة.

مع حصول (روديسيا الجنوبية) (زيمبابوي حاليًا) على استقلالها عام ١٩٨٠ كآخر مستعمرة بريطانية، انتهى ما يعرف باسم الإمبراطورية البريطانية، ولكن ظلت المملكة المتحدة محتفظة بسيادتها على ١٤ إقليم خارج الجزر البريطانية تُسمى: «أقاليم ما وراء البحار البريطانية»، ومنها جزر «فوكلاند»: وهي عبارة عن أرخبيل يتكون من عدد كبير من الجزر الصغيرة جنوب المحيط الأطلسي تبلغ مساحته ١٢ ألف متر مربع، ويبعد مسافة ٤٨٠ كم جنوب السواحل الأرجنتينية، تعداد سكان الجزيرة لا يتجاوز ثلاثة آلاف نسمة معظمهم ذوو أصول بريطانية، وقلة عدد السكان في الجزيرة ناتج عن طبيعة الجزر النائية، وقلة الخدمات المتاحة بها، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر قام الاحتلال الإسباني بطرد القوات البريطانية من الجزر، وفي بداية القرن التاسع عشر أعلنت الأرجنتين سيادتها على الجزر بصفتها الوريث الوحيد لإسبانيا في المنطقة بعد رحيلهم، ولكن بريطانيا استطاعت بعد ١٧ عامًا استعادة سيطرتها على الجزر عام ١٨٣٣، استمرت الحكومة الأرجنتينية تطالب بحقها في السيادة على جزر (فوكلاند)، حتى عام ١٩٥٨ عندما عُرض الأمر على الأمم المتحدة التي أوصت عام ١٩٦٤ بإجراء مفاوضات بين بريطانيا والأرجنتين لحل الخلاف، مع الأخذ في الاعتبار رغبات السكان واحترامها، توصلت المفاوضات إلى اقتراح بريطاني في نوفمبر ١٩٨٠ بالتنازل عن ملكية الجزر للأرجنتين بشرط مقابل تخلي الأرجنتين عنها لمدة ٩٠ عامًا لصالح الإنجليز، وهو العرض الذي رفضه السكان المحليين، والذي اشترطت الأمم المتحدة موافقتهم مسبقًا على أي حل نهائي، في تلك الأثناء كانت تمر الأرجنتين بأصعب سنواتها، وتحديدًا في الفترة من ١٩٧٦ وحتى ١٩٨٣، حيث فرضت القيادة العسكرية ديكتاتورية عسكرية من الجناح اليميني، وادعى السعي إلى تحقيق انتعاش الاقتصادي من خلال ما سُمي: «عملية إعادة التنظيم الوطني - National Reorganization Process»،

أسفر ذلك عن مزيد من عمليات العنف والقمع والتشريد بالإضافة إلى الآلاف من حالات الاختفاء القسري.

تولى الجنرال [ليوبولدو جالتيري - Leopoldo Galtieri] رئاسة البلاد في ٢٢ ديسمبر ١٩٨١ بحكم الواقع ودون اللجوء لانتخابات، ونتيجة للانهيار الحاد في شعبيته بسبب الظروف الاقتصادية البائسة، قرر (جالتيري) بعد ٤ أشهر من توليه الحكم القيام بعملية غزو لجزر (فوكلاند) التي كانت تحميها قوات عسكرية بريطانية رمزية في ٢ أبريل ١٩٨٢، على الفور أدانت بريطانيا العملية العسكرية لضم الجزر بالقوة العسكرية للأرجنتين، أدت تلك العملية إلى تنامي روح الوطنية العمياء في الأرجنتين، وتحولت التظاهرات التي تندد بالحكم العسكري إلى مظاهرات شوفينية تُدعّم الرئيس الديكتاتور (جالتيري)، لمْ يكنْ يتوقع (جالتيري) أن تقوم بريطانيا بأي رد فعل عسكري عقب الاستيلاء على الجزر، وستكتفي فقط بالإدانة والمناشدات، ولن تتدخل الولايات المتحدة نتيجة وقوف الحكم العسكري الأرجنتيني بجانب المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) في حربها مع جبهة [الساندينستا – Sandinista] الاشتراكية اليسارية في نيكاراجوا، ولكن بعد يومين فقط من غزو الجزر وعدم التفات الأرجنتين للإدانات البريطانية، قررت رئيسة الوزراء البريطانية [مارجريت تاتشر - Margaret Thatcher] التي لُقّبَت باسم: «المرأة الحديدية» إرسال قوة مشتركة من البحرية، والمشاة لاستعادة السيطرة على الجزر التي تبعد ١٣ ألف كيلومتر عن بريطانيا، وعلى الرغم من المزايا العددية والاستراتيجية الجغرافية واللوجستية التي تمتلكها الأرجنتين تجاه جزر (فوكلاند) بالمقارنة ببريطانيا، إلَّا أنَّها انتهت بانتصار بريطاني في ١٤ يونيو ١٩٨٢ بعد ١٠ أسابيع من الغزو الأرجنتيني، استعادت فيها القوات البريطانية السيطرة على العاصمة [ستانلي – Stanley].

لقي ٩٠٤ شخص حتفهم في تلك المعركة، أكثر من ٧٠ ٪ منهم كان من الجانب الأرجنتيني، بعد مرور أيام على انتهاء القتال، تمَّ عزل الجنرال (جالتيري) من الحكم، لتنتهي بذلك حقبة الحكم العسكري السوداء، وتعود الأرجنتين مرة أخرى للديمقراطية، حُكم على (جالتيري) بالسجن نتيجة سوء إدارة حرب (فوكلاند) حتى حصل هو، وبعض قادة الجيش المتورطين لاحقًا، على عفو من الرئيس [كارلوس منعم - Carlos Menem] في أكتوبر ١٩٨٩، قوبل هذا العفو باعتراض من الجمعيات والمؤسسات الحقوقية التي تمثل عائلات ضحايا القمع الوحشي الذي وقع على المعارضة اليسارية في الفترة من ١٩٧٤ حتى ١٩٨٣ والتي عُرفت باسم: «الحرب القذرة – Dirty War»، انتهت حرب (فوكلاند)، وخسرت الأرجنتين وتملك شعبها الغضب، والحنق تجاه قياداته العسكرية، وكذلك تجاه الدولة البريطانية التي رآها مغتصبة لأرض تبعد عنها آلاف الأميال، ويعتقد بأحقيته بها، تمَّ إجراء استفتاء يومي ١٠

- ١١ مارس ٢٠١٣ بين سكان (فوكلاند)، لتقرير مصير تبعية الجزر في أن تظل تحت السيادة البريطانية كإقليم ما وراء البحار، أم تنتقل للسيادة الأرجنتينية، بلغت نسبة التصويت ٩٢ ٪ من إجمالي ١,٦٧٢ شخص لهم حق التصويت بين سكان الجزر وقدرهم ٢٩٠٠ نسمة، وصَوّت ٩٩,٨ ٪ على أن تظل الجزر أرضًا بريطانية، فيما رفض ذلك الاستفتاء ٣ أشخاص.

في مونديال المكسيك ١٩٨٦... انتهى الشوط الأول الذي كان دون المستوى بالتعادل السلبي، امتلكت فيه الأرجنتين الكرة بشكل أفضل ولكن دون خطورة واضحة أو فرص ضائعة، ومن خلال بعض اللمسات القصيرة التي لم تخطئها العين اتضح جَليًّا أن قائد المنتخب الأرجنتيني (دييجو مارادونا) لاعب مهاري من طراز فريد تظهر مواهبه بوضوح عندما تُتاح له الفرصة، قبل عامين من البطولة كسر (مارادونا) الذي كان عمره آنذاك ٢٣ سنة للمرة الثانية الرقم القياسي العالمي لسعر انتقال لاعب كرة قدم، عندما انضم لنادي [نابولي -S.S.C. Napoli] الإيطالي بمبلغ ٦,٩ جنيه إسترليني من نادي [برشلونة - FC Barcelona] الإسباني، وكانت عملية الانتقال حديث الصحافة، والرأي العام في تلك الأثناء.

قِصر قامة (مارادونا) نسبيًّا حيث يبلغ طوله ١٦٥ سم مع تمتعه بمركز ثقل منخفض وقوة عضلية استثنائية شَكّلت تركيبة بدنية جعلت لديه قدرة غير اعتيادية على التلوي، والتحرك المهاري وسط المنافسين بسرعة فائقة، كان واضحًا أنَّه واحدًا من أكثر اللاعبين الموهوبين في تاريخ اللعبة، ولكن لكي يقف جنبًا إلى جنب مع أسطورة البرازيل [بيليه – Pelé] كأفضل لاعب كرة قدم على الإطلاق، فهو بالتأكيد في حاجة للفوز بكأس العالم، خاب أمله في تحقيق ذلك في بطولة كأس العالم عام ١٩٨٢ في إسبانيا، حيث كان قاب قوسين أو أدنى للفوز بها، ولكن طرده في المباراة النهائية بين الأرجنتين والبرازيل حال دون تحقيق ذلك الإنجاز، في الدقيقة ٥٠:٢٠ يتقدم (مارادونا) باتجاه منطقة جزاء المنتخب الإنجليزي بعدما راوغ ثلاثة لاعبين ثمَّ يمرر الكرة عرضية في الجانب الأيمن للمهاجم الأرجنتيني [فالدانو - Jorge Valdano]، فيتدخل على إثرها المدافع الإنجليزي [ستيف هودج - Steve Hodge] ليشتتها من على قدم (فالدانو) سريعًا للخلف عالية لتصل لحارس مرماه (بيتر شيلتون)، في تلك اللحظة كان (مارادونا) قد شق طريقه إلى منطقة الجزاء حيث يقفز عاليًا، ويصل إلى الكرة قبل يد (شيلتون) لتستقر في شباك المرمى في الدقيقة ٥٠:٢٧، للوهلة الأولى يبدو واضحًا أن الهدف تمَّ إحرازه برأس (مارادونا) الذي انطلق يعدو مسرعًا للجماهير مُحتفلًا بالهدف دون أدنى شك من المشاهدين بصحته، لدرجة أن معلق هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) الإنجليزي [باري دافيس – Barry Davies] توقع في البداية أن اعتراض اللاعبين الإنجليز على الحكم عقب الهدف كان بسبب مطالبتهم الحكم «علي

بن ناصر» باعتبار الهدف تسللا، ولكن سرعان ما أظهرت الإعادة شكوك كبيرة في استخدام (مارادونا) أثناء وثبه عاليًا قبضة يده اليسرى شبه الملاصقة لرأسه في تسجيل الهدف، في سيرته الذاتية الذي صدرت في كتاب للمرة الأولى في أكتوبر عام ٢٠٠٠ يعترف (مارادونا) بأن الهدف كان بيده، ويستطرد قائلا:

«لست آسفًا على التهديف بيدي... لست آسفًا على الإطلاق، ليس الآن ولا بعد ثلاثون عامًا ولن أعتذر طالما أنا على قيد الحياة».

صرح (مارادونا) لاحقًا عقب المباراة وخسارة إنجلترا:

«على الرغم من أننا قلنا قبل المباراة أن كرة القدم لا علاقة لها بحرب «مالفيناس - Malvinas» (يقصد حرب «فوكلاند»)، إلا أننا عرفنا أنَّهم قد قتلوا الكثير من الأطفال الأرجنتينيين هناك، وقتلوهم مثل الطيور الصغيرة. وكان هذا هو الانتقام».

يحكي ماردونا عن تسجيل الهدف فيخبرنا في كتابه:

«قلت لنفسي هذا الهدف لي... لم أكن متأكدًا إذا كنت سأنجح في إحرازه أم لا، ولكني لن أترك الفرصة، ولو احتسبها الحكم مخالفة... فليحتسبها، ثمَّ وثبت عاليًا... عاليًا جدًا وأنا متحركًا وهو ما لم يكن يتوقعه «شيلتون»، لقد وثبت قبله وعيني على الكرة وكنت في أفضل حالات لياقتي البدنية على الإطلاق، فأصبحت في وضع أفضل منه كثيرًا، لقد سددت الهدف بقبضة يدي ولكن الكرة ذهبت للشباك كما لو أنَّها قد سددت بالقدم وليس بالرأس، لقد كانت سريعة وخاطفة بشكل يصعب على أي أحد ملاحظتها، لا الحكم ولا حامل الراية ولا «شيلتون» الذي بدا في حالة ذهول يبحث عن الكرة، الشخص الوحيد الذي أدرك ما حدث كان المدافع الإنجليزي «تيري فينويك - Terry Fenwic»، كان آخر رجل بيني وبين المرمى ولكنه كان وحيدًا... لا أحد غيره، وبعدما سددت الهدف وهبطت على الأرض قمت مسرعًا مهرولًا نحو الجماهير احتفالًا بالهدف ولم أنظر خلفي أبدًا، لحقني مهرولًا المدافع الأرجنتيني «سيرجيو باتيستا - Sergio Batista” متسائلًا: لقد سددت الهدف بيدك... صحيح؟، سَبَبْتُه وطلبت منه الصمت والاحتفال، لقد كنت خائفًا من أن يتم إلغاء الهدف وهو ما لم يحدث، حتى أثناء الوقت المتبقي كنت متوقع في أي لحظة أنَّه سيتقرر إلغاء الهدف، ولم أكن أدري ماذا سأرد عندما يتم سؤالي عقب اكتشاف الأمر في الإعادة التليفزيونية، لمْ أكنْ أعرف كيف سأخرج من هذا المأزق أثناء المؤتمر الصحفي عقب المباراة، ولكني استمريت في قول لقد أحرزتها بالرأس، لا أدري لقد كنت خائفًا، لقد كنا مازلنا في ملعب المباراة، ومن الممكن إلغاء الهدف، لا أدري، ولكني وأنا

أتحرك قلت لأحدهم: لقد كان الهدف جزء من رأس «مارادونا» وجزء من يد الرب - A little with the head of Maradona and a little with the hand of God»، نشرت الصحف الجملة الأخيرة، واشتهر الهدف بعدها إعلاميا ب «يد الرب - Hand of God»، وبعد ذلك وقع شجارًا بسبب هذا الهدف بيني وبين المدافع الإنجليزي «تيري بوتشر - Terry Butcher» أثناء القيام بعمل تحليل المنشطات عقب المباراة، حيث كان «بوتشر» هو الأكثر غضبًا وكان ينظر لي وهو يقرع قبضة يده في رأسه، وكأنَّه يسألني مستنكرًا ما إذا كنت قد سجلت الهدف الأول بقبضتي، فأجبته: بيدي يا رجل... بيدي».

أحدث هذا الهدف جلبة كبيرة في الأوساط الرياضية، وما زال حتى يومنا هذا وخصوصًا أن المباراة انتهت بإقصاء المنتخب الإنجليزي من البطولة، وكان هذا الهدف سببًا في ميلاد حملة «الفيفا» المعروفة باسم «اللعب النظيف - Fair Play» حيث أصبحت هناك جائزة (اللعب النظيف) في معظم مسابقات (الفيفا) العالمية، وتعرض الحكم التونسي (على بن ناصر) وقتها لهجوم عنيف لاحتسابه الهدف غير الصحيح، ولم تُوكل بعد ذلك أي مهمة تحكيمية للحكم (بن ناصر) ولم يقم بالتحكيم بعد تلك المباراة نهائيًّا.

بعد ٢٩ عامًا على المباراة وتحديدًا في ١٧ أغسطس ٢٠١٥، قام (مارادونا) بزيارة إلى تونس لتصوير أحد الإعلانات، وهناك قام بزيارة الحكم (علي بن ناصر) الذي يشعر (مارادونا) بامتنان كبير تجاه هذا الرجل، حيث تسبب بغير قصد في صناعة أهم حدث في كأس العالم لا يزال يتم تداوله حتى الآن، أهدى (ماردونا) الحكم (علي بن ناصر) (٧١ عامًا وقتها) قميصه الشهير، وكتب عليه بتوقيعه: «إلى علي... صديقي الخالد - For Ali, my eternal friend»، ثمَّ قبّله على وجنته عندما أهداه (بن ناصر) صورة مصافحة الأيدي المألوفة التي تجمعه مع قائدي المنتخبين قبل بداية المباراة، والتي كان يحتفظ بها في منزله، يقول (علي بن ناصر) تعقيبا على هذا الهدف:

«قبل المباراة، أعطانا الفيفا إرشادات واضحة: إذا كان زميلك (حامل الراية) في وضع أفضل من وضعك، يجب أن يكون لقراره الأولوية، وهذا ما فعلته... فلم يرفع مساعدي رايته، بالرغم من أنَّه كان في وضع أفضل مني لرؤية اللعبة».

(مارادونا هو حفّار قبري) هكذا كتب حامل الراية البلغاري [بوجدان دوتشف - Bogdan Dotchev] بخط يده خلف صورة هدف (مارادونا) الشهير بهدف «يد الرب»، (دوتشف) الذي توفي عام ٢٠١٧ عن عمر يناهز الثمانون عامًا، بات مسئولًا عن عدم رفع الراية عندما أحرز (مارادونا) الهدف، يعلق (دوتشف) على موقفه:

«على الرغم من أنني شعرت على الفور بوجود شيء غير طبيعي، إلّا أنَّه في ذلك الوقت لمْ تكنْ الفيفا تسمح للمساعدين بمناقشة القرارات مع الحكم، لو كانت الفيفا قد وضعت حكمًا من أوروبا في هذه المباراة الهامة، لَما كان ليتم احتساب مثل هذا الهدف، «دييجو مارادونا» أفسد حياتي، هو لاعب بارع لكنه رجل صغير، هو قصِير القامة والشخصية».

تقول [إميلي – Emily] أرملة حامل الراية البلغاري، أنَّه عاني كثيرًا بعد تلك المباراة، وتزعم أن حكم المباراة (بن ناصر) أمر زوجها بعدم اتخاذ أي قرارات تجاه هذا الأمر، وهو إتهام لا يمكن التيقن من صحته، ولا يثبته شريط المباراة، أضافت (إيملي) أن الحكم أخبر زوجها قبل المباراة بأنهَّ ليس عليه فعل أي شيء أثناء المباراة حيث سيتولى الأمر كله وحده، وتؤكد (إيميلي) أنَّها لن تسامح أبدًا هذا الحكم كما أن لن تسامح أبدًا (دييجو مارادونا)، تقول أرملته أن زوجها انغلق حول نفسه وانعزل وحيدًا بعدما تجاهله أصدقائه، وتفرقوا بعيدًا عنه، وتضيف إنَّها لمْ تكنْ أبدًا «يد الرب» ولكنها «لكمة بالوجه».

صرح (بن ناصر) لاحقًا للإعلام أنَّه كان مترددًا للحظة، ولكن هرولة حامل الراية البلغاري إلى منطقة المنتصف عقب الهدف أزالت شكوكه، وخصوصًا أنَّه كان في وضع رؤية أفضل، يقول المدرب الأرجنتيني الشهير [سيزار مينوتي - César Menotti]، والمدير الفني للمنتخب الأرجنتيني الذي حقق مع منتخبه بطولة كأس العالم ١٩٧٨ التي أقيمت بالأرجنتين، لاحقًا عن هذا الهدف متفهمًا الظروف السياسية المحيطة به:

«كان الأرجنتينيون يشعرون بسعادة خاصة في هدف «يد الرب»، قال الناس: عظيم! هذا أفضل، أفضل كثيرًا أن الهدف كان غير عادل، لأنه بذلك سيكون أقسى، وذلك سيؤذي الإنجليز أكثر».

بينما يقول المدير الفني الإنجليزي سير [بوبي روبسون - Bobby Robson]:

«إنها أبدا لمْ تكنْ «يد الرب».. لقد كانت يد الوغد».

أمَّا نجم كرة القدم الإنجليزي [جاري لينيكر - Gary Lineker]، وصاحب هدف إنجلترا الوحيد لاحقًا في تلك المباراة فعلق قائلا:

«لم أر «يد الرب» لقد كنت في الطرف الآخر من الملعب، لكن رد فعل اللاعبين المباشر كانت تعبر عن لمسة يد، إنني ألوم المسؤولين، أعتقد أن حامل الراية شاهد اللمسة، ولكنَّه احتفظ برؤيته».

يقول لاعب خط الوسط الإنجليزي [بيتر ريد - Peter Reid] الذي لعب في تلك المباراة منذ بدايتها حتى الدقيقة ٦٩ في كتابه الذي يتناول سيرته الذاتية [ابتهج – Cheer Up] ونُشر في ٥ أكتوبر ٢٠١٧:

«مازالت ذكريات تلك المباراة تطاردني أثناء نومي... فقد تمَّ خداع إنجلترا وخرجت من كأس العالم بسبب ما سُمي إعلاميًّا ب «يد الرب»، لمْ أكنْ أتوقع أن ثمة مباراة كرة قدم يمكن أن يكون لها هذا التأثير الدائم في حياتي، لقد كنت شاهدًا على عبقرية (مارادونا)... كما كنت أيضًا ضحية خداعه».

«سبب الأسف عندي بسبب تلك المباراة يزيد عن الآخرين... لقد كنت أنا هذا الشخص المتواجد عند المحطة الأخيرة ل «مارادونا» في كلتا المرتين، الأولى في قمة خداعه وغشّه، والثانية في قمة تألقه وعبقريته»

«من المؤلم أن يقضي علينا بالتسجيل بقدمه بعدما افتتح التسجيل بيده... وعليَّ أن أدرك بأنني لن أستطيع التغلب على هذا الأمر أبدًا».

«لقد تعمد «مارادونا» استخدام وسائل رديئة لخداع الحكم وإلحاق الضرر بنا وخروجنا بطريقة ظالمة، فكيف يمكن أن أرى هذا الأمر كأي شيء آخر».

«الشيء الوحيد الذي كان يدور في خلده هو القيام بكل ما في وسعه لتسجيل هدف في كأس العالم، أنا بالتأكيد لا أسميها «يد الرب».. لكَّنها قد كانت يد الوغد المحتال».

بعد ٤ دقائق فقط من تسجيل هدف «يد الرب» كان الموعد مع «هدف القرن»، إنَّه واحد من أفضل الأهداف التي تمَّ تسجيلها في تاريخ كرة القدم على الإطلاق، وكان أيضًا بواسطة (مارادونا)، ولكن بأقدامه هذه المرة، في الدقيقة ٥٤:٠٦ حيث يمرر لاعب خط الوسط الأرجنتيني [هيكتور انريكي – Hector Enrique] الكرة إلى (مارادونا) في نصف ملعب الأرجنتين، ليبدأ (مارادونا) رحلة لواحد من أفضل الأهداف الفردية في التاريخ إلى مرمى إنجلترا قاطعًا مسافة ٦٠ ياردة (حوالي ٥٥ متر - فعليا ٦٨ متر) في ١٠ ثوان، حيث يمر بالكرة من أربعة لاعبين إنجليز أولهم [بيتر بيردسلي - Peter Beardsley] أعقبه (بيتر ريد) في حركة تشبه حركات راقص الباليه، ثمَّ راوغ بعد ذلك (تيري بوتشر) الذي أراد أن يوقف تقدمه، وانطلق بعد ذلك متخطيا (تيري فينويك) حتى راوغ حارس المرمى (شيلتون) من ناحية اليمين عندما تقدم لمسافة ٧ متر عن مرماه ليغلق الزاوية، إلَّا أن (مارادونا) تخطاه ليسدد بقدمه اليمنى داخل المرمى، ولم تستطع قدم (بوتشر) - للمرة الثانية - أن توقف التسديدة لتستقر الكرة في شباك (شيلتون) في الدقيقة ٥٤:٢٦، وسط ذهول اللاعبين والمتفرجين، بعد مرور ستة عشر عامًا أعلنت «الفيفا» في ٣٠ مايو ٢٠٠٢ أن هذا الهدف هو هدف القرن العشرين في مسابقات كأس العالم، يقول الحكم (علي بن ناصر) عن هذا الهدف الأسطوري:

«لم يسجل مارادونا هذا الهدف وحده، لقد سددته معه، فقد هرولت معه ومنحته خاصية إتاحة الفرصة ثلاث مرات، الأولى أثناء عرقلته، والثانية كانت

على حدود منطقة الجزاء، وصرخت وقتها: إتاحة فرصة... إتاحة فرصة، وعندما دخل منطقة الجزاء توقعت أن يعرقله «تيري بوتشر»، فكانت الصافرة جاهزة للانطلاق ولكني لم أفعلها».

ما زال التعليق التلقائي للمعلق الأرجواياني [فيكتور موراليس - Víctor Morales] بالإسبانية على هذا الهدف الأشهر فيقول:

«يمررها ل «دييجو»، يوجد مع «مارادونا» رجلين، «مارادونا» يخطو بالكرة، يسقط الجناح الأيمن، عبقري الكرة العالمي، إنَّه يترك الجناح وسيمررها إلى «بوروتشاجا»، مازالت مع «مارادونا». عبقري! عبقري! عبقري! هناك... هناك... هناك... هناك... جووووووول! جووووووول!، أريد أن أبكي، يا الله!، فلتحيا كرة القدم، يا له من هدف!، دييجو!، مارادونا!، سأبكي، اسمح لي يا «مارادونا»، إنَّها هرولة لا تُنسى، إنَّها أفضل لعبة على مدار التاريخ، من أي كوكب أتيت؟، لتتخطى كل هؤلاء اللاعبون الإنجليز، وتسبقهم لتصبح الدولة كلها بقبضة يدك تبكي للأرجنتين، الأرجنتين ٢ إنجلترا صفر، ديو جول!، ديو جول!، «دييجو أرماندو مارادونا»، شكرًا يا الله على كرة القدم، على «مارادونا»، على هذه الدموع».

يعلق لاعب خط وسط المنتخب الإنجليزي [ستيف هودج - Steve Hodge] على الهدف قائلًا:

«بقدر ما أستطيع أن أستطرد في القول بأنَّه كان غشاشًا، إلَّا أن هدفه الثاني كان رائعًا. لمْ نستطعْ التعامل مع تلك النوعية من المهارة التي أظهرها في الملعب».

يسترجع (مارادونا) ذكريات هدف القرن في كتابه فيقول عنه:

«لقد انطلقت بالكرة وكان هدفي أن أمررها بعد ذلك ل «فالدانو»، ولكني عندما وصلت إلى منطقة الجزاء، وجدتني محاطًا باللاعبين ولا مساحة أمامي مطلقًا للتمرير، فلمْ يكنْ هناك بُد من استكمال اللعبة وإنهائها بنفسي».

ثم أثنى (مارادونا) على لعب إنجلترا النظيف قائلًا:

«لا أعتقد أنني كنت أستطيع أن أسجل مثل هذا الهدف ضد أي فريق آخر، لأنهم لمْ يكنْ ليتركوني أمُرّ هكذا، فالجميع كان سيشترك لطرحك أرضًا كي لا تمر، ربما يكون الإنجليز في هذه اللقطة من أنبل شعوب العالم».

قائد المنتخب الإنجليزي وحارس المرمى (بيتر شيلتون) يقول عن (مارادونا) في تلك المباراة:

«كان أعظم لاعب لعبت ضده، ولكنَّه بعد المباراة لمْ يعتذر أبدًا، أو يعترف بأنَّه كان على خطأ، لقد رأيت حراس مرمى يَغشّون ويسحبون الكرة من خلف الخط، رأيت لاعبين يخدعون، ولكنَّهم بعد المباراة يعتذرون ويقولون «آسفون... ما كان علينا فعل ذلك» إنَّه أمر فطري، إذا جاء إلى إنجلترا واعتذر بشكل صحيح فسنقبل ذلك، ولكنني لا أعتقد أن هذا سيحدث».

أمَّا (روبرتو بيرفومو) القائد السابق للمنتخب الأرجنتيني، فيتحدث متذكرًا أجواء البطولة:

«في عام ١٩٨٦، كان الفوز على إنجلترا تحديدًا في تلك المباراة كافيًا، الفوز بكأس العالم كان في المقام الثاني، إلحاق الهزيمة بالمنتخب الإنجليزي كان هو الهدف الرئيسي».

في الدقيقة ٧٤ من المباراة خرج الجناح الأيمن للمنتخب الإنجليزي [تريفور ستيفن - Trevor Steven] ودخل بديلًا عنه [جون بارنس - John Barnes]، وفي الدقيقة ٨٠ سدد (بارنس) كرة عرضية ل (لينكر) أمام منطقة جزاء الأرجنتين ليسددها قوية برأسه على يسار حارس المرمى الأرجنتيني [بومبيدو – Pumpido]، ليقلل المنتخب الإنجليزي فارق الأهداف، لمْ تستطعْ إنجلترا خلال الوقت المتبقي أن تحرز هدف التعادل لتنتهي المباراة بخروج إنجلترا من كأس العالم وصعود الأرجنتين للدور قبل النهائي لتقابل بلجيكا وتفوز عليها بهدفين نظيفين، ثمَّ تقابل ألمانيا في المباراة النهائية، وتحرز الأرجنتين كأس البطولة للمرة الثانية في تاريخها بعد الفوز على ألمانيا بثلاثة أهداف مقابل هدفين.

في تصويت أجراه الاتحاد الدولي لكرة القدم [الفيفا – FIFA] بين مشجعي كرة القدم تمَّ اختيار (مارادونا) كأحسن لاعب كرة قدم في القرن العشرين، كما تمَّ اختياره كأفضل لاعب في كأس العالم (مكسيكو ٨٦)، واختير أفضل لاعب كرة قدم في أمريكا الجنوبية خمسة مواسم، لعب (مارادونا) في نهائيات كأس العالم ٤ مرات ممثلًا لبلده الأرجنتين، كما أنَّه تولى منصب المدير الفني للمنتخب الأرجنتيني، أمَّا عن كتاب سيرته الذاتية فيقول مارادونا في تقديمه له:

«في بعض الأحيان أعتقد أن حياتي كلها عبارة عن شريط سينمائي، وأن حياتي كلها مطبوعة فيه، لكن الأمر ليس كذلك. هناك أشياء في قلبي فقط لا أحد يعرف عنها شيئًا. في النهاية قررت أن أقول كل شيء»

“Sometimes I think that my whole life is on film, that my whole life is in print. But it’s not like that. There are things which are only in my heart that no one knows. At last I have decided to tell everything”

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

وداعًا... الكونكورد

طبيعة الحياة البشرية ترسخ قاعدة ارتباط نمو التطور الإنساني، وازدهاره بمرور الزمن، وبالتالي فإن وسائل الراحة والترفيه وأساليب الحياة تزداد تقدمًا، وتيسيرًا يومًا بعد الآخر، ولكن يوم الأربعاء ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٣ يخالف استثنائيًّا تلك القاعدة البديهيّة، فالتطور بعد ذلك اليوم يتراجع عما قبله، قبل ذلك اليوم كنت تستطيع أن تسافر جوًا بسرعة تعادل سرعة الصوت، بينما اليوم لا يمكنك تحقيق هذا الأمر، قبل ذلك اليوم كنت تستطيع أن تقطع المسافة عبر المحيط الأطلنطي من (لندن) إلى (نيويورك) بالطائرة في ٣ ساعات ونصف الساعة (٥,٥٦٧ كم)، بعد ذلك اليوم لن تستطيع أن تقطعها في أقل من ٧ ساعات، في هذا اليوم المستقبل يعود للوراء، الأمر ليس بتلك البساطة، فقط تخيل أنَّك لن تستطيع بعد اليوم استخدام الحاسب الشخصي، وعليك العودة فجأة إلى الآلة الكاتبة، أو كأنَّك لن تستطيع بعد اليوم استخدام هاتفك المحمول وعليك العودة كليًا وفقط للهاتف الأرضي.. اليوم ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٣ يشهد آخر تحليق لطائرة الكونكورد «Concorde» الشهيرة.

بدأت فكرة تصنيع طائرة تفوق سرعة الصوت في بداية الخمسينات في بريطانيا وأنشأ خصيصًا لذلك ما يعرف باسم: «اللجنة الاستشارية للنقل بسرعة الصوت - STAC»، وبعد عديد من الدراسات، والأبحاث توصلت اللجنة لمواصفات تقنيّة، وشكل مبدئي للطائرة، ولكن الأمر وقتها في أواخر الخمسينات كان يحتاج لشريك يُوّكد الأبحاث، ويدعم التصنيع، في تلك الأثناء كان صانع الطائرات الفرنسي [سود افياسيون - Sud-Aviation] لاحقًا أصبح – [إيروسباسيال – Aérospatiale] - قد توصل تقريبًا لتصميم فني مقارب بشكل كبير للتصور الإنجليزي، كان فريق التطوير الفرنسي يفتقر للمحركات النفاثة الضخمة الحديثة لذلك كانت فكرة الاندماج مناسبة لكلا الفريقين، على مدار سنوات من البحث المشترك انتهى الطرفين إلى التصميم الأمثل، ظهر أول إعلان للكونكورد على صفحتين كاملتين من الدورية المتخصصة «أسبوع الطيران وتكنولوجيا الفضاء» في ٢٩ مايو ١٩٦٧، توقع الإعلان الوصول إلى ٣٥٠ طائرة مع حلول عام ١٩٨٠ وهو ما لم يحدث.

إذا قمت اليوم بزيارة [متحف الطيران والفضاء - Musée de l’air et de l’espace] في [مطار لو بورجيه - Le Bourget Airport] شمال (باريس)، سترى أول طائرة كونكورد حلقت في السماء يوم ٢ مارس ١٩٦٩ وحملت الرقم ٠٠١ وتقاعدت في ١٩ أكتوبر ١٩٧٣، الشكل العام لتلك الطائرة الأيقونية الجميلة يخلب الألباب، وذلك لما تتمتع به من سحر خاص كأنَّها لوحة فنية، حيث تشكل الطائرة منظورًا بصريًّا ديناميكيًّا متفردًا، وكأنَّه طائر يتدلى منقاره المدبب في انسيابية بديعة مع جسمه، وما بين أول طائرة حلقت في

السماء وبين آخر طائرة حلقت يوم ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٣،تمَّ صناعة ١٨ طائرة كونكورد ليصبح إجمالي ما تمَّ تصنيعه ٢٠ طائرة، منهم ١٤ طائرة فقط دخلت الخدمة، تمتلك [الخطوط الجوية البريطانية -British Airways]سبعة منهم، وكانت [الخطوط الجويَّة الفرنسية - Air France] تمتلك السبعة الآخرين، ولكن واحدة منهم فقط تمَّ سحبها من الخدمة عام ١٩٨٢ واستخدمت كقطع غيار، أمَّا الأخرى فسنتحدث عن مصيرها بعد قليل، بينما الستة الباقين فلم يدخل أي منهم الخدمة حيث كان منهم نموذجين أوليين، ونموذجين قبل الإنتاج، ونموذجين للإنتاج الأول، هناك اليوم عدد سبعة طائرات معروضة بمتاحف الطيران في كل من فرنسا وإنجلترا، بالإضافة إلى واحدة في (سياتل- الولايات المتحدة)، والأخرى في (شرق لوثيان – إسكتلندا)، والأخيرة في متحف السيارات، والتكنولوجيا في (زينسهايم –ألمانيا).

بالرغم من أن أول تحليق للكونكورد في السماء كان في مارس ١٩٦٩، إلَّا أن أول رحلة لنقل الركاب كانت تقريبا بعد ٧ سنوات وتحديدا في ٢١ يناير ١٩٧٦، حملت تلك الرحلة رقم (٣٠٠BA) وأقعلت من [مطار هيثرو - Heathrow Airport] غرب (لندن)، متجهة إلى مطار البحرين الدولي في العاصمة البحرينية (المنامة)، أرادت الخطوط الجوية البريطانية والخطوط الجوية الفرنسية أن تسلك أول رحلاتهما المسار الذي ستسلكه الطائرة لاحقًا، والمخطط لها إلى الولايات المتحدة، ولكن بسبب رفض (الكونجرس) الأمريكي السماح وقتها للطائرة بالهبوط داخل الولايات المتحدة لأسباب بيئيَّة، قامت الخطوط الفرنسية بإطلاق أول رحلاتها من (باريس) إلى مدينة (ريو دي جانيرو) البرازيلية عبر العاصمة السنغالية (داكار)، بينما اختارت الخطوط البريطانية البحرين حيث يمكن اعتبار هذا المسار طريق ملاحي ينتهي في سنغافورة أو أستراليا، عند الساعة ١١:٤٠ صباح يوم الأربعاء ٢١ يناير ١٩٧٦ أقلعت طائرتا الكونكورد في وقت واحد، قاد النسخة البريطانية الكابتن [نورمان تود - Norman Todd] مع طاقم مكون من تسعة أشخاص، وعلى متنها ١٠٠ شخص منهم مسؤولي من الحكومة وشركة الطيران وصحفيين وعدد ٣٠ مسافر بتذاكر مدفوعة القيمة، طارت الطائرة فوق (باريس)، و(فينيسيا) إلى البحر الأدرياتيكي، حينما قام (تود) بزيادة سرعة الطائرة حتى وصلت لسرعة ٢,١٧١ كم في الساعة، كان ذلك أسرع حتى من سرعة دوران الكرة الأرضية... أسرع من طلقة الرصاصة، عبرت الطائرة لبنان وسوريا في ست دقائق قبل أن تهبط في البحرين في رحلة استغرقت ثلاث ساعات و٣٧ دقيقة، العميد الجوي المتقاعد [إدوارد دونالدسون - Edward Donaldson]، ومراسل صحيفة [الديلي تليجراف - The Daily Telegraph] لشؤون الطيران كان من بين ركاب تلك الرحلة، وكتب يقول: «يجب على المرء أن يخوض الأمر ليصدقه، فهنا أنا أجلس في مقصورة

مريحة وسط هواء هادئ على ارتفاع ٦٠ ألف قدم، مندفعًا بسرعة تفوق سرعة قذيفة المدفع، أتناول الكافيار مع كأس الشامبانيا الرائعة التي تستقر على الطاولة دون أي اهتزازات، هذا تاريخ».

كانت قائمة الطعام على أول رحلة للكونكورد تشتمل على الكافيار و[كانابي الاستاكوزا - Lobster Canapes]، شمبانيا من نوع [دوم برينون ١٩٦٩ - Dom Pérignon ١٩٦٩]، شرائح اللحم المشوية، سلطة قلب النخيل (الجمار) مع صوص الجبنة الروكفور « Roquefort»، فراولة طازجة مع الكريمة، بالإضافة إلى [سيجار هافانا - Havana cigars].

وافقت السلطات الأمريكية في النهاية على منح (الكونكورد) السماح بالهبوط في الولايات المتحدة، وتحديدًا في [مطار واشنطن دولس الدولي - Washington Dulles International Airport]، حيث قاد الكابتن (تود) أُولى تلك الرحلات في ٢٤ مايو ١٩٧٦، صُممت الكونكورد لتطير بسرعة تصل إلى (ماخ ٢.٠٤ - Mach ٢.٠٤) أي ضعف سرعة الصوت التي تعادل ١١٩١ كم/س، أي أنَّها تقطع تقريبا مسافة تعادل ٦٠٦ متر كل ثانية لحمولة ما بين ٩٢ إلى ١٢٨ شخص، وتستطيع أن تحلق على ارتفاع يصل إلى ٦٠ ألف قدم، وتصل درجة حرارة مقدمة الطائرة المدببة إلى ١٢٧ درجة مئوية نتيجة شدة الاحتكاك بالهواء عند هذه السرعة الهائلة، سُجلت أقصر مدة زمنية لرحلة طائرة مدنية ما بين (نيويورك) و(لندن) يوم ٧ فبراير ١٩٩٦ حيث استغرقت رحلة طائرة الكونكورد ساعتين و ٥٢ دقيقة و ٥٩ ثانية، قاد تلك الرحلة التي أقلعت من [مطار جون إف كينيدي الدولي - John F. Kennedy International Airport] في جنوب غرب (نيويورك) الكابتن [ليزلي سكوت - Leslie Scott]، ومساعده [تيم أورشارد - Tim Orchard]، وكبير المهندسين [ريك إيدس - Rick Eades]، قطعت الطائرة مسافة ٦٠٣٥ كيلومتر بسرعة بلغت ٢٠١٠ كم/ساعة، في هذا التوقيت من السنة كانت القراءات الخاصة بسرعة الرياح، ودرجة الحرارة، والمؤثرات الطبيعية الأخرى بالنسبة للثلاثة ملائمة جدًا لتحقيق رقم قياسي عالمي، اتخذ الثلاثي قرارًا بعدم إبلاغ أي من الركاب بما يعتزمون القيام به من محاولة تسجيل رقم قياسي، لدرجة أنَّهم أخفوا أيضًا هذا الأمر عن طاقم ضيافة الطائرة المكون من ٥ أشخاص وذلك لاحتمالية ألَّا يستطيعوا تحقيق رقم قياسي، بالطبع كان الثلاثة متيقنين أنَّه لن يكون هناك أي خطر على سلامة الركاب، وقرروا أن يتخلوا عن المحاولة برمتها لو لاح أي أمر يمكن أن يشكل خطرًا عليهم أو على الركاب، حطت الطائرة بسهولة في مطار (هيثرو)، ولكن كان ملفت للنظر أن الطائرة هبطت باتجاه الشرق في حين أن جميع الطائرات على هذا الممر تهبط في اتجاه الغرب أي باتجاه معاكس لاتجاه جميع الطائرات الأخرى، لمْ يكنْ لقائد الطائرة القيام بهذا الأمر سوى أنَّه متأكد من أن ذلك سيساعده في تحقيق

رقم قياسي عالمي، عند الهبوط تمَّ إخبار طاقم الطائرة بأنَّهم كانوا جزءًا من محاولة تسجيل رقم قياسي عالمي ناجحة، وسرعان ما انتشر الخبر المبهج بين ركاب الطائرة، ودخلت الرحلة موسوعة [جينيس – Guinness] للأرقام القياسية كأسرع طائرة ركاب عبرت المحيط الأطلسي.

بالرغم من أن آخر تحليق للكونكورد إلى مثواها الأخير في متحف [ايروسبيس بريستول - Aerospace Bristol] كان في ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٣، إلَّا أن آخر رحلة ركاب قامت بها كانت يوم الإثنين ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣ وهي الرحلة رقم ٢BA التي أقلعت من مطار (جون كنيدي) في (نيويورك) إلى مطار (هيثرو) في (لندن) بقيادة الكابتن [مايك بانيستر - Mike Bannister]، كان على متن الرحلة ٩٠ راكبًا مدعوًا يمثلون قطاعات مختلفة، منهم مسؤولين رسميين وأصحاب أعمال ورجال من صناعة الطيران ومشاهير، بتلك الرحلة تُختتم مسيرة طائرة الكونكورد التي استمرت لمدة ٢٧ عاما بما يعادل ٥٠ ألف رحلة نقلت خلالها قرابة ٢.٥ مليون مسافر.

عُرض الفيلم الوثائقي [رحلة الكونكورد الأخيرة - Concorde’s Last Flight] للمخرج والكاتب (كريستوفر سبنسر - Christopher Spencer) في ١٢ يوليو ٢٠١٠، واستغرق عرضه ساعة و١٢ دقيقة، وقام بالتعليق عليه (جيمي لي - Jamie Lee)، والفيلم هنا لا يتحدث حرفيًا عن الرحلة الأخيرة للكونكورد التي استعرضناها، ولكنه يتحدث عن تلك الرحلة الكارثية التي أنهت مسيرة الكونكورد، تلك الرحلة التي حملت رقم ٤٥٩٠ التابعة لخطوط الطيران الفرنسية (إير فرانس)، والمتجهة من [مطار شارل ديجول - Charles de Gaulle Airport] في (باريس) إلى مطار (جون كينيدي) في مدينة (نيويورك)، عند الساعة ٣:٥٤ من بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢٥ يوليو ٢٠٠٠ بدأ الركاب في الصعود للطائرة بعد تأخرهم لمدة ساعة، نتيجة عطل فني بسيط حَلّ بالطائرة قبل اقلاعها، حيث لاحظ قائد الطائرة الكابتن [كريستيان مارتي - Christian Marty] - ٥٤ عامًا - أثناء تفحصه لسجلات الطائرة أن هناك جزء صغير في الموتور الثاني يحتاج إلى استبدال، كان يدرك أنَّه عطل صغير جدًا ليس ذو أهمية ولكن مع معامل الأمان المتميز عالي المستوى للكونكورد فالأمر يستلزم الانتظار، كانت الطائرة تقل ١٠٠ راكب بالإضافة لطاقم الطائرة وعددهم ٩ أفراد، كان ٩٦ من الركاب يحملون الجنسية الألمانية في طريقهم مع ٤ ركاب آخرين (٢ من الدنمارك، وراكب من النمسا، وآخر من أمريكا) لكي يستقلون السفينة السياحية [م س دويتشلاند - MS Deutschland] القابعة في (نيويورك)، والتابعة لشركة [بيتر ديلمان - Peter Deilmann] الألمانية للرحلات البحريَّة، والتي ستبحر بهم عبر البحر الكاريبي إلى مدينة (مانتا – الإكوادور) في رحلة سياحية ستستغرق ١٦ يومًا.

تقع ضاحية [غونيس – Gonesse] على بعد ١٤ كم شمال شرق (باريس) ملاصقة لمطار (شارل ديجول)، وفوق أحد الفنادق الصغيرة لتلك الضاحية والذي يطل على [طريق أوروبا - Route de l’Europe] ويحمل اسم [فندق الترانزيت الأزرق - Les Relais Bleus Hôtel] سقطت طائرة الكونكورد، وعندما تزور موقع سقوطها ستجد النصب التذكاري لضحايا الطائرة وعددهم ١١٣ شخصًا على بعد خطوات من مدخل الفندق، كُتب على النصب التذكاري الزجاجي الذي يتخلله جزء من جناح الطائرة: «في ٢٥ يوليو ٢٠٠٠ تحطمت طائرة كونكورد في «غونيس» وأودت بحياة ١١٣ شخصًا كانوا على الطائرة وعلى الأرض، بمزيد من مشاعر الحزن، والأسى مدينة «غونيس» وسكانها يكرمون ذكرى مَن فُقدوا في هذه الكارثة».

في الساعة ٤:٤٤ عصرًا اهتزت ضاحية (غونيس)، وسكانها على وقع سقوط طائرة الكونكورد وذلك بعد دقيقة واحدة من إقلاعها، هرعت سيارات الطوارئ المتواجدة بالمطار لتصل لموقع الحادث خلال ثمان دقائق، كان الدخان الكثيف يحجب الرؤية وألسنة اللهب تنبعث من بقايا الطائرة ومن حطام الفندق الخشبي، بعد دقائق كانت عشرات من سيارات الشرطة، والإطفاء بالموقع الذي تمَّ تطويقه، استغرق رجال الإطفاء أكثر من ساعتين يحاولون إخماد الحريق الذي استمر في بث الدخان الأبيض الكثيف عبر الطريق السريع، وحقول القمح المجاورة، لمْ يُسمحْ للصحفيين بالاقتراب لمسافة تقل عن ٩٠ مترًا، ولكنَّها كانت كافية لرؤية قِطعًا مُتفحمة من جسم الطائرة بالإضافة إلى أحد الإطارات الفردية، وكذلك ما يشبه أحد التوربينات، أمَّا الفندق المكون من ٤٥ غرفة فلم يتبقى منه سوى جزء بسيط بعدما أصبح متفحمًا، ومُدمرًا. تمركز حطام الطائرة تقريبا في مساحة صغيرة لا تزيد كثيرا عن حجم الطائرة، خلال ساعتين كان رئيس الوزراء الفرنسي [ليونيل جوسبان -Lionel Jospin] في موقع الحادث، وصرح قائلًا: «يبدو أن قائدي الطائرة كان لديهم وقت كاف لكي يرسلوا إشارة استغاثة حيث تمَّ إخلاء ممرات مطار «شارل ديجول»، ومطار «لو بورجيه» القريب، ولكن للأسف لم يعودوا».

كان الاهتمام الألماني بالحدث مكثفًا نظرًا لجنسية غالبية الركاب، ألغى المستشار الألماني [جيرهارد شرودر - Gerhard Schröder] اجتماعه الحكومي على هامش المعرض الدولي بمدينة [هانوفر – Hanover] بشمال ألمانيا، وقام بالصلاة مع وزراء الحكومة في أرض المعرض ترحمًا على أرواح الراحلين، قال (شرودر) بصوت يملأه الأسى والحزن: «ألمانيا تهتز... ألمانيا عاجزة عن الكلام، كل احترامنا لمن فقدوا حياتهم، وتعازينا لعائلاتهم أباء وأبناء الذين زُلزلت حياتهم في خِضَمّ بهجتها».

أعلن المستشار الألماني بأن وزير النقل الألماني [راينهارد كليمت - Reinhard Klimmt] في طريقه إلى مكان الحادث، وفي الولايات المتحدة قدم الرئيس (بيل كلينتون) تعازيه العميقة لأسر الضحايا، في حين طلب وزير النقل الفرنسي [جان كلود جيسوت - Jean-Claude Gayssot] من هيئة الطيران المدني الفرنسية تعليق مبدئي لجميع رحلات الكونكورد يوم الأربعاء لحين استكشاف ما تسفر عنه التحقيقات الأولية، بينما ألغت شركة الطيران البريطانية رحلتي الكونكورد التاليتين بين لندن، ونيويورك.

عند الساعة ٤:٣٥ كانت الطائرة جاهزة للإقلاع واتخذت طريقها للممر رقم ٢٦ يمين، في الساعة ٤:٤٠ كانت الطائرة على وشك الاستعداد للإقلاع عندما أخذت الطائرة أوامرها من برج المراقبة بالإقلاع، أديرت المحركات على أعلى سرعتها، وانطلقت الطائرة بسرعة ٣٢٨ كم في الساعة على الممر الذي يصل طوله ل ٤كم حتى فارقت عجلاتها أرض الممر، لاحظ ضابط برج المراقبة الذي كانت أعينه لا تستطيع أن تقاوم جمال، وأناقة طائرة الكونكورد في النظر إليها أثناء إقلاعها، بوجود لهب منبعث من خلف جسم الطائرة فسرعان ما خاطب قائد الطائرة بذلك، كانت الطائرة قد وصلت لسرعتها القصوى بعد ٣ كم على الممر وعند تلك اللحظة لا يمكن بأي حال إيقاف الطائرة، ولا سبيل إلا إقلاعها، فارقت عجلات الطائرة أرض الممر حيث كانت الساعة ٤:٤٣:٢٠، انطلقت الفوضى هنا وهناك والأعين تراقب الطائرة التي غادرت أرض الممر مشتعلة من الخلف أسفل الجناح الأيسر، واشتعالها يزداد مع ابتعادها وارتفاعها، التقطت كاميرا فيديو راكب شاحنة صورة فيديو للطائرة وهي مشتعلة في السماء، كان ذلك هو الفيديو الوحيد الملتقط للطائرة ولعله سيكون عامل هام في التحقيق الذي سيتم لمعرفة سبب الاشتعال حيث يوضح مكان وحجم الاشتعال، عند الساعة ٤:٤٣:٣٠ وبعد ١٠ ثوان من إقلاعها كانت الطائرة في الفضاء تصارع من أجل بقائها في الجو، ولكنَّها ثوان معدودة أخرى ثمَّ سقطت الطائرة رأسيًّا من الخلف للأسفل مُخلّفة لهب كثيف ودخان أسود من موقع السقوط، مات جميع ركاب الطائرة المائة (منهم ٩٦ يحملون الجنسية الألمانية ٤٩ امرأة و ٤٧ رجل) ومعهم جميع أفراد طاقم الطائرة التسعة (قائد الطائرة ومساعده ومهندس التشغيل و٦ مضيفين جويين)، ثمانية منهم يحملون الجنسية الفرنسية والتاسع ألماني الجنسية، بالإضافة لأربعة أشخاص من نزلاء الفندق (٢ من بولندا، ونزيل من الجزائر والرابع من موريشيوس) ليصبح إجمالي من لقى حتفه في الحادث ١١٣ شخصا، كانت معظم الجثث متفحمة تمامًا لدرجة يصعب التعرف على أصحابها، لذلك تمَّ الاكتفاء بتحديد هوية الراحلين من خلال السجلات، وقامت السلطات بنقل الجثث والأشلاء مباشرة إلى قاعة [جاك بيريل - Jacques Brel] للاحتفالات الواقعة بذات الضاحية غرب موقع الحادث، تلك القاعة التي

تحمل اسم المغني البلجيكي الشهير (جاك بريل) حيث تحولت إلى ما يشبه المشرحة.

أرسل [مكتب التحقيق الفرنسي لأمن وسلامة الطيران المدني - Bureau d'Enquêtes et d'Analyses pour la Sécurité de l'Aviation Civile] أفضل محققيه للبحث في الأسباب وراء تلك الكارثة التي حلت بملكة السماء، حيث كانت سجلاتها طوال فترة تشغيلها ولمدة ٢٧ عامًا خالية من أي أخطاء كارثية حتى ذلك اليوم، كانت الأسئلة كثيرة جدًا، والاحتمالات أكثر من بينها أن يكون السبب خطأ فني كبير من قائد الطائرة الكابتن (مارتي)، أو وجود خطأ غير معلوم داخل الطائرة، أو عمل إرهابي مشابه لما حدث في الرحلة رقم ١٠٣ لطائرة [بان أم - Pan Am] البوينج ٧٤٧ في ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ وراح ضحيتها ٢٧٠ شخص، وهي ما عُرفت إعلاميًّا باسم حادثة [لوكيربي – Lockerbie]، وخصوصًا أن السجلات أوضحت أن ١٩ قطعة من الأمتعة كانت على طائرة الكونكورد ولا تتعلق بالركاب، وما كان يجب أن تكون على الطائرة، تم تقسيم الاحتمالات في جداول، وتم تصوير وتصنيف كل شيء وأي شيء متعلق بالحادث، وبعد شهر كامل تم سحب جميع حطام الطائرة إلى ثلاثة مستودعات بمطار (لوبورجيه) للفحص والتحليل، بعد ساعات قليلة من الحادث أعلنت السلطات اكتشاف الصندوقين الأسودين والمخصص أحدهما لتسجيل القراءات المختلفة اللحظية لحالات الطائرة الفنية، والثاني للحوارات الصوتية التي درات داخل كابينة القيادة.

بفحص محتويات الصندوق الأسود الخاص بقمرة القيادة، لم يتم سماع صوت أي انفجارات فتم استبعاد احتمالية أي تفجير إرهابي، قرر المحققون الرجوع إلى العطل البسيط الذي أصاب المحرك الثاني للطائرة قبل تحركها، وأخَّر موعد إقلاعها، ولكن قراءات الصندوق الأسود الذي يوضح حالة المحركات لم يُشر إلى أي قراءة غير اعتيادية، كانت كل القراءات طبيعية حتى بلغت سرعة الطائرة على الممر ٣٢٣ كم / ساعة، وقبل ٧٢ ثانية من سقوطها الكارثي، أظهرت القراءات انخفاض مفاجئ وحاد في قدرة كلا المحركين على الجانب الأيسر، في نفس الوقت الذي أبلغ فيه برج المراقبة بالمطار قُمرة القيادة بظهور لهب خلف الطائرة، ولكن سرعة الطائرة قد وصلت إلى نقطة اللا عودة حيث لا تستطيع أن تقف مرة أخرى، ولا مجال لها سوى استكمال الطيران.

لذلك بدأ المحققون في فحص ركام المحركات في محاولة لمعرفة السبب، في ذلك الوقت كان هناك خيط آخر يكشف الحقيقة، حيث لاحظ المحققون بقايا أجزاء صغيرة من إطارات الطائرة على الممر، ولكن كان أحدهم كبير بشكل ملحوظ حيث وصل وزنه تقريبًا إلى ٤.٥ كجم، وسرعان ما أثبتت

الاختبارات أن هذا الجزء يعود لطائرة الكونكورد، وهو ما يعتبر دليل مثير للانتباه حيث تتميز إطارات الكونكورد عن إطارات الطائرات الأخرى بتحملها الكبير للضغوط العالية وخصوصًا عند الإقلاع والهبوط بدرجة تجعل تلك الإطارات قوية أكثر عند تلك الضغوط، لذلك انفجار أو تهتك إطارات الكونكورد هو أمر مستبعد تمامًا حيث تمَّ إعادة تصميم الإطارات لتتحمل ضعف الوزن والضغط المتوقع أن تتحمله لمزيد من الأمان، فكان السؤال الذي يحتاج إجابة هو كيف جاءت تلك القطعة على الممر، ولماذا؟، بإعادة فحص الممر جيدًا لاحظ المحققون شيئًا هامًا على أرضية الممر، إنَّها قطعة معدنية رفيعة ملتوية بطول ٤٣,٥ سم وعرض ٣,٤ سم وحادة حيث لا يتعدى سمكها ١,٤ مم، بفحص القطعة المعدنية تبين أنَّها من مادة التيتانيوم وهي مادة تستخدم في صناعة أجزاء من محركات الطائرات، استمر المحققون لمدة خمسة أسابيع كاملة يفحصون آلاف القطع التي تتكون منها الطائرات المختلفة، وفي النهاية توصل المحققون إلى أن تلك القطعة تعود لطائرات من طراز [ماكدونل دوجلاس دي سي١٠ - McDonnell Douglas DC١٠]، كانت آخر طائرة أقلعت على نفس الممر قبل طائرة الكونكورد المنكوبة، هي طائرة (دي سي ١٠) التابعة لشركة [كونتيننتال إيرلاينز - Continental Airlines] (لاحقًا بعد اندماجها أصبحت «يونايتد إيرلاينز») الأمريكية في طريقها إلى مدينة (نيوآرك – نيوجيرسي)، وبفحص ذات الطائرة لاحقًا في (هيوستون – تكساس) فوجئ المحققون أن تلك القطعة المعدنية مفقودة بالفعل من الطائرة، تلك القطعة التي جرى تثبيتها بالمحرك قبل ١٦ يومًا من الحادثة خلال الصيانة الدورية للطائرة، وتحديدًا يوم ١١ يونيو ٢٠٠٠ في (تل أبيب) بإسرائيل خلال الصيانة الدورية المعروفة باسم: «الفحص سي - C Check» الذي يتم تنفيذه مرة كل عامين، وتوصل المحققون لسبب الكارثة التي قضى تماماً على جيل الطائرات المدنية الأنيقة التي تفوق سرعتها سرعة الصوت (الكونكورد)، لقد مر الإطار الأمامي الأيسر على القطعة المعدنية الحادة الملقاة على الممر بسرعة ٣٢٣ كم / ساعة، مِمَّا تسبب في تهتك الإطار نتيجة انفجاره واندفعت قطعة الكاوتشوك ذات وزن ٤.٥ كجم لترتطم بأسفل الجناح الأيسر للطائرة حيث توجد خزانات الوقود مِمَّا أدى إلى ثقبها نتيجة قوة ارتطام قطعة الكاوتشوك، وخصوصًا أن جدار خزانات الوقود غير مصمم لتحمل ارتطام بمثل تلك القوة، ولكن بإعادة تجميع هيكل خزان الوقود من الحطام لمْ يجدْ المحققون أثرًا للثقب الذي نتج عن ارتطام قطعة الكاوتشوك وإن ظهر أثر الارتطام على السطح، ولكن سرعان ما وصل المحققون إلى استنتاج بأن تلك الصدمة الهائلة على خزان الوقود أسفرت عن تولد موجات من الضغط الداخلي نتج عنها كسر بأضعف جزء في جدار الخزان فانطلق منه الوقود للخارج سريعًا بكمية تقدر ب ٧٥ لتر كل ثانية.

ولكن ما زال هناك لغز يحتاج إلى حل، حيث أنه في حالة تسرب الوقود بمثل تلك السرعة، والكمية فإنَّه يحتاج لشرارة كي يشتعل، كان السؤال الذي يحاول المحققون الإجابة عليه هو معرفة من أين أتت شرارة الاشتعال؟!، كان الفيديو الوحيد الذي التقطه أحد الهواة من الشاحنة يحمل الإجابة على هذا التساؤل، فبالتدقيق في الفيديو يتبين أن مجموعة الإطارات اليسرى ما زالت بالأسفل، ولم تدخل في جسم الطائرة كما هو معتاد في هذا التوقيت الزمني عقب الإقلاع، كان التفسير الأقرب أن ذلك كان بسبب انقطاع السلك الموصل للتيار الكهربي، والمسؤول عن رفع وتنزيل الإطارات، كان هذا القطع نتيجة ارتطام فُتات كاوتشوك الإطار المنفجر بسرعة عالية مع السلك، وأسفر ذلك عن تولد شرارات كهربية متعددة نتيجة القطع كانت إحداهم كفيلة بإتمام إشعال كمية الوقود الهائلة المتسربة، لتصبح الكونكورد، وكأنَّها قنبلة طائرة، نتيجة احتراق محركين الجانب الأيسر، وتسريب الوقود وانصهار الجناح الأيسر، فكان مستحيلًا على قائد الطائرة التحكم فيها، ولمْ يسعفه الوقت للوصول إلى مطار (لو بورجيه) القريب على مسافة ٥ كم وذلك لاستحالة عودته لمطار (شارل ديجول) وهو ما زال على هذا الارتفاع المخفض، فسقطت الطائرة خلال دقيقة من إقلاعها.

بدأت السلطات الفرنسية في مارس ٢٠٠٥ تحقيقات جنائية نحو شركة (كونتيننتال إيرلاينز) الأمريكية التي سقطت القطعة المعدنية من محرك طائرتها على أرضية الممر، وفي مارس ٢٠٠٨ قدم الادعاء الفرنسي اتهامات لاثنين من موظفي شركة (كونتيننتال إيرلاينز) الأمريكية وهم [جون تايلور - John Taylor] الفني الذي قام باستبدال القطعة المعدنية في (تل أبيب)، ومديره [ستانلي فورد - Stanley Ford] متهمين كلاهما بالقتل شبه المتعمد نتيجة إهمالهما، ورغم دفاع الشركة الأمريكية إلَّا أن المحاكمة التي أقيمت في فرنسا من فبراير إلى ديسمبر ٢٠٠٨، استقر في وجدانها خطأ الشركة الأمريكية الإجرامي، وحكمت عليها بغرامة قدرها ٢٧١ مليون دولار، وحُكم على الفني (جون تايلور) بالسجن ١٥ شهر مع إيقاف التنفيذ، صرفت (إير فرانس) تعويضات قيمتها ١٠٠ مليون يورو لضحايا الحادث، وحكمت محكمة فرنسية بتحمل (كونتيننتال إيرلاينز) ما يعادل ٧٠ ٪ من قيمة تلك التعويضات.

بالرغم من توقف الكونكورد الكامل عام ٢٠٠٣ إلَّا أن [كريس ياتس - Chris Yates] محرر [تقرير جاين لمعايير وتكنولوجيا أمن المطارات -Jane’s Airport Security Standards & Technology Report] ما زال يؤكد أن طائرة الكونكورد تُعتبر واحدة من أكثر الطائرات أمانًا في الجو حتى الآن، ومن ناحية تصميمها ملاحيًّا فهو يرى أنَّها ما زالت أفضل التصميمات الرائدة للطائرات المدنية، حيث لم يجرؤ أحد حتى اليوم أن يأتي بتصميم مدني يضاهِي تصميمها، سجلات السلامة لطائرة الكونكورد على مدار تاريخها لا تدع

مجالًا للشك في أنَّها الأكثر أمانًا حيث لم تتعرض طائرات الكونكورد لأي حوادث كارثية باستثناء حادثة تحطم طائرة الكونكورد التابعة لشركة (ايرفرانس) في يوليو ٢٠٠٣، بلغت تكلفة تذكرة الذهاب، والعودة من باريس إلى نيويورك ٩ آلاف دولار، أي ما يزيد بنحو ٢٥ بالمائة عن الدرجة الأولى العادية. وتبلغ رحلة الذهاب والعودة بين لندن ونيويورك ٩،٨٥٠ دولارًا، (منخفضة المخاطر) كان هذا دائمًا هو التصنيف الرسمي لغالبية ملاحظات الصيانة سواء الفجائية، أو الدورية على طائرات الكونكورد، حتى الطائرة المنكوبة تعرضت لصيانة دورية مكثفة، وشاملة قبل أسبوع واحد من الكارثة وكان سبب حدوث الكارثة خطأ خارجي، نتيجة للسرعة الهائلة للطائرة كانت تستخدم الكونكورد في بعض الأحيان لنقل الأعضاء البشرية والماس والعملات، ومن الحقائق التي تتميز بها الطائرة أنَّها ونتيجة الحرارة التي تنشأ في هيكل الطائرة نتيجة السرعة العالية فإنّ حجمها يمكن أن يمتد مسافة من ستة إلى عشرة بوصات أثناء الرحلة، ويمكن الشعور بتلك الحرارة بتحسس النوافذ عقب هبوطها.

كانت الحلقة الأولى للجزء الأول من سلسلة تحقيقات الكوارث الجوية [لحظات ما قبل الكارثة - Seconds From Disaster] على قناة (ناشيونال جيوغرافيك)، والتي أذيعت للمرة الأولى في ٦ يوليو ٢٠٠٤ عن حادثة الكونكورد ورحلتها رقم ٤٥٩٠، وقدمت القناة من تلك السلسلة حتى فبراير ٢٠١٨ عدد ٦٩ حلقة مقسمة على سبعة أجزاء، المثير أن طائرة الكونكورد التي سقطت هي نفس الطائرة التي استخدمت في تصوير الفيلم الثالث من سلسلة أفلام حوادث الطائرات المعروفة باسم [المطار – Airport]، وذلك في فيلم [الكونكورد مطار ٧٩ - The Concorde… Airport ‘٧٩] والذي يدور حول محاولة إسقاط طائرة الكونكورد.

أيام قليلة عقب الحادث وتوقفت جميع طائرات الكونكورد عن الطيران لحين الوصول لأسباب الكارثة، كانت خطوط الكونكورد غير مُربحة لشركة (ايرفرانس)، وبالرغم من ذلك استمرت في العمل كنوع من الفخر القومي، ولكنَّها كانت تحقق أرباحًا طفيفة مع شركة (بريتش ايروايز) البريطانية، قامت الشركة بعمل تحسينات فنية جديدة لزيادة معدلات الأمان كلفتها ١٧ مليون جنيه إسترليني، حتى عادت للطيران مرة أخرى في نوفمبر ٢٠٠١، أنهى المحققون الفرنسيون عملهم، ونشروا تقريرهم النهائي في ١٦ يناير ٢٠٠٢، انخفض عدد الركاب بشدة عقب استئناف الكونكورد رحلاتها، ونتيجة المصاريف الباهظة التي تكبدتها في الصيانة، والخسارة التي وقعت عليها جراء توقف رحلاتها، أعلنت كل من شركتي الطيران الفرنسية والبريطانية قرارها في ١٠ أبريل ٢٠٠٣ بتوقف الكونكورد النهائي عن العمل، وفي يوم الإثنين ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣ كانت أخر رحلة مدنيّة للكونكورد حينما هبطت الرحلة

رقم ٠٠٢ التابعة للخطوط البريطانية في مطار (هيثرو) في تمام الساعة الرابعة عصرًا قادمة من نيويورك بمقاعد كاملة العدد حيث تجمع الآلاف من المتحمسين في المطار لمشاهدة الهبوط الأخير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عَلَم.. أيو جيما

فقط... جزء من ٤٠٠ جزء من الثانية هو الوقت الذي استغرقه المصور الفوتوغرافي الأمريكي [جو روزنتال - Joe Rosenthal] (١٩١١ – ٢٠٠٦) مصور وكالة [الأسوشيتد برس - Associated Press] ليلتقط واحدة من أشهر الصور الأيقونية على مدار التاريخ، تُعد تلك الصورة في الولايات المتحدة من أهم وأبرز صور الانتصارات الحربية الأمريكية، تظهر الصورة ٦ جنود من مشاه البحرية الأمريكيين يرفعون العلم الأمريكي على قمة جبل [سوريباتشي – Suribachi]،على الطرف الجنوبي الغربي لجزيرة [أيو جيما – Iwo Jima]، خلال المعركة الشهيرة التي تحمل نفس اسم الجزيرة البركانية اليابانية التي تقع جنوب جزر [بونين – Bonin] في المحيط الهادي، معركة (أيو جيما) تعد واحدة من أشرس المعارك قتالًا، وأكثرها دمويَّة، وأحد أكثر معارك الحرب العالمية الثانية البحرية أهمية، استمرت المعركة لمدة ٥ أسابيع من ١٩ فبراير حتى ٢٦ مارس ١٩٤٥ بين قوات البحرية الأمريكية، والقوات الإمبراطورية اليابانية، قامت القوات الأمريكية بغزو الجزيرة اليابانية (أيو جيما) بعد تحرير الفلبين من السيطرة اليابانية، وقبل الغزو المزمع لجزيرة [أوكيناوا – Okinawa] الذي بدأ في ١ أبريل ١٩٤٥، انتهت موقعة (أيو جيما) بسيطرة القوات الأمريكية على الجزيرة بالرغم من مقتل ٦,٨٢١ جندي من قواتها وجرح ما يزيد عن ٢٠ ألف جندي.

نظر [جون بودكين - John Bodkin] المحرر الفوتوغرافي لوكالة (الأسوشيتد برس) في الصورة فور الانتهاء من تحميضها ثمَّ صاح قائلا: "هذه هي صورة العمر!»، تلك الصورة التي أرسلها المصور (روزنتال) عقب التقاطها ظهيرة يوم الجمعة ٢٣ فبراير ١٩٤٥ إلى مركز الوكالة في جزيرة [جوام – Guam] غرب المحيط الهادي، لكي يتم تحميضها وطبعها، كانت القوات الأمريكية قد استعادت السيطرة على جزيرة (جوام) إحدى مجموعة جزر [ميكرونيزيا – Micronesia] في ١٠ أغسطس ١٩٤٤ من القوات اليابانية التي قامت باحتلالها في ديسمبر ١٩٤١، سارع «بودكين» بإرسال الصورة إلى مركز الوكالة الرئيسي في «نيويورك»، حيث كانت عقارب الساعة لا تزال تشير إلى السابعة صباحًا بالتوقيت المحلي، في خلال فترة وجيزة كانت الصورة على مكاتب المئات من محرري الصحف بعدما قامت بتوزيعها برقيًا عليهم، لمْ يكنْ قد مر على التقاط (روزنتال) للصورة أكثر من ١٧ ساعة ونصف الساعة.

تصدرت الصورة العدد رقم ٣١٨٠٩ الصادر صباح الأحد ٢٥ فبراير ١٩٤٥ من جريدة [النيويورك تايمز – The New York Times] تحت عنوان [المجد القديم يرتفع فوق أيو – Old Glory Goes up Over Iwo]، أمَّا التعليق أسفل الصورة فكان: «رجال مشاة البحرية في الأسطول الخامس يرفعون العلم الأمريكي

على قمة جبل سوريباتشي – برقيا الأسوشيتد برس (راديو البحرية – جوام)»، مثل: «النيويورك تايمز»، وبعناوين مشابهة قامت «لوس أنجلوس تايم - Los Angeles Times»، وعشرات من الصحف الكبرى العالمية وكذلك المحلية، مثل،» زي صن – سان برنادينو - The San Bernardino County Sun» بنشر الصورة.

استطاعت القوات الأمريكية بعد أربعة أيام من بداية غزو جزيرة (أيو جيما)، وتحديدًا يوم ٢٣ فبراير أن تسيطر على جبل (سوريباتشي) الاستراتيجي، والذي يعتبر أعلى قمة في الجزيرة بطول ١٦٩ متر، والقابع بالجانب الجنوبي الغربي من الجزيرة، وبالرغم من السيطرة على القمة إلَّا أن المعركة استمرت لمدة ٣١ يوما حتى تمَّ الإعلان على السيطرة الكاملة على الجزيرة في ٢٦ مارس، لمْ يكنْ رفع العلم على قمة جبل (سوريباتشي) هو الأول والوحيد، فقد تمَّ رفع العلم على قمة الجبل مرتين يوم الجمعة ٢٣ مارس، وقد اُلتقطت صورة (روزنتال) التاريخية أثناء المرة الثانية لرفع العلم، في حوالي الساعة ١٠:٢٠ صباحًا، وعقب السيطرة مباشرة على الجبل، أرسل القادة فصيلة عسكرية تتمركز على قمة الجبل مكونة من ٤٠ جندي بقيادة الملازم [هارولد شيرير - Harold Schrier]، ومعهم علم بعرض ١٤٠ سم وطول ٧١ سم، واستغرقت الفصيلة أكثر من ساعتين حتى تمكنت من الوصول إلى قمة الجبل، قام (شيرير) بربط العلم بماسورة مهملة وجدها على القمة تخص اليابانيين، وتمَّ نصب العلم بمساعدة الجنديين [إرنست توماس - Ernest Thomas] و [هانك هانسن - Hank Hansen] وسط هتاف، وتشجيع من الجنود الأمريكيين بالأسفل، ورجال البحرية على الشواطئ، والقطع البحرية في المياه المجاورة، وقد سببت تلك الهتافات انزعاجا كبيرًا داخل صفوف القوات اليابانية المتمركزين بمخابئهم، التقط صورة رفع العلم الأولى الرقيب [لويس لوري - Louis Lowery] المصور العسكري في سلاح مشاة البحرية، والمصاحب للفصيلة، وذلك لصالح مجلة البحرية الأمريكية، لاحظت القيادة أسفل الجبل صغر حجم العلم بصورة يصعب فيها تمييزه بوضوح، وخصوصا في الجانب الشمالي لجبل (سوريباتشي) الذي سيشهد العديد من المعارك العنيفة لاحقًا، وكان القرار بنصب علم أكبر على القمة.

أصبحت الصورة رمزًا للشجاعة، والإقدام، والاستبسال في المعارك العسكرية، بعدما أحدثت ضجة واسعة فور نشرها لما كان لها من تأثير واضح في معنويات الرأي العام الأمريكي، حصدت الصورة [جائزة بوليتزر - Pulitzer Prize] عن فئة التصوير الفوتوغرافي عام ١٩٤٥، وتعتبر الصورة الوحيدة منذ تاريخ إنشاء الجائزة عام ١٩١٧ التي تحصل على الجائزة في نفس العام الذي نُشرت فيه، حيث جرت العادة على أن تمنح جائزة العام عن صورة التقطت، ونشرت في العام الذي يسبق الإعلان عنها.

خلدت الصورة أسماء الستة المشاركين في رفع العلم وهم: - الرقيب [مايكل سترانك - Michael Strank].

- العريف [هارلون بلوك - Harlon Block]، وقد تمَّ تحديد هويته بالفعل في يناير عام ١٩٤٧ بعدما أعلن بالخطأ قبل ذلك التاريخ أنَّه العريف (هانك هانسن).

- العريف [فرانكلين سوسلي - Franklin Sousley].

وقد قُتل الثلاثة بعد عدة أيام أثناء الاشتباكات في تلك الحرب الطاحنة، أمَّا الثلاثة الأخرين فقد نجوا من الحرب وهم: - العريف [رينيه جانيون - Rene Gagnon].

- والعريف [أيرا هايس - Ira Hayes].

- العريف [هارولد شولتز - Harold Schultz]، والذي لم تعرف هويته حتى يونيو ٢٠١٦، حيث كانت تُعرّف تلك الشخصية قبل هذا التاريخ على أنَّه جندي الإسعاف [جون برادلي - John Bradley].

بأمر من العقيد [تشاندلر جونسون - Chandler Johnson] قام الرقيب (مايكل سترانك) باصطحاب ثلاثة من رجال البحرية للتسلق، والصعود إلى قمة الجبل، واستبدال العلم بعلم أكبر حجمًا كان عرضه ٢٤٣ سم وطوله ١٤٢ سم، وصل (سترانك) مع الجنود الثلاثة للقمة تقريبًا في منتصف الظهيرة دون التعرض لأي محاولات لإطلاق النار عليهم من القوات اليابانية، في تلك الأثناء كان المصور (روزنتال) يتسلق الجبل مع العريف [بوب كامبل - Bob Campbell]، ومصور البحرية الأمريكية الرقيب [بيل جناوست - Bill Genaust] والذي قتل لاحقًا في اشتباكات عقب رفع العلم، أثناء تسلقهم الجبل صعودا قابلوا الرقيب (لويس لوري) الذي كان في طريق عودته للأسفل عقب التقاط صورة رفع العلم الأول، قرر الثلاثة العودة والنزول مع (لوري) عندما علموا بإتمام رفع العلم بالفعل، ولكنَّه نصحهم باستكمال الصعود ليكتشفوا المشهد من أعلى وروعة المنظر من على قمة الجبل، وأيضاً لكي يتمكنوا من التقاط بعض الصور فوتوغرافية.

استكمل الثلاثة الصعود لقمة الجبل دون أن يدركوا أنَّ مشاة البحرية يقومون باستبدال العلم على قمة الجبل بعلم آخر أكبر، عندما اقترب (روزنتال)، ورفاقه من قمة الجبل كان جنود البحرية يقومون بإزالة العلم الصغير، وتركيب العلم الأكبر على تلك الماسورة القديمة الخاصة بالقوات اليابانية، سارع (روزنتال) بوضع كاميرته على أرض الجبل؛ لكي يجمع بعض الأحجار يستطيع أن يقف عليها لتحقق رؤية أفضل، وزاوية تصوير أوسع، ولكنَّه كاد أن

يخسر اللحظة كاملة حيث بدأ الجنود في رفع سارية العلم الجديد، وتثبيتها، لذلك قام سريعًا بحمل كاميرته الخاصة من نوع «Speed Graphic» من على الأرض حيث كانت وقتها مثبتة على فتحة عدسة F ٨:١١، وسرعة لاقط ١/٤٠٠ من الثانية وبداخلها فيلم [أجفا – Agfa] مقاس ٣٥مم، وضغط على زر الالتقاط وهو يحملها في الهواء تجاهه دون أن ينظر في عدسة الكاميرا، ليلتقط واحدة من أهم الصور الأيقونية في التاريخ، بعد ١٠ سنوات على رفع العلم على (أيو جيما) يقول (روزنتال) تعليقا على تلك الصورة: «بطرف عيني لاحظت أن الجنود يقومون برفع العلم، فسحبت الكاميرا سريعًا من على الأرض حيث تأرجحت بين يدي، وأنا أضغط على زر اللاقط، هكذا كانت ظروف التقاط الصورة، وعندما تلتقط صورة مثل تلك، لا تعود صائحًا أنك حصلت على صورة جيدة، فأنت لا تعرف».

كان كتف المصور الرقيب (بيل جناوست) المصاحب ل (روزنتال) تقريبًا في كتفه، يبعد فقط ثلاثة أقدام عنه وكان يقوم بتصوير سينمائي ملون للحظة رفع العلم، وتقريبًا هي نفسها الزاوية تمامًا الذي التقط منها (روزنتال) صورته الأيقونية، وهذه اللقطة الفيلمية تنفي كل الاتهامات، والشكوك التي لاحقت (روزنتال) لاحقًا بأن الصورة مُلفقة، أو تمَّ تمثيلها، ولمْ تكنْ طبيعية، أو حقيقية.

تمَّ تحديد الشخصيات الستة في الصورة لأول مرة في مارس ١٩٤٥ بناء على طلب من الرئيس الأمريكي [فرانكلين روزفلت - Franklin D. Roosevelt]، ولكن هناك خلط نشأ في تحديد الشخصيات بدقة نتيجة أن الوجوه في صورة رفع العلم إمَّا كانت غير واضحة أو تنظر إلى الجهة الأخرى، وبعد ٦٩ عامًا، وتحديدًا في ٢٣ نوفمبر ٢٠١٤ نشرت جريدة [أوماها وورلد هيرالد - Omaha World-Herald] المحلية تحقيقًا صحفيًّا تُشكّك في حقيقة شخصية (جون برادلي) في الصورة الشهيرة للجنود الستة، واستندت على ذلك من خلال عدة دلائل في صورة أخرى جماعية ملتقطة بعد تلك اللقطة بقليل يظهر فيها ١٨ جندي بحرية من بينهم المسعف (جون برادلي)، وبمقارنة ملابس الجنود وهيئتهم في الصورة الثانية كوسيلة للتعرف، والتأكد من شخصيات الجنود في صورة رفع العلم، اتضح أن هناك اختلاف رئيسي بين الصورتين في الخوذة والحزام الذي يردتيهما (برادلي).

وأنهت الجريدة تحقيقها بالتساؤل عن ماهية الرجل الغامض الذي لمْ يحصلْ على حقه طوال تلك السنوات كونه أحد الجنود الستة الذين رفعوا العلم في الصورة الأكثر شهرة، وطباعة في التاريخ الأمريكي، في بداية عام ٢٠١٦ قامت البحرية الأمريكية بتشكيل لجنة مراجعة على أعلى مستوى يرأسها لواء متقاعد بالمشاة البحرية للتحقق من حقيقة شخصيات الجنود الستة

بالصورة، وفي يونيو ٢٠١٦ أصدرت البحرية الأمريكية بيانًا نشرته كافة وكالات الأنباء العالمية تفيد أن (جون برادلي) لمْ يكنْ أحد أولئك الجنود الستة الذين رفعوا العلم في المرة الثانية، وأن الشخص المجهول الذي شارك في رفع العلم كان هو العريف (هارولد شولتز)، تمَّ التوصل إلى شخصية (شولتز) من خلال موضع تثبيت بندقيته التي كانت ظاهرة في مستوى منخفض بالصورة الجماعية، وهي ما تطابقت مع صورة (روزنتال) أثناء رفع العلم، بعد ثلاثة أسابيع من واقعة رفع العلم أصيب (شولتز) أثناء العمليات العسكرية على جزيرة (أيو جيما) إصابة غير مميتة، ولم يُعرف عنه أنَّه تحدث يومًا علانية عن مشاركته كأحد الجنود الستة في رفع العلم حتى رحل عن الحياة عام ١٩٩٥ عن عمر يناهز ٧٠ سنة، تصرح [ديزرين ماكدويل - Dezreen MacDowell] ابنة زوجة (شولتز) لجريدة (نيويورك تايمز) بأن زوج والدتها أخبرهما مرة في مساء إحدى الليالي أوائل التسعينات أثناء تناول العشاء في هدوء بأنَّه كان أحد الستة الذين رفعوا العلم على (أيو جيما)، تقول ابنة الزوجة بأن والدتها لمْ تكنْ منتهبه، ولا مهتمة بحقيقة ما يقوله، إلَّا أنَّها عقَبت على حديث زوج والدتها مشجعة إياه: «يا إلهي ياهارولد,.. أنت إذن بطل» فرد عليها قائلًا: "لا... أنا فقط جندي بحرية»، ولكنَّه لمْ يعيدْ تكرار هذا الحوار مرة أخرى -غالبًا بسبب احتمالية إنكار الآخرين لذلك- في تعقيب للبحرية الأمريكية على بيان تصحيح الوضع، وتحديد كامل الشخصيات الحقيقية على لسان قائد القوات البحرية الامريكية [روبرت نيلر - Robert Neller] تقول: «إن تاريخنا مهم بالنسبة لنا... ونحن نتحمل المسؤولية للتأكد من صحته».

تنبع أهمية جزيرة (أيو جيما) في موقعها الاستراتيجي الذي يُمَكّن القوات الجوية الأمريكية من استخدام الجزيرة لشن هجمات بالقنابل على اليابان، تقع الجزيرة في المحيط الهادي على بعد ١٢٢٣ كم جنوب العاصمة اليابانية (طوكيو)، وتبلغ مساحتها ٢١ كم^2، تمَّ إخلاء الجزيرة بالكامل من سكانها المدنيين المحدودين بالقوة عام ١٩٤٤، وذلك بعدما اتخذتها القوات اليابانية كقاعدة عسكرية لها، كان هدف القوات الأمريكية الاستيلاء على الجزيرة وخصوصًا الممرات الثلاثة للطائرات المتواجدين بالجزيرة، وهي التي ستُمكّن القوات الامريكية من شن الهجمات الجوية بالقنابل على اليابان، لذلك كانت الجزيرة محصنة بالقوات اليابانية التي قاربت ٢١ ألف جندي، والمدفعيات المتخفية والمخابئ العديدة والأنفاق التي بلغ مجموع أطوالها ١٢ كم، واجهت قوات المشاة البحرية اليابانية قصف جوي وبحري هائل أطلقه الأسطول الخامس الأمريكي تحت قيادة الأدميرال [ريمون سبروانس - Raymond Spruance] منذ يوم ١٩ فبراير ١٩٤٥، حيث بدأت عملية إبرار الجنود الأمريكيون على أرض الجزيرة بمشاركة أكثر من ١١٠ ألف جندي و ٥٠٠ سفينة في تلك العملية البرمائية تحت قيادة الأدميرال [ريتشموند تيرنر -

Richmond Turner]، كان الهدف بعد السيطرة العسكرية على جبل (سورباتشي) الاستراتيجي، هو تأمين الممرات الثلاثة للطائرات بغرض تهيئة قاعدة جوية متقدمة لتنفيذ الهجوم المخطط له على الأراضي اليابانية، استطاعت القوات الأمريكية السيطرة على الجبل خلال ٤ أيام حيث تمَّ رفع العلم يوم ٢٣ فبراير وكان ذلك حافز، ودافع معنوي كبير لما ترمز له السيطرة على الجبل من سيطرة القوات الأمريكية على الجزيرة بأكملها.

كانت أصعب، وأشرس المعارك على الجزيرة تلك التي دارت للسيطرة على ممر الطائرات الثاني في منطقة [موتومايا – Motoyama]، والتي استمرت حتى يوم ٢٨ فبراير، كان قائد القوات اليابانية الجنرال [تاداميشي كوريبياشي - Tadamichi Kuribayashi] يعلم أن الخنادق العادية لن تسعف قواته، لذلك قرر استخدام شبكة الأنفاق الاستراتيجية التي أعدها من قبل تحت الأرض، وتحتوي على نقاط اتصال وتحكم، ومستودعات ذخائر وأسلحة ومؤن، وقام بتقسيم وحداته وربط بعضها ببعض قدر الإمكان، حيث مكثت قواته التي بلغت ٢١ ألف جندي تقاتل من خلال تلك الأنفاق تحت الأرض في درجة حرارة بلغت ٤٠ درجة مئوية، المرحلة الأخيرة والعنيفة من القتال وقعت في التلال المحصنة، ولمْ يتمْ السيطرة على تلك الدفاعات الحصينة حتى يوم ١٠ مارس ١٩٤٥، استمرت بعض المجموعات من القوات اليابانية في دفاع مستميت ولمْ تستطعْ القوات الأمريكية إلَّا متأخرًا في نهاية مارس تأمين الممرات الثلاثة وتجهيزها لأسطول طائرات القصف الجوي بالقنابل من طراز [بي ٢٩ سوبر فورترس - B-29 Superfortress]، استخدم هذا النوع من الطائرات لاحقًا في أغسطس من نفس العام في قصف مدينة [هيروشيما – Hiroshima] اليابانية بالقنبلة النووية وتحديداً في ٦ أغسطس ١٩٤٥، وبعد ثلاثة أيام استخدمت لإلقاء القنبلة النووية الثانية على مدينة [ناجازاكي – Nagasaki] اليابانية، وفي اليوم التالي أعلنت اليابان استسلامها وانتهت الحرب العالمية الثانية.

في ٢٦ مارس وبعد ٣٦ يومًا من المعارك العنيفة سقطت جزيرة (أيو جيما) بأكملها في أيدي القوات الأمريكية، وقُتل في المعارك كامل القوات اليابانية التي بلغت ٢١ ألف جندي ولم يتبقى على قيد الحياة سوى ٢١٦ جندي ياباني وقعوا في الأسر، ورغم سيطرة القوات الأمريكية على الجزيرة إلَّا أن العشرات من الجنود اليابانيين تخفّوا في الكهوف، والأنفاق ورفض كثير منهم الاستسلام على مدار أشهر، مِمَّا اضطر القوات الأمريكية لتدمير الأنفاق عليهم لإجبارهم على الخروج حتى استسلم منهم ٦٧ مقاتلًا؛ بسبب سوء التغذية ونقص الهواء والظروف الصحية الخطيرة خلال شهري يونيو، ويوليو ١٩٤٥، آخر تلك المعاقل كانت بعد ٤ سنوات من احتلال الجزيرة، حيث استسلم في ٦ يناير ١٩٤٩ آخر جنديين يابانيين نجحا في الفرار من القوات

الأمريكية دون اكتشافهما خلال تلك السنوات، وهما جنديي المدفعية الآلية [ماستودو لينسوكي- Matsudo Linsoki]، و[ياماكاجا كوفوكو - Yamakage Kufuku]،والغريب أنَّهما كانا يختبئان في كهوف قريبة من القوات الأمريكية، ولمْ يكنْ كلاهما فقط على قيد الحياة، ولكن كانا يتمتعان بصحة جيدة بسبب الطعام الذي كانا يلتقطاه خلسة من مخازن القوات الأمريكية.

كانت الخسائر في الجانب الأمريكي أيضًا مريرة فقد قُتل ٦,٨٢١ جندي أمريكي من مشاة البحرية، وجُرح أكثر من ١٧,٤٠٠، بدأ يومي ٩ و١٠ مارس انطلاق الطلعات الجوية من الجزيرة لقصف العاصمة اليابانية (طوكيو) ثمَّ لاحقًا مدن أخرى مثل [ناجوي – Nagoy]، [أوسكا – Oska]، و[يوكوهاما – Yokohama]، ظلت القوات الأمريكية مُحتلة الجزيرة حتى أعادتها مرة أخرى عام ١٩٦٨ للسلطات اليابانية بعدما انتهت الحاجة لها، وتحاول السلطات اليابانية في السنوات الأخيرة استعادة مزيد من رفات جنودها حيث لمْ يجر استعادة إلا عدد قليل منهم.

المسعف (جون برادلي) الذي تمَّ تعريفه بالخطأ على أنَّه من الستة جنود الذين شاركوا في رفع العلم توفي عام ١٩٩٤ عن عمر يناهز ٧٠ عامًا، ونجله هو [جيمس برادلي - James Bradley] الروائي المتخصص في رصد الأحداث التي تؤرخ لمسرح المحيط الهادئ أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد قام (برادلي) الابن بكتابة كتاب [أعلام أباءنا - Flags of Our Fathers] الذي نُشر في مايو ٢٠٠٠ ويُمَجّد فيه البحرية الأمريكية ومسيرة والده مع الخمسة المشاركين في صورة رفع العلم، ويحكي كل التفاصيل الخاصة بنضالهم، يخبر (برادلي) الأب الذي لم يحتفظ بنسخة من الصورة الأشهر (برادلي) الابن بأن الأبطال الحقيقيين في (أيو جيما) هم أولئك الذين لمْ يعودوا منها، في إشارة منه إلى القتلى الذين ضحوا بحياتهم لتحقيق النصر، استمر الكتاب في قائمة (نيويورك تايمز) لأفضل الكتب الواقعية الأكثر مبيعًا لمدة ٤٦ أسبوع، منهم ٦ أسابيع كاملة متصدرًا القائمة.

وقام الكتاب بسرد السيرة الذاتية الكاملة للجنود الستة ومنهم (برادلي)، وفي ٢٠ أكتوبر عام ٢٠٠٦ كان العرض الأول لفيلم [ستيفن سبيلبرج -Steven Spielberg] الذي يحمل نفس عنوان الكتاب، وقام بإخراجه الممثل العالمي: [كلينت إيستوود - Clint Eastwood]، ورُشح الفيلم عام ٢٠٠٦ لنيل جائزتين من [جوائز الأوسكار - Academy Award]، وكذلك رُشح الفيلم في نفس العام لنيل [جائزة الجولدن جلوب - Golden Globe Award] لفئة أفضل مخرج، وإذا كان هذا الفيلم يعكس وجهة النظر الأمريكية في معركة (أيو جيما) فإنَّ (إيستوود) أنتج، وأخرج في نفس العام فيلم [رسائل من أيو جيما - Letters from Iwo Jima] الناطق باللغة اليابانية، والذي يستعرض وجهة النظر

اليابانية من خلال الخطابات التي كان يكتبها قائد القوات اليابانية الجنرال (كوريبایاشي) لأسرته من أرض المعركة، وعثر عليها مدفونة في أحد أنفاق المعركة عام ٢٠٠٥ مع مئات من رسائل أخرى للجنود اليابانيين، قامت السيناريست اليابانية الأمريكية [ايريس ياماشيتا - Iris Yamashita] بكتابة سيناريو الفيلم الذي نجح في تقديم صورة واقعية قاسية وقاتمة للحرب، يُصوّر الفيلم العزيمة والإصرار والقوة والشجاعة التي تحلى بها الجنود اليابانيين، في مقاومة عدوهم رغم قسوة الأوضاع التي كان يعيشونها أثناء المعركة، وإدراكهم أن مصيرهم المحتوم هو الفناء نظرًا لقلة عددهم بعدما سُحقت القوات اليابانية، وفقدوا الأمل في إمدادهم بقوات احتياطية إضافية، وكذلك بسبب نقص الإمدادات والمعدات والمؤن، ليتحول هدفهم من الانتصار على عدوهم إلى تحقيق أقصى خسائر بشرية ممكنة في قوات البحرية الأمريكية، وكانت تلك البسالة سببًا رئيسيًّا في إطالة زمن المعركة الطاحنة التي كان مخطط لها ألَّا تزيد عن ٥ أيام إلى ٣٦ يوم.

حصد الفيلم جائزة أوسكار أفضل مونتاج صوتي عام، والذي كان ينافسه فيها في مصادفة نادرة فيلم: «أعلام أباءنا»، كما تم ترشيحه لثلاث جوائز أخرى، وهي أوسكار أحسن فيلم، وأحسن سيناريو، وأحسن إخراج، كما فاز الفيلم بجائزة (الجولدن جلوب) عن أفضل فيلم ناطق بلغة أجنبية، ورشح (إيستوود) في نفس المسابقة لنيل جائز أفضل مخرج، كما حصد جائزة أفضل فيلم من رابطة نقاد السينما في (لوس أنجلوس) في نفس العام.

تمَّ الاحتفاظ بالعلمين الأصليين الذين تمَّ رفعهما يوم ٢٣ فبراير ١٩٤٥ في [المتحف الوطني لمشاة البحرية - National Museum of the Marine Corps] شمال شرق ولاية [فيرجينيا – Virginia]، كلفت البحرية الأمريكية عام ١٩٥١ النحات النمساوي المولد الأمريكي الجنسية [فيلكس دي ويلدون - Felix de Weldon] والذي تتجاوز أعماله أكثر من ١٢٠٠ تمثال موزعين في القارات السبعة، بتشييد النصب التذكاري لسلاح البحرية بمقاطعة [أرلينجتون – Arlington] بولاية (فرجينيا): وهو عبارة عن نصب تذكاري يجسد صورة (روزنتال) لرفع العلم، في ١٠ نوفمبر ١٩٥٤ تمَّ رفع الستار عن العمل الفني الضخم الذي تكلف وقتها ٨٥٠ ألف دولار.

عام ١٩٤٩ عرض فيلم [رمال أيو جيما – Sands of Iwo Jima] الذي استوحيت قصته من صورة (روزنتال)، وفي يونيو ١٩٤٥ أصدرت هيئة البريد الأمريكية طابع بريد يحمل صورة رفع العلم قبل أن تعيد إصدار طابع بريد آخر عام ١٩٩٥ يحمل نفس الصورة الأيقونية، ضمن مجموعة من عشر طوابع تخليدًا للذكرى الخمسون لنهاية لحرب العالمية الثانية، عام ٢٠٠٥ أصدرت مصلحة صك النقود بالولايات المتحدة عملة تذكارية فضية تكريما للذكرى الـ ٢٣٠

لفيلق مشاة البحرية الأمريكية، تحمل تلك العملة صورة رفع العلم على (أيو جيما)، احتلت الصورة المركز رقم ٦٨ في قائمة أفضل ١٠٠ عمل صحفي في الولايات المتحدة في القرن العشرين والذي أجرته جامعة (نيويورك)، ونشرته جريدة [النيويورك تايمز - The New York Times] في ١ مارس ١٩٩٩، وعن الاهتمام البالغ بشخصيات الجنود الستة يقول الجنرال (روبرت نيلر) قائد البحرية الأمريكية: «على الرغم من أن صورة (روزنتال) معروفة ومهمة، إلَّا أن أفراد المارينز لا يدورون حول الأفراد ولمْ يكونوا أبدًا، ولكن ببساطة فإنَّ روحنا القتالية تمَّ تصويرها في هذا الإطار، وستظل رمزًا للإنجازات الهائلة التي حققها فَيلقُنا، ما فعلوه معًا، وما يمثلونه لا يزال الأكثر أهمية... هذا أمر لا يتغير».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات..

عن الكتاب..

إهداءٌ..

الهروب إلى الحرية
أحلام مارتن لوثر كينج
خماسي كامبريدج
كسباروف.. والأزرق الداكن
ووترجيت.. شريط لاصق، ودفتر هاتف، ونهاية رئيس
1984 – حقائق بديلة
إدسا... شارع الثورة
ستوكهولم سيندروم
اغتيال هتلر
إطارات بلا لوحات
كراكيب الأخوين كولِيَر
لآلئ قبل الإفطار
يد الرب... أم يد مارادونا
وداعًا... الكونكورد
عَلَم.. أبو جيما